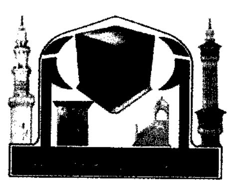
المملكة العربية السعودية
الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي
إدارة المطبوعات والنشر


مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي

المجموعة الكاملة لمؤلفات سماحة الشيخ العلامة محمد بن عبد الله السبيل رحمه الله

٩

من هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم

تأليف
سماحة الشيخ العلامة
محمد بن عبد الله السبيل رحمه الله
إمام وخطيب المسجد الحرام وعضو هيئة كبار العلماء وعضو المجمع الفقهي الإسلامي
(١٣٤٥ - ١٤٣٤هـ)



بسم الله الرحمن الرحيم


من هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم

ⓒ **مدار الوطن للنشر، ١٤٣٦ هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السبيل، محمد عبد الله

المجموعة الكاملة لمؤلفات سماحة الشيخ محمد عبد الله السبيل.

من منبر المسجد الحرام (من هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم) ـ الجزء ٩/

محمد عبد الله السبيل ـ الرياض، ١٤٣٦هـ.

...ص؛ ... سم.

ردمك: ٧ ـ ٢٥ ـ ٨١٧١ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ ـ السبيل، محمد بن عبد الله بن محمد ٢ ـ الحديث ـ جوامع الفنون ٣ ـ الحديث شرح أ ـ العنوان

ديوي: ٢٣٧،٣ ١٤٣٦/٧٦١٨هـ

إدارة المطبوعات والنشر بالرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ ـ ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٦١٨ هـ

ردمك: ٧ ـ ٢٥ ـ ٨١٧١ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨



المملكة العربية السعودية

المقر الرئيسي: الرياض ـ الروضة

ص.ب.: ٢٤٥٧٦٠ الرمز البريدي ١١٣١٢

هاتف: ٠١١٢٣١٣٠١٨ (٣ خطوط)

٠١١٤٧٩٢٠٤٢

فاكس: ٠١١٢٣٢٢٠٩٦

فرع السويدي

هاتف: ٠١١٤٢٦٧١٧٧ ـ فاكس: ٠١١٤٢٦٧٣٧٧

الرياض: ٠٥٠٣٢٦٩٣١٦

الغربية: ٠٥٠٤١٤٣١٩٨

الشرقية: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨

الشمالية والقصيم: ٠٥٠٤١٣٠٧٢٨

التوزيع للشرقية والجنوبية: ٠٥٠٣١٩٣٢٦٩

التوزيع الخيري لباقي جهات المملكة: ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤

التسويق للجهات الحكومية: ٠٥٠٠٩٩٦٩٨٧

pop@madaralwatan.com • madaralwatan@hotmail.com • www.madaralwatan.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فهذه خمسون حديثًا مختارة من الأحاديث النبوية الشريفة ، من جوامع كلم المصطفى ﷺ ، مشتملة على أصول الدين وأركانه ، وشرائعه وأحكامه ، وفضائله وآدابه ، تم شرحها وبيان معانيها وأحكامها ، وإيراد الشواهد عليها من الكتاب والسنة ، وكلام الأئمة ، وسميت هذا الشرح **(من هدي المصطفى ﷺ)** .

وقد أذنت بنشرها رجاء أن يعم بها النفع ، ويحصل بها الأجر إن شاء الله .

والله أسأل أن يجعها خالصة لوجهه الكريم ، وزلفى لديه إلى جنات النعيم . والحمد لله رب العالمين .

محمد بن عبد الله السبيل

مكة المكرمة في ١/ ٥/ ١٤٢٧هـ



الحديث الأول

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه** » .

يخبر عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث أن العمل موقوف صحته وقبوله على النية ، فإن كانت النية خالصة لله ، فهذا هو العمل الصحيح المقبول عند الله، وإن كانت غير خالصة لله ، بل أريد بها شيء آخر ، فليست بصحيحة ، فمدار العمل صحة وفسادًا على النية ، إن صحت صح العمل ، وإن فسدت فسد العمل .

وهذا الحديث الشريف ركن من أركان الدين ، وعليه مدار الأحكام، وقد قال كثير من العلماء : إن هذا الحديث أحد الأحاديث الأربعة ، التي عليها مدار الدين .

قال الإمام الشافعي رحمه الله : هذا الحديث ثلث العلم ، ويدخل في سبعين بابًا من الفقه .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث ، فذكر منها حديث عمر: « إنما الأعمال بالنيات » ، وحديث النعمان بن بشير: «الحلال بين والحرام بين » ، وحديث عائشة : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .

وقال عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله : لو صنفت الأبواب لجعلت حديث عمر بن الخطاب : « إنما الأعمال بالنيات» في كل باب .

وقال أبو داود رحمه الله : كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث ، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب - يعني كتابه السنن - جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث ، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث : أحدها قوله عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات» ، والثاني قوله ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» ، والثالث قوله ﷺ : « لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى لا يرضى لأخيه إلا ما يرضى لنفسه» ، والرابع قوله عليه الصلاة والسلام : «الحلال بين والحرام بين» .

وقال بعض العلماء في هذا :

عمدة الديـــن عندنــا كلمات أربع من كلام خـير البريه

اتق الشبهات وازهد ودع ما ليـس يعنيك واعملن بنيه

وقد روى بعض العلماء أن لهذا الحديث سببًا ، وهو أن رجلاً جاء إلى

المدينة ، يُظهر الخير والرغبة فيما أعد الله للمهاجرين ، الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا ، وكان يبطن التزوج بامرأة مهاجرة ، يقال لها : أم قيس ، قد خطبها إلى نفسه ، فأبت عليه حتى يهاجر ، فأطلع الله نبيه على سر ذلك ، وما يخفيه في نفسه ، فذكر الحديث عنها بمهاجر أم قيس ، وإخبارًا لسائر أمته أن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه .

وقد أمر الله جل وعلا عباده بإخلاص العبادة له وحده لا شريك له ، كما قال عز وجل: ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر:٢] ، ويقول عز وجل : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] ، ويقول عز وجل: فَمَن﴿ كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف:١١٠] ، وقال جل شأنه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [هود:١٥-١٦] .

وفي الحديث القدسي : يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» رواه مسلم .

وروى النسائي عن أبي أمامة الباهلي قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ

فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ، ما له ؟ فقال رسول الله ﷺ: لا شيء له ، ثم قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا ، وابتغي به وجهه » .

وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد ، فأتي به ، فعرفه نعمه ، فعرفها، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت ؛ لأن يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، فقال : ما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم ، وعلمته ، وقرأت فيك القرآن، فقال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ؛ ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ؛ ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسَّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتي به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ فقال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ؛ ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار » .

فهذه الآيات والأحاديث تدل على وجوب إخلاص العمل لله ، وأن

من عمل عملاً لغير الله فإنه لا يقبل منه ؛ لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك، فعليك أيها المسلم أن تحاسب نفسك ، وتحرص على إخلاص عملك لله وحده ، من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وجهاد ، وطلب علم ؛ لأن طلب العلم عبادة لمن صحت نيته ، وهو أفضل من نوافل الصلاة والصيام .

روي عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال : تذاكر بعض ليلة أحب إلي من إحيائها .

ولذلك ورد الوعيد الشديد فيمن تعلم العلم لغير الله ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب عرضًا من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة –يعني ريحها» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة .

وفي الترمذي عن كعب بن مالك ، عن النبي ﷺ قال : «من طلب العلم ليماري به السفهاء ، أو يجاري به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله النار» .

فكل من أراد بعلمه غير وجه الله عز وجل ، فلا بد أن ينكشف يوم القيامة يوم الجزاء والحساب .

وكل امرئ يومًا سيعرف سعيه ... إذا حصلت عند الإله الحصائل

واعلم أن النية تقع في الشرع بمعنيين :

أحدهما : أنها شرعت لتمييز العبادات بعضها عن بعض ، كتمييز صلاة الفريضة عن النافلة ، أو تمييز الفريضة عن فريضة غيرها ، كصلاة الظهر عن صلاة العصر ، وكتمييز صيام التطوع عن صيام الفريضة ، وشرعت كذلك لتمييز العبادات عن العادات ، كتمييز غسل الجنابة عن غسل التبرد أو التنظيف ، وهذا المعنى هو الذي يجري كثيرًا على لسان الفقهاء .

والمعني الثاني للنية : أن تقع لتمييز المقصود بهذه العبادة ، وهذا العمل الصادر منك على وجه التعبد ، هل هو لله وحده لا شريك له ، أو أنه لغير الله ، كالرياء والسمعة ، أو إرادة شيء من الدنيا ، أو تكون النية لله ولغير الله .

كما جاء في الحديث عن أبي سعيد مرفوعًا إلى النبي ﷺ : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل » رواه الإمام أحمد وابن ماجة وغيرهما .

قال ابن رجب – رحمه الله – : « وهذا المعنى في النية الذي هو تمييز المقصود بالعمل ، هي النية التي يتكلم فيها العارفون بالله في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وما يتعلق به ، وهي التي توجد في كلام السلف

الصالح ، وهذه هي التي يتكرر ذكرها في كلام النبي ﷺ ، تارة بلفظ النية ، وتارة بلفظ الإرادة ، أو بألفاظ تقارب ذلك ، وقد جاء ذكرها كثيرًا في كتاب الله تعالى بغير لفظ النية من الألفاظ المقاربة لها ، كقوله عز وجل : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾[آل عمران:١٥٢]، وكقوله عز وجل : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ [الأنفال:٦٧] ، وكقوله عز وجل : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء:١٨] ، وقد يعبر بها بلفظ آخر كقوله عز وجل : ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٧٢] ، ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[البقرة:٢٦٥] » انتهى بتصرف.

فإذا تأملت أيها المسلم هذه الآيات ، رأيت أن الثواب إنما يحصل لمن عمل عملاً أراد به وجه الله تبارك وتعالى ، أو عمل عملاً ، ابتغاء مرضاة الله ، والنبي ﷺ كثيرًا ما يعبر بالنية ، والنية والإرادة متقاربان في المعنى ، فالنبي ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى».

وفي صحيح البخاري ومسلم رحمهما الله عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال : « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُثِبْتَ عليها ، حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك » .

ولعظم النية وخطرها ومكانها من العبادة كان السلف الصالح يهتمون بها غاية الاهتمام ، ويحاولون تصحيحها ما أمكنهم ، ولذلك روي

عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « لا ينفع قول إلا بعمل ، ولا ينفع قول وعمل إلا بنية ، ولا ينفع قول وعمل ونية إلا بما وافق السنة» .

وروي عن زيد اليامي قال:« إني لأحب أن تكون لي نية في كل شيء، حتى في الطعام والشراب» .

وقال سفيان الثوري : «ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نيتي ؛ لأنها تتقلب عليَّ» .

وقال ابن المبارك : «رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية» .

وقال ابن عجلان : «لا يصلح العمل إلا بثلاث : التقوى لله ، والنية الحسنة ، والإصابة».

وقد قال الفضيل بن عياض رحمه الله في تفسير قوله عز وجل: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك :٢] قال : « أخلصه وأصوبه ، قالوا: فما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصًا ، ولم يكن صوابًا ، لم يقبل ، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا ، لم يقبل ، حتى يكون خالصًا صوابًا ، قال : والخالص إذا كان لله عز وجل ، والصواب إذا كان على السنة» .

وقد دل على كلام الفضيل هذا قوله عز وجل: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ

لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾[الكهف:١١٠].

قال بعض العلماء رحمه الله : يا من يريد الدنيا بالآخرة ، ويلتمس رضى الناس بسخط الله عليه ، رويدًا ورفقًا بحالك ، ويا حريصًا على ثناء الناس عليه ، وأن يمدحوه بما لا يستحق ، تدبر قول ربك : ﴿ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾ [البقرة:٢٨٤] ، وكن على يقين بأنك مسؤول عما تخفيه، ومحاسب على ما تكتمه وتبديه ، وللآخرة خير لك من الأولى ، والذي عند الله أقرب مما في يديك ، والذي تريد من غيره بعيد عنك ، ومتعذر عليك ، ولا تخدعن نفسك بإصلاح عملك الظاهر مع فساد قلبك بحب السمعة والرياء ، ولا تحسبن الله يجهل حقيقة أمرك ومكنون سرك .

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل   خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما تخفي عليه يغيب

ولقد بين السلف الصالح رضوان الله عليهم الحكم فيمن كانت نيته صحيفة خالصة وطرأ عليها شيء من حظوظ الدنيا ، ومما جاء في هذا ما روي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : « إذا جمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقًا ، فلا بأس بذلك ، وأما أن أحدكم إن أعطي درهمًا غزا ، وإن منع درهمًا مكث ، فلا خير في ذلك» .

وقال الأوزاعي رحمه الله : « إذا كانت نية الغازي على الغزو فلا أرى بأسًا» - أي بأخذه شيئًا مما تيسر له من المال .

قال ابن رجب رحمه الله : « وهكذا يقال في الحج ، فيمن يأخذ شيئًا في الحج ليحج به إما عن نفسه أو عن غيره .

وقد روي عن مجاهد أنه قال في حج الجمّال ، وحج الأجير ، وحج التاجر : هو تام لا ينقص من أجورهم شيء ، وهذا محمول على أن قصدهم الأصلي هو الحج دون التكسب .

وأما إن كان أصل العمل لله ، ثم طرأت عليه نية الرياء ، فإن كان خاطرًا ، ودفعه فلا يضره بغير خلاف ، فإن استرسل معه ، فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته ؟

في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف ، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري ، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك وأنه يجازى بنيته الأولى ، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره ، ويستدل لهذا القول بما أخرجه أبو داود في مراسيله عن عطاء الخراساني أن رجلاً قال: يا رسول الله إن بني سلمة كلهم يقاتل ، فمنهم من يقاتل للدنيا ، ومنهم من يقاتل نجدة ، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله ، فأيهم الشهيد ؟ قال: كلهم إذا كان أصل أمره أن تكون كلمة الله هي العليا .

وذكر ابن جرير رحمه الله أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله ، كالصلاة ، والصيام ، والحج ، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم ، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه ، ويحتاج إلى تجديد نية . وكذلك روي عن سليمان بن داود الهاشمي أنه قال : ربما أُحدِّثُ بحديث ولي نية ، فإذا أتيت على بعضه ، تغيرت نيتي ، فإذا الحديث الواحد يحتاج إلى نيات» . انتهى كلام ابن رجب رحمه الله .

فأما إذا كان العمل خالصًا لله ، ثم ألقى الله في قلوب المؤمنين له بذلك الثناء الحسن وسرّ بذلك لم يضره .

لما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ ، أنه سئل عن الرجل يعمل العمل لله من الخير يحمده عليه الناس ، فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » .

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه : « أن رجلاً قال : يا رسول الله الرجل يعمل العمل فيسره ، فإذا اطلع عليه أعجبه ذلك ، قال : قال رسول الله ﷺ : له أجران : أجر السر ، وأجر العلانية » .

واعلم أن الأعمال إنما تتفاضل ، ويعظم ثوابها بحسب ما يقوم بقلب العامل من الإيمان والإخلاص حتى إن صاحب النية الصادقة ، وخصوصًا إذا اقترن بها ما يقدر عليه من العمل يلتحق صاحبها بالعامل ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ

أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠] ، وفي صحيح البخاري من حديث أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ قال : « إذا مرض العبد أو سافر ، كتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا » ، وروى البخاري ومسلم من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم - أي في نياتهم وقلوبهم وثوابهم - قالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر» ، وإذا هَمَّ العبد بالخير، ثم لم يقدَّر له العمل، كتبت همته ونيته له حسنة كاملة.

وبهذا يتبين لك عظم أمر النية ، وأن كل عبادة لابد من نية تميزها عن العادة ، أو عن العبادة الأخرى ، وأما ما لم يكن عبادة مستقلة بنفسه ، وإنما هو من مكملات العبادة ، كإزالة النجاسة للمصلي ، وستر عورته ، فمثل هذه الأمور لا يشترط لها نية؛ لأنها من قبيل قسم التروك، بخلاف الطهارة، فهي عبادة مستقلة ، يترتب عليها ثواب ، فاشترط لها النية على الصحيح من أقوال العلماء، وهو مذهب جمهورهم ، ويدل على صحة هذا القول تكاثر النصوص الصحيحة عن النبي ﷺ ، أن الوضوء كفارة للذنوب والخطايا ، وأن من توضأ كما أُمر كان كفارة لذنوبه ، وهذا يدل على أن الوضوء المأمور به في القرآن عبادة مستقلة بنفسها ، حيث رتب عليها تكفير الذنوب، والوضوء الخالي من النية لا يكفر شيئًا من الذنوب باتفاق العلماء، ولهذا لم يرد في شيء من بقية شرائط الصلاة ، كإزالة النجاسة ، وستر

العورة، ما ورد في الوضوء من الثواب ، ولو شرك بين نية الوضوء ، وقصد التبرد ، أو إزالة النجاسة ، أو الوسخ أجزأه ذلك عند الشافعي رحمه الله ، وهو قول جمهور الحنابلة ؛ لأن هذا القصد ليس بمحرم ولا مكروه ، ولهذا لو قصد رفع الحدث وتعليم غيره للوضوء لم يضره ذلك ، وقد كان ﷺ يقصد بالصلاة أيضًا تعليم الناس لها ، كما قال عليه الصلاة والسلام : «تقدموا فائتموا بي ، وليأتم بكم من بعدكم » رواه مسلم ، وكما قال عليه الصلاة والسلام : « خذوا عني مناسككم » رواه مسلم ، فهو يؤدي مناسك الحج ، ويعلمها الناس في آن واحد .

واعلم أن العلماء رحمهم الله علقوا كثيرًا من الأحكام على النية ، فلا يفتون الرجل في كثير من الأحكام ، حتى يسألونه عن نيته ، والأصل في هذا قوله عز وجل : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ [المائدة :٨٩] ، فلغو اليمين لا كفارة فيه ، وهو ما يجري على اللسان من غير نية، وقصد القلب لذلك ، كقول الرجل: لا والله ، وبلى والله ، في أثناء كلامه ، فهذا وأمثاله لا كفارة فيه ؛ لخلوه من النية والقصد .

وكذلك يرجع للنية في تعيينه ما قصد بيمينه ، ولذلك يقول العلماء رحمهم الله : يرجع في الأيمان إلى نية الحالف إذا كان اللفظ يحتمل ذلك ، ويشترط أن لا يكون ظالمًا ، فإن كان ظالمًا ، ونوى خلاف ما حلفه عليه

صاحبه ، لم تنفعه نيته ، ولذلك جاء في صحيح مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يمينك على ما يصدقك عليه صاحبك » ، وفي رواية عند مسلم أيضًا : «اليمين على نية المستحلف» ، وهذا في حق الظالم ، أما المظلوم فإنه ينفعه ذلك ؛ لما روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة عن سويد بن حنظلة قال: « خرجنا نريد رسول الله ﷺ ، ومعنا وائل ابن حجر ، فأخذه عدو له ، فتحرج الناس أن يحلفوا ، فحلفت أنا أنه أخي فخلي سبيله ، وأتينا النبي ﷺ ، فأخبرته أن القوم تحرجوا أن يحلفوا ، فحلفت أنه أخي ، فقال ﷺ : صدقت ، المسلم أخو المسلم» .

وقد علمت مما سبق أن النية شرط لصحة الأعمال ، وهي قصد القلب ولا تحتاج تلفظ ، فلا ينبغي أن يتلفظ بالنية ، بل تكفي نيته في قلبه في جميع العبادات .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في الهدي النبوي : « كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة ، قال : الله أكبر ، ولم يقل شيئًا قبلها ، ولا تلفظ بالنية ألبتة ، ولا قال: أصلي لله صلاة كذا ، مستقبل القبلة ، أربع ركعات ، إمامًا أو مأمومًا ، ولا قال : أداء ولا قضاء ، ولا فرض الوقت ، وهذه عشر بدع لم ينقل عنه ﷺ أحد قط بإسناد صحيح ولا ضعيف ولا مسند ولا مرسل لفظة واحدة منها ألبتة ، بل ولا عن أحد من أصحابه، ولا استحسنه أحد من التابعين ، ولا الأئمة الأربعة ، وإنما غر بعض المتأخرين قول الإمام الشافعي رضي الله

عنه في الصلاة : إنها ليست كالصيام ولا يدخل فيها أحد إلا بذكر . فظن أن الذكر تلفظ المصلي بالنية ، وإنما أراد الإمام الشافعي رضي الله عنه بالذكر تكبيرة الإحرام ليس إلا ، وكيف يستحب الشافعي أمرًا لم يفعله النبي ﷺ في صلاة واحدة ، ولا أحد من خلفائه وأصحابه ، وهذا هديهم ، وسيرتهم، فإن أوجدنا أحد حرفًا واحدًا عنهم في ذلك قبلناه ، وقابلناه بالتسليم والقبول، ولا هدي أكمل من هديهم ، ولا سنة إلا ما تلقوه عن صاحب الشرع ﷺ ، وكان دأبه في إحرامه لفظة الله أكبر لا غيرها ، ولم ينقل أحد عنه سواها» . اهـ .

فهذا الحديث العظيم وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» ، جامع لأمور الخير كلها، فحقيق بالمؤمن الذي يريد نجاة نفسه ونفعها أن يفهم معناه ، وأن يكون العمل به نصب عينيه في جميع أحواله وأوقاته ، فإن العمل يقوى ويضعف بحسب النية والإخلاص ، والأعمال الضرورية ، كالنوم ، والأكل ، والشرب إذا نوى بها العبد الاستقامة على الطاعة ، فإنها تكون عبادة ، ويثاب عليها . فعلى المسلم أن يحرص كل الحرص على استحضار النية الصحيحة ، والتوفيق بيد الله .

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه، وارزقنا الإخلاص في الأقوال والأعمال، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين .

الحديث الثاني

روى البخاري ومسلم رحمهما الله عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

« من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » .

هذا الحديث العظيم يدل على فضل شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وشهادة أن محمدًا عبده ورسوله ، فمن نطق بهذه الشهادة عارفًا لمعناها ، عاملاً بمقتضاها فإن جزاءه عند الله الجنة ، كما دل على ذلك هذا الحديث العظيم وغيره من الأحاديث .

قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم : « هذا حديث عظيم جليل الموقع ، وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد ، فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاختصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم». انتهى .

فمعنى شهادة أن لا إله إلا الله : الاعتراف قولا وعملاً واعتقادًا أنه

لا يستحق العبادة أحد إلا الله وحده لا شريك له ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]. فدلت هذه الآية الكريمة على أن المرسلين من أولهم إلى آخرهم إنما يدعون إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذا هو التوحيد .

فالتوحيد : هو إخلاص العبادة لله وحده دون من سواه ، فلا يعبد مع الله أحد ، سواء كان المعبود مع الله شجرًا أو حجرًا أو شمسًا أو قمرًا أو وليًا أو ملكًا أو نبيًا ، ولهذا لما قال ﷺ لقريش : قولوا : لا إله إلا الله ، قالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥]، تعجبوا من هذه الدعوة ؛ لأنها على خلاف ما هم عليه ، وما وجدوا آباءهم عليه .

ولما قال النبي ﷺ لعمه أبي طالب لما حضرته الوفاة : « يا عم ؛ قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله ، قال له أصحابه من المشركين جلساء السوء : أترغب عن ملة عبد المطلب» رواه البخاري . وهذه القولة كقولة قوم هود عليه السلام ، حينما قال لهم : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ ﴾ [الأعراف:٧٠] ، وهو إنما دعاهم إلى لا إله إلا الله .

فهذا معنى لا إله إلا الله ، وهو : عبادة الله وحده لا شريك له ، وترك عبادة ما سواه ، وهو الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله .

فتضمنت هذه الكلمة العظيمة أن ألوهية ما سوى الله من أبطل

الباطل ، وإتيانها من أظلم الظلم ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] ، وقد دخل في الألوهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن تأله القلب لله بالحب، والخضوع ، والانقياد له وحده لا شريك له، فيجب إفراد الله تعالى بها كالدعاء، والخوف ، والمحبة ، والتوكل ، والإنابة ، والتوبة ، والذبح، والنذر ، والسجود، وجميع أنواع العبادة، فيجب صرف جميع ذلك لله وحده لا شريك له ، فمن صرف شيئًا مما لا يصلح إلا لله من العبادات لغير الله فهو مشرك ، ولو نطق بلا إله إلا الله إذ خالف فعله قوله ، ولم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص .

والعجب من كثير من الناس الذين يدعون الأولياء والصالحين ، يزعمون أن هذا يقربهم إلى الله ، وأنهم إنما نذروا للأولياء ، وتقربوا إليهم ببعض العبادة ؛ ليقربوهم إلى الله ، وهذا في الحقيقة هو حال المشركين الذين أنكر عليهم النبي ﷺ ، فقالوا : لسنا نعبدهم ، ولكنا نجعلهم وسائط بيننا وبين الله ، كما قال عز وجل عنهم : ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨] ، ويقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣].

قال الطيبي : الإله مشتق من أله إلهة ، أي : عبد عبادة ، وهذا كثير جدًا في كلام العلماء ، وهو إجماع منهم أن الإله هو المعبود ، خلافًا لما يعتقده عباد القبور وأشباههم في معنى الإله ، أنه الخالق أو القادر على الاختراع،

أو نحو هذه العبارات ، ويظنون أنهم إذا قالوها بهذا المعنى فقد أتوا من التوحيد بالغاية القصوى ، ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله، كدعاء الأموات ، والاستغاثة بهم في المكروبات ، وسؤالهم قضاء الحاجات ، والنذر لهم في الملمات ، وسؤالهم الشفاعة عند رب الأرض والسماوات ، إلى غير ذلك من أنواع العبادات .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « الإله هو المعبود المطاع . وقال أيضًا رحمه الله في لا إله إلا الله : إثبات انفراده بالألوهية ، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته ، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، فإن الإله هو المألوه ، والمألوه هو الذي يستحق أن يُعبد ، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات ، التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع » اهـ .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : « الإله هو الذي تأله القلوب محبة وإجلالاً ، وإنابة ، وإكرامًا ، وتعظيمًا ، وذلاً ، وخضوعًا ، وخوفًا ، ورجاء ، وتوكلاً» انتهى من إغاثة اللهفان .

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله في كتابه تيسير العزيز الحميد : « لا إله إلا الله اشتملت على نفي وإثبات ، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى ، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم فليس بإله ، ولا له من العبادة شيء ، وأثبتت الإلهية لله وحده . بمعنى: أن العبد لا يأله غيره ، أي:

لا يقصده بشيء من التأله ، وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة ، كالدعاء ، والنذر ، والذبح ، وغير ذلك .

وبالجملة فلا إله إلا الله ، أي لا يعبد إلا هو سبحانه ، فمن قال هذه الكلمة عارفًا لمعناها ، عاملاً بمقتضاها من نفي الشرك ، وإثبات الوحدانية لله ، مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك ، والعمل به ، فهذا هو المسلم حقًا . ومن عمل بها ظاهرًا من غير اعتقاد فهو المنافق . ومن عمل بخلافها من الشرك فهو الكافر ، ولو قالها » انتهى.

فالمنافقون الذين كانوا في زمنه ﷺ يقولون لا إله إلا الله ، ويجلسون مع الرسول ﷺ ، ويشهدون بعض الصلوات معه ، ومع ذلك أخبر الله أنهم في الدرك الأسفل من النار ؛ لأنهم لا يعتقدون ما دلت عليه ، فالمسلمون قالوها، واعتقدوها، وهؤلاء المنافقون قالوها ، ولم يعتقدوها ، فلم تنفعهم، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله ، ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم لا يعرفون المنافقين ، وإن عرفوا البعض منهم بإخبار الرسول لهم بذلك ، ولهذا كان حذيفة رضي الله عنه يُسمى صاحب السر ؛ لأن الرسول أخبره بالمنافقين ، وبقية الصحابة لا يعرفون كما يعرف حذيفة ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحذيفة : أسألك بالله ، هل سماني لك رسول الله ﷺ من المنافقين ؟ قال : لا ، ولا أزكي بعدك أحدًا ، وإنما قال حذيفة ذلك مخافة أن يتتابع الصحابة على سؤال كل منهم عن نفسه ، ثم يتبين المنافقون ،

ويفشو سر النبي ﷺ ، الذي أخبر به حذيفة ، فقال حذيفة هذه المقالة سدًا للباب ، والله أعلم .

أما عن شهادة أن محمدًا عبده ورسوله ، فهي قرينة شهادة أن لا إله إلا الله ، فمن شهد أن لا إله إلا الله ، ولم يشهد أن محمدًا رسول الله لم تنفعه ، فإنهما متلازمتان ، ومن ترك شهادة أن محمدًا رسول الله ، فإنه لم يدخل في الإسلام ، ويكون أيضًا مكذبًا لله ؛ لأن الله يقول : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠] ، ويقول عز وجل : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران:١٤٤]، فإذا شهد العبد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، فقد دخل في الإسلام ، وصار مسلمًا بذلك ، وبقي عليه الالتزام ، والقيام بفرائض الدين التي لا يتم إسلامه إلا بها ، وامتثل أمر الرسول ﷺ فيما يأمر به ، سواء كان ذلك مما جاء في القرآن الكريم، أو مما جاءت به سنته ﷺ؛ ليحقق معنى شهادة أن محمدًا رسول الله.

فإن معناها يتضمن تصديقه فيما أخبر به ، وطاعته فيما أمر ، والانتهاء عما عنه نهى وزجر ، وأن لا يتعبد بشيء إلا ما شرعه الله على لسان رسوله ﷺ ، فلا يكون كامل الشهادة من ترك أمره ، وأطاع غيره ، وارتكب نهيه .

وفي إشارته ﷺ بالعبودية في قوله : وأن محمدًا عبده ورسوله ، فمعنى العبد هنا : المملوك العابد ، أي : هو مملوك لله ، وليس له من الربوبية

والإلهية شيء ، إنما هو عبد لله مقرب عند الله ، مَنَّ الله عليه بالرسالة ، واختاره للنبوة ، كما قال عز وجل : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴾ [الجن:١٩] ، ويقول عز وجل: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ﴾ [الإسراء:١]، وقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا ﴾ [البقرة:٢٣]، وقال رسول الله ﷺ كما في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده ، فقولوا : عبد الله ورسوله»، رواه البخاري ، فقوله : لا تطروني ، الإطراء : هو مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه ، والمعنى : لا تمدحوني بالباطل ، أو لا تجاوزوا الحد في مدحي ، كما غلت النصارى في عيسى ابن مريم ، فادَّعوا فيه الربوبية ، وإنما أنا عبد الله ، فصفوني بذلك ، كما وصفني به ربي ، وقولوا عبد الله ورسوله ، وهذا يوجب أن لا يصرف له شيء من العبادة ، بل هي خالص حق الله تعالى .

ويجب علينا أن نقدم محبته ﷺ على محبة جميع الناس من والد وولد ، ومن كل أحد ، بل وعلى النفس ، فلا يكمل إيمان العبد حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من ولده ، ووالده ، والناس أجمعين ، ومن نفسه ، وحتى يتابعه ، وينقاد لأوامره ، ويحكمه في كل صغير وكبير ، ويرضى بحكمه ، وينقاد ، ويسلم له ، حتى يكون الرسول ﷺ هو الحاكم المتبع ، المقبول قوله،

المردود قول من خالفه .

فمن شهد أن محمدًا عبد لله ، لم يصرف له شيئًا من العبادة ، ومن شهد أنه رسول الله ، لزمه أن يطيع جميع أوامره ، وينتهي عن جميع نواهيه ، ويصدقه في جميع ما أخبر به .

وأما الأدلة على صدق نبوته ورسالته ﷺ فهي أكثر من أن تحصر ، نطق بها القرآن الكريم في عدة مواضع ، منها قوله عز وجل : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠] ومن قرأ سيرته ﷺ ، وعلم شيئًا من أحواله ، تبين له أنه رسول الله بيانًا واضحًا ، أوضح من الشمس في نحر الظهيرة ، وهذه معجزاته ﷺ شاهدة بذلك .

فمنها : هذا القرآن العظيم الذي لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله ، ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله ، وقد مضى عليه الآن أربعة عشر قرنًا، لم يستطع أحد مهما بلغت فصاحته أن يأتي ولو بمثل أقصر سورة منه .

ومنها : انشقاق القمر له حين سأل الله ذلك .

ومنها : نبوع الماء من بين يديه الكريمتين ﷺ ، كما جاء في صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن النبي ﷺ خرج في بعض مخارجه ، ومعه أناس من أصحابه ، فانطلقوا يسيرون ، فحضرت الصلاة

فلم يجدوا ما يتوضئون به ، فانطلق رجل من القوم ، فجاء بقدح فيه ماء يسير ، فأخذه النبي ﷺ فتوضأ ، ثم مد أصابعه الأربع على القدح ، ثم قال : قوموا فتوضئوا ، وكانوا سبعين ، أو نحوه» .

وفي صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : « عطش الناس يوم الحديبية ، والنبي ﷺ بين يديه ركوة ، فتوضأ ، فجهش الناس نحوه ، قال : ما لكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ، ولا نشرب إلا ما بين يديك ، فوضع يده في الركوة - والركوة هي الدلو الصغير - فجعل الماء يثور بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فشربنا ، وتوضأنا ، قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة» .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن يعلى بن مرة الثقفي قال :

« ثلاثة أشياء رأيتهن من رسول الله :

بينما نحن نسير معه ، إذ مررنا ببعير يسنى عليه ، فلما رآه البعير جرجر ووضع جرانه ، فوقف عليه النبي ﷺ ، فقال : أين صاحب هذا البعير ، فجاء، فقال : بعنيه ، فقال : بل أهبه لك يا رسول الله ، فقال : لا ، بعنيه ، قال : لا ، بل أهبه لك ، وإنه لأهل بيت مالهم معيشة غيره ، فقال : أما إذ ذكرت هذا من أمره ، فإنه شكا كثرة العمل ، وقلة العلف ، فأحسنوا إليه.

قال : ثم سرنا فنزلنا منزلاً ، فنام النبي ﷺ ، فجاءت شجرة تشق

الأرض حتى غشيته ، ثم رجعت إلى مكانها ، فلما استيقظ ذكرت له ، فقال: هي شجرة استأذنت ربها عز وجل أن تسلم على رسول الله ﷺ ، فأذن لها .

قال : ثم سرنا ، فمررنا بماء ، فأتته امرأة بابن لها به جنة ، فأخذ النبي ﷺ بمنخره فقال : اخرج إني محمد رسول الله ، قال : ثم سرنا ، فلما رجعنا من سفرنا مررنا بذلك الماء ، فأتته المرأة بجزور ولبن ، فأمرها أن ترد الجزور ، وأمر أصحابه ، فشرب من اللبن ، فسألها عن الصبي ، فقالت : والذي بعثك بالحق ما رأينا منه ريبًا بعدك » .

ومن معجزاته ﷺ : ما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن رجلاً دخل المسجد في يوم الجمعة من باب نحو دار القضاء ، ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا ، ثم قال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغثنا ، قال : فرفع رسول الله ﷺ يديه ، ثم قال : اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا . قال أنس : ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا من قزعة ، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار ، فوالذي نفسي بيده ، ما وضع يديه حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر فيها در عن لحيته .

وفي رواية أخرى : (قال : فطلعت سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء ، انتشرت ، ثم أمطرت ، قال : فلا والله ما رأينا الشمس سبتًا) .

قال : ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ، ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبله قائمًا ، فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل، فادع الله ، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال : اللهم حوالينا ، ولا علينا ، اللهم على الآكام ، والظراب ، وبطون الأودية ، ومنابت الشجر ، فانقلعت ، وخرجنا نمشي في الشمس » .

ومن معجزاته ﷺ : نصر الله له يوم الأحزاب بالريح ، قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٩] قال مجاهد : يعني ريح الصبا أرسلت على الأحزاب يوم الخندق ، حتى كفأت قدورهم على أفواهها ، ونزعت فساطيطهم، حتى أظعنتهم ، ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ ، يعني: الملائكة .

وروى الحاكم في صحيحه عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال : «ركبت البحر في سفينة ، فانكسرت السفينة ، فركبت لوحًا منها ، فطرحني في أجمة فيها أسد ، فلم يرعني إلا به ، فقلت : يا أبا الحارث (وهذه كنية الأسد) أنا مولى رسول الله ﷺ ، فطأطأ رأسه ، وغمز بمنكبه شقي ، فما زال يغمزني ، ويهديني الطريق ، حتى وضعني على الطريق ، فلما وضعني على الطريق همهم ، فظننت أنه يودعني» .

وفي مسند أبي عوانة عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جده

قتادة بن النعمان ، قال : « أصيبت عينه يوم أحد ، فسالت على وجنته ، فأرادوا أن يقطعوها، ثم قالوا : نأتي رسول الله ﷺ نستشيره ، فأتوا النبي ﷺ فذكروا ذلك له ، قال : فوضعها في موضعها ﷺ ، ثم غمزها براحته ، وقال: اللهم أكسبه جمالاً ، فما يدري من لقيه أي عينيه أصيبت» . وأنشد ولده بحضرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة ، وأقره من حضر ، ولم ينكروه :

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه

وردت بكف المصطفى أحسن الرد

فعادت كما كانت لأحسن حالها

فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد

وفي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه « أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله ألا أجعل لك شيئًا تقعد عليه ، فإن لي غلامًا نجارًا ، قال : إن شئت ، قال : فعملت له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة، قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع له ، فصاحت النخلة التي كان يخطب عليها ، حتى كادت أن تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها ، فضمها إليه ، فجعلت تئن أنين الصبي الذي أخذ يسكت حتى استقرت» .

وفي رواية : « فسمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار ، حتى جاء

النبي ﷺ فوضع يده عليها ، فسكنت » .

وروى الدارمي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : « كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فأقبل أعرابي ، فلما دنا منه قال له الرسول ﷺ : أين تريد ؟ قال: إلى أهلي ، قال : هل لك في خير ؟ قال : وما هو؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله . قال : ومن يشهد على ما تقول ؟ قال : هذه السلمة ، فدعاها رسول الله ﷺ ، وهي بشاطئ الوادي ، فأقبلت تَخُدُّ الأرض خدًا ، حتى قامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثًا ، فشهدت ثلاثًا، أنه كما قال ، ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابي إلى قومه ، فقال : إن اتبعوني ، أتيتك بهم ، وإلا رجعت ، فكنت معك» .

ومنها ما جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « كنا نعد الآيات بركة ، وأنتم تعدونها تخويفًا ، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلَّ الماء ، فقال : اطلبوا فضلة من ماء ، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده في الإناء، ثم قال : حي على الطهور المبارك والبركة من الله ، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل» .

ومنها ما جاء في صحيح البخاري ومسلم رحمهما الله عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان هو وأصحابه في سفر ، فنفذ الماء عليهم ، وعطشوا عطشًا شديدًا ، قال عمران: « ثم عجلني رسول الله ﷺ

في ركب بين يديه نطلب الماء وقد عطشنا عطشًا شديدًا ، فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين (والمزادة هي القربة الكبيرة) فقلنا لها أين الماء؟ فقالت : إيهاه إيهاه لا ماء لكم . فقلنا : فكم بين أهلك وبين الماء ؟ قالت : مسيرة يوم وليلة . قلنا : انطلقي إلى رسول الله ﷺ ، قالت : وما رسول الله ؟ فلم نملكها من أمرها شيئًا حتى انطلقنا بها ، فاستقبلنا بها رسول الله ﷺ ، فسألها، فأخبرته مثل الذي أخبرتنا ، وأخبرته أنها مؤتمة لها صبيان أيتام ، فأمر براويتها فأنيخت ، فمج في العزلاوين العلياوين ، ثم بعث براويتها ، فشربنا ، ونحن أربعون رجلاً عطاش ، حتى روينا ، وملأنا كل قربة معنا وإداوة، وغسَّلْنا صاحبنا -يقول : إننا أعطينا رجلاً منا ماء ، فاغتسل من جنابة كانت عليه - غير أننا لم نسق بعيرًا ، وهي تكاد تنضرج من الماء ، يعني المزادتين ، ثم قال ﷺ : هاتوا ما كان عندكم ، فجمعنا لها من كسر وتمر ، وصرَّ لها صرة ، وقال لها : اذهبي ، فأطعمي هذا عيالك ، واعلمي أننا لم نرزأ من مائك ، فلما أتت أهلها ، قالت : لقد لقيت أسحر البشر ، أو إنه لنبي كما زعم ، كان من أمره ذَيْتَ وذَيْتَ ، فهدى الله عز وجل ذلك الصرم بتلك المرأة ، فأسلمت وأسلموا».

فهذا شيء من معجزات النبي ﷺ ، وقد أفردنا الكلام على دعوته ﷺ ومعجزاته في رسالة مستقلة واكتفينا هنا بهذا المقدار .

أما عن معنى «شهادة أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى

مريم وروح منه» ، وفي بعض روايات الحديث : «وابن أمته» ، وذلك خلافًا لما يعتقده النصارى أنه الله ، أو ابن الله - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا - قال تعالى :﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون:٩١] ، فهذا من الغلو المحرم المذموم ، فإن النصارى غلو في عيسى عليه السلام إلى هذا الحد ، فجعلوه إلهًا مع الله، والله جل وعلا يقول عن عيسى نفسه أنه قال : إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًا ، فهو عبد من عبيد الله ، شرفه الله بالرسالة ، فيجب على كل أحد أن يشهد أن عيسى عبد الله ، أي : عابد مملوك لله ، لا مالك ، فليس له من الربوبية شيء ، ولا من الإلهية شيء ، ورسول صادق من عند الله ، خلاف ما يقوله اليهود أعداؤه ، القائلون بأنه ولد بغي، فهذا من اليهود جفاء عظيم في حق عيسى، وافتراء بين ، وقول بلا علم ، وبهتان عظيم ، والله عز وجل يقول :﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٩٥]، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «وكلمته ألقاها إلى مريم» ، أي أن عيسى كلمة الله ، وإنما سمي بذلك ؛ لصدوره بكلمة كن بلا أب ، كما قال ذلك قتادة وغيره من السلف .

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله في الرد على الجهمية: الكلمة التي ألقاها

إلى مريم حين قال : كن ، فكان عيسى بكن ، وليس عيسى هو كن ، ولكن بكن كان ، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون .

وقوله ﷺ : «وكلمته ألقاها إلى مريم» قال ابن كثير : خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم ، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذن الله ، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها .

وقوله: «وروح منه» ، قال أبي بن كعب رضي الله عنه : عيسى روح من الأرواح التي خلقها الله ، واستنطقها بقوله : ألست بربكم ؟ قالوا بلى .

وقال الإمام أحمد رحمه الله في قوله تعالى : ﴿وروح منه﴾ : أي : من أمره كان الروح فيه ، كقوله عز وجل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣].

وقوله ﷺ : «والجنة حق ، والنار حق» ، أي أن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وشهد أن الجنة حق ، والنار حق ؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ، فمن شهد بأن الجنة التي خلقها الله ، وأخبر بها سبحانه في كتابه العزيز أنه أعدها لمن آمن به ورسوله ، وأخبر عنها رسوله ﷺ ، فمن شهد بأنها حقيقة حق ثابتة ، لا شك فيها ، وشهد أيضًا بأن النار التي أخبر الله عنها في كتابه ، وأخبر بها رسوله ﷺ حقيقة وحق ثابت ، لا شك

فيها، وأن الله أعدها للعاصين الكافرين بالله ورسوله ، فقد حقق الإيمان بالجنة والنار .

وكيف لا يشهد المؤمن بأن الجنة حق ، والله عز وجل يقول:﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [الحديد:٢١]، وكيف لا يشهد بوجود النار والله عز وجل يقول: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤] وفي هاتين الآيتين دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن ، خلافًا لأهل البدع الذين يقولون : لا يخلقان إلا يوم القيامة .

وقوله : «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» ، أي : من شهد بأن هذه الأشياء المذكورة أول الحديث حق ، أدخله الله الجنة ؛ لتصديقه فيما أخبر الله به، وأخبر به رسوله ﷺ ، وجزاء من صدق الله ، ومن صدق رسوله ﷺ الجنة . وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر:٣٣-٣٥] .

وهذا الحديث يشهد له أيضًا حديث عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إن الله حرم النار على من قال : لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله» رواه البخاري ، وأصدق ما تكون هذه الشهادة

وأنفعها عند الانقطاع من الدنيا ، والإقبال على الآخرة لمن مَنَّ الله عليه بها ، كما قال عليه الصلاة والسلام: «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة» رواه أبو داود وأحمد .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : « لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها ؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها ، قد ماتت منه الشهوات ، ولانت نفسه المتمردة ، وانقادت بعد إبائها واستعصائها ، وأقبلت بعد إعراضها ، وذلت بعد عزها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها ، واستخذت بين يدي ربها ، وفاطرها ، ومولاها الحق أذل ما كانت له ، وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته ، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك ، وتحقق جهلتهم ، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها ، واجتمع من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه ، فوجه العبد وجهه بكليته إليه ، وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه ، فاستسلم وحده ظاهرًا وباطنًا ، واستوى سره وعلانيته ، فقال : لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه ، وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره ، والالتفات إلى ما سواه ، قد خرجت الدنيا كلها من قلبه ، وشارف القدوم على ربه ، وخمدت نيران شهوته ، وامتلأ قلبه من الآخرة ، فصارت نصب عينيه ، وصارت الدنيا وراء ظهره .

فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله ، فطهرته من ذنوبه ،

وأدخلته إلى ربه ؛ لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة ، وافق ظاهرها باطنها ، وسرها علانيتها .

فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها ، وفر إلى الله من الناس ، وأنس به دون ما سواه ، لكنه شهد به بقلب مشحون بالشهوات ، وحب الحياة وأسبابها ، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله، فلو تجردت الدنيا منه كتجردها عند الموت؛ لكان لها نبأ آخر ، وعيش آخر سوى عيشها البهيمي ، والله المستعان» . انتهى كلامه رحمه الله من كتاب الفوائد.

اللهم من علينا بالتوفيق وحسن الإنابة ، واجعلنا ممن رجع إليك فأكرمت مآبه . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الثالث

روى البخاري ومسلم رحمهما الله عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » .

هذا حديث عظيم ، وأصل من أصول الدين ، يبين فيه النبي ﷺ الأعمال التي بني الإسلام عليها ، وقد فسر النبي ﷺ الإسلام في حديث جبريل عليه السلام الطويل ، حينما جاء إلى رسول الله ﷺ في صورة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد من الصحابة فسأله عن الإسلام وعن الإيمان وعن الإحسان وعن الساعة ، فلما سأله عن الإسلام قال ﷺ : « أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة ، وتوتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً » رواه مسلم.

وروى النسائي وابن خزيمة والحاكم وصححه ، عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا : «خطبنا رسول الله ﷺ فقال : والذي نفسي بيده – ثلاث مرات– ثم أكب ، فأكب كل رجل منا يبكي ، لا يدري على ماذا

حلف ، ثم رفع رأسه ، وفي وجهه البشرى ، فكانت أحب إلينا من حمر النعم ، قال : ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة ، وقيل له : ادخل بسلام » .

والمراد من حديث «بني الإسلام على خمس»: أن الإسلام مبني عليها، فهي كالأركان والدعائم لبنيانه ، وقد خرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة ، ولفظه : «بني الإسلام على خمس دعائم» فذكره.

وقوله ﷺ : « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله » : تقدم معناه مفصلاً في الحديث السابق .

وأما قوله ﷺ : « إقام الصلاة » : فقد وردت أحاديث متعددة تدل على أن تارك الصلاة يخرج من الإسلام ، ففي صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال : « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .

وقال عمر : لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة ، وقال سعد وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين : من تركها فقد كفر .

وقال عبد الله بن شقيق : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون من الأعمال شيئًا تركه كفر غير الصلاة .

وأما صفة الصلاة وأحكامها فسيأتي الكلام عليه مفصلاً في الحديث

التالي إن شاء الله .

وقوله ﷺ : « إيتاء الزكاة » : فالزكاة قرينة الصلاة ، وقد قرن الله ذكرهما في مواطن كثيرة من القرآن ، وسيأتي الكلام عليها مفصلاً في الحديث الخامس إن شاء الله تعالى .

وقوله ﷺ : « وحج البيت » : فالحج هو أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٧] .

فالحج فرض على كل مستطيع ، وقد صح عنه ﷺ قوله : « أيها الناس قد فرض عليكم الحج ، فحجوا» رواه مسلم .

ولكن من سماحة ديننا أنه قيد الوجوب بالاستطاعة ، أي استطاعة الوصول إليه ، أي حصول ما يركبه ، وما يتزود به في سفره ، ولذا روي عنه ﷺ أنه قال : «السبيل : الزاد والراحلة» رواه البيهقي ، فإذا تمكن من لم يحج من القدرة على الوصول إلى هذا البيت ، وكان معه من النفقة ما يكفيه ، وجب عليه الحج . وإن كان قادرًا في ماله ، ولكنه لا يستطيع لكبر ، أو مرض ، فإنه ينيب من يحج عنه ، كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن امرأة أتت النبي ﷺ ، فقالت : يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا، لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه ؟ قال : « نعم » .

ولقد بين رسول الله ﷺ فضل الحج في غير ما حديث ، منها ما رواه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه» .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، « أن النبي ﷺ سئل : أي العمل أفضل ؟ قال ﷺ : إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال: الجهاد في سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور» .

وفي الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» .

ومن رحمة الله بعباده ، أن جعل الحج مرة في العمر ، وما زاد على ذلك فهو تطوع .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج ، فحجوا ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت ، حتى قالها ثلاثًا ، فقال النبي ﷺ : لو قلت : نعم ، لوجبت ، ولما استطعتم» رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي .

وقد حث ﷺ أمته على المبادرة إلى الحج ، وسرعة أدائه ، فقد روى الإمام أحمد رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « تعجلوا إلى الحج – يعني الفريضة – فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له» .

وروى الإمام أحمد وابن ماجة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من أراد الحج فليتعجل ، فإنه قد يمرض المريض ، وتضل الراحلة ، وتعرض الحاجة » .

وروى سعيد بن منصور في سننه والبيهقي عن الحسن قال : قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : « لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار، فينظروا كل من كان له جدة ولم يحج ، فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين» .

وبهذه النصوص استدل بعض العلماء على وجوب الحج على الفورية، وأنه لا يجوز للمسلم إذا استطاع الحج ، ولم يكن أدى فريضة الإسلام ، أن يتأخر .

أما قوله ﷺ : « وصوم رمضان » : فالصيام فريضة محكمة ، كتبه الله على هذه الأمة ، كما كتبه على الأمم السابقة ، فقال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣] فرضه تحقيقًا للتقوى ، وتهذيبًا لنفوسهم من الرذائل ، وتحليتها بالفضائل، والبعد عن كل خلق ذميم ، أو مرتع وخيم ، به يتعود المسلم الصبر والمجاهدة ، والإيثار والمساندة ، يرتفع به عن مشابهة الحيوان، ويتشبه بالملائكة الكرام ، يمنع نفسه من اللذات ، مع قدرته عليها ، إيثارًا لطاعة ربه ، وامتثالاً لأوامره ، ورغبة فيما عنده . به يقوى إيمان المسلم ،

وتزكو نفسه بالتقوى ، ويعظم قدره بالصبر .

وقد بين سبحانه هذه الفائدة العظيمة للصيام وهي التقوى فقال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي تتقون الله ، فيكون الصيام وسيلة من وسائل التقوى وهل هناك أعظم وأنفع من التقوى ، فإن المؤمن إذا اتقى ربه ، صار من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، كما قال عز وجل : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٢]. ولذلك اختص الله الصيام من بين سائر الأعمال ، ونبه على شرفه ومكانته عنده سبحانه ، فقال عز وجل كما في الحديث القدسي : « الصوم لي وأنا أجزي به » رواه البخاري .

وبالصيام يتمرن العبد على الصبر ، والثبات ، وضبط النفس عن الاندفاع ، والجري وراء الشهوات .

ومن فوائد الصيام أنه يحمي صاحبه ، ويصونه عن الوقوع في الفواحش ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ، فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » رواه البخاري ومسلم .

ومنها أن الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم ، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فبالصيام تسكن وساوس الشيطان ، وتنكسر ثورة الشهوة والغضب ، ولهذا جعل النبي ﷺ الصوم،

وجاء لقطع شهوة النكاح .

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله تعالى بترك هذه الشهوات المباحة ، التي أباحها الله لنا ، ومنع منها حالة الصيام ، إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرم الله علينا ، في كل حال ، في الصيام وغيره ، من الكذب ، والظلم ، والعدوان على الناس في دمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، ولهذا قال النبي الكريم ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» . رواه البخاري .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة بابًا يقال له باب الريان ، يدخل منه الصائمون ، لا يدخل منه غيرهم» .

اللهم وفقنا للتمسك بدينك ، والعمل بكتابك وسنة نبيك ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الرابع

روى البخاري ومسلم رحمهما الله عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال :

« **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** » .

وجاء في بعض روايات مسلم : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » . وفي بعضها : « من أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو رد » .

هذا الحديث أصل عظيم من أصول الدين ، كما قال الإمام أحمد رحمه الله: أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث : حديث عمر : « إنما الأعمال بالنيات »، وحديث عائشة : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، وحديث النعمان بن بشير : « الحلال بين والحرام بين» ، وعده إسحاق ابن راهويه واحدًا من أربعة أحاديث هي من أصول الدين . وروى عثمان ابن سعيد عن أبي عبيد قال : جمع النبي ﷺ جميع أمر الآخرة في كلمة واحدة « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » ، وجمع أمر الدنيا كله في كلمة واحدة «إنما الأعمال بالنيات» يدخلان في كل باب .

وفي هذا الحديث بيان لحكم الأعمال الظاهرة التي يقوم بها العبد ، فإذا كانت مما هو معلوم من هدي النبي ﷺ وأصحابه ، إما أمرًا منه أو فعلاً

أو تقريرًا ، فهذا من الأعمال المشروعة التي يثاب عليها العبد إذا صحت نيته ، أما إذا كان مخالفًا لهدي الكتاب والسنة ، فهذه هي البدعة سواء أكان ذلك في العقائد أو الأعمال الظاهرة أو غيرها ، وهو بيان لاشتراط المتابعة لهدي النبي ﷺ ؛ ليكون العمل مقبولاً مع شرط الإخلاص الذي دل عليه قوله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات» ، وفي معنى هذين الحديثين قوله عز وجل : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢]، ولذلك قال بعض العلماء في تفسيرها : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه ، فقيل له : ما معنى أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصًا ، ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإن كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل . فالخالص هو ما أريد به وجه الله ، وهو ما دل عليه قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » ، والصواب هو ما كان على هدي النبي ﷺ. وهو ما دل عليه قوله ﷺ « من عملاً عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

فإذا علمنا ذلك تبين لنا أن كل عمل يؤتى به على وجه التعبد والتقرب إلى الله تعالى فيه ، فلا بد من عرضه على هدي الرسول ﷺ ، فإن كان من هديه ، فهذا هو المشروع، وهو الذي يثاب صاحبه عليه إذا صحت نيته، وقصد به وجه الله وحده ، وإذا كانت هذه العبادة لم تنقل عن النبي ﷺ، أو أتى به على كيفية ، أو هيئة لم تكن معروفة في عهده ﷺ ، ولا عهد أصحابه ، ولا في عهد سلف هذه الأمة ، فهو مردود على صاحبه ، وغير

مقبول ؛ لمخالفة هدي الرسول ﷺ ، واستحق ذلك العمل أن يسمى بدعة ، ومعلوم أن كل بدعة ضلالة ، وذلك مثل ما يفعله بعض المتصوفة من الأذكار التي ابتدعوها لم تكن معروفة في عهد السلف الصالح ، كاجتماعهم في حلقة ، فيقوم أحدهم ويقول لهم : سبحوا كذا، هللوا كذا ، كبروا كذا ، فإن ابن مسعود رضي الله عنه لما أخبر عن أناس في المسجد يعملون هذا العمل ذهب إليهم، ووقف ، وأنكر عليهم ذلك .

ومن المحدثات في الدين بدعة المولد التي يقيمها بعض الناس ، وتشتمل بعضها على كثير من المنكرات ، كالاختلاط بين الرجال والنساء ، وزعمهم أن النبي ﷺ يحضر اجتماعهم ، وهذا لا شك أنه من البدع في الدين ؛ لأن الذين يعملون هذا العمل إنما يعملونه تقربًا إلى الله تعالى ، وطلبًا للثواب بزعمهم ، وإذا كان كذلك فيدخل في العبادات ، ومن المعلوم أن العبادات مبناها على أمر الشارع ﷺ ، وقد اتفق العلماء رحمهم الله أن من أتى بعبادة يرى أنها تقربه إلى الله ، ولم تكن عن أمر الرسول ﷺ أنها بدعة ، عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » . ثم إن الذين يفرحون ويمرحون في هذا الشهر شهر ربيع الأول، ويقولون : هذا مولد النبي ﷺ ، وكأنهم يعملون ذلك فرحًا واستبشارًا بذكره ، أما علموا أنه هو الشهر الذي توفي فيه ﷺ ، ومعلوم أن وفاته مصيبة عظيمة ، بل هي أعظم المصائب ، فشهر ولادته ﷺ هو شهر وفاته ،

فلا يليق أن يظهر الفرح والسرور في يوم كانت وفاته ﷺ فيه ، ومن ناحية أخرى : هل الرسول ﷺ نال الشرف من أجل أنه ولد ؟ وهل الولادة خاصه به لا يشركه أحد من المخلوقين ؟ أو أننا عملنا ذلك تقليدًا لغيرنا من اليهود والنصارى الذين يجعلون الأعياد لمواليد عظمائهم ، فالرسول الكريم ﷺ أمرنا بمخالفتهم في كل شيء من أعمالهم وأعيادهم ، فلو كان المسلمون يجعلون الأعياد في وقت نزول الوحي عليه ﷺ وحينما حصلت له النبوة والرسالة التي لا يشاركه فيها أحد من بعده ، أو جعلوا الأعياد ليوم هجرته التي نصره الله فيها ، ونوه عنها في القرآن الكريم ، أو جعلوه في غزوة بدر حين نصر الله الإسلام ، وأذل الشرك ، وقضى على أكثر أعدائه ﷺ في ذلك اليوم ، فلو كانوا يحتفلون بهذه الأحداث العظيمة لكان الاحتفال بها بدعة لا تجوز ؛ لأنه لم يكن من هدي الرسول الكريم ﷺ ولا أصحابه ، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه ، فكيف إذا كانت هذه البدعة هي الاحتفاء بمولده ﷺ ، وهو احتفاء يشتمل في كثير من الأحيان على عدة منكرات، من الاختلاط ، وإهمال الصلاة ، وزعمهم أن الرسول يحضر ، أو زعم بعضهم وغير ذلك .

وقد كتب الشيخ محمد الأمين القرشي أبياتًا يصف فيها حالة المولد في بلده ، ويظهر الإنكار عليهم في ذلك ، ويطلب منهم إقامة الدليل على جواز ذلك ، يقول فيها :

إلى علمائنـا أهـل العقـول إلى الشبان منهم والكهـول

أزف القول مبتغيًا جوابـًا من الكتب الصحيحة والنقول

فإن أدوا الأمانة في وضـوح فتلك سجية القوم الفحـول

وإن خافوا ملامًا أو عتابـًا فما فضل العليم على الجهـول

أرى بدعًا تشيب لها النواصي إذا ما جاء ميلاد الرسـول

كهارب كالكواكب ساطعات ورايات تشبع بالطبـول

إلى سـاحات لهو قد أعدت كأن شرابها من زنجبيـل

بها سوق الحلاوة في ازدحـام بربات القلائد والحجـول

تجـر ذيولها متبرجـات لتفتك بالتبرج والذيـول

على نادي القمار مقامـرات مع الشـبان في الجمع الوبيل

فهل يرضى الرسول بما عملنا وقد جئنا بمعصية الرسـول

اللهم احمنا من المخالفة والعصيان ، ووفقنا لاتباع هدي نبيك يا رحمن . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

* * *

الحديث الخامس

روى البخاري عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«صلوا كما رأيتموني أصلي ، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ، وليؤمكم أكبركم » .

هذا الحديث يدل على وجوب أداء الصلاة جماعة ، وكما فعلها النبي ﷺ ، وكما علمها أمته، والاقتداء به ﷺ واجب في الصلاة وفي غيرها، كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم وغيره : «خذوا عني مناسككم» ، فأمرنا بأخذ مناسك الحج من فعله ، والله جل وعلا أمرنا بذلك في قوله تعالى : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١] . وقد وردت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة على وجوب الصلاة ، وأجمع العلماء على ذلك .

وقد وردت أحاديث كثيرة تصف لنا صفة صلاة النبي ﷺ نسوق منها هاهنا ما تيسر :

فمنها : ما رواه البخاري رحمه الله عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ إذا كبر ، جعل يديه حذو منكبيه ، وإذا

ركع أمكن يديه من ركبتيه ، ثم هصر ظهره ، فإذا رفع رأسه ، استوى حتى يعود كل فقار مكانه ، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما ، واستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة ، وإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى ، ونصب اليمنى ، وإذا جلس في الركعة الآخرة قدم رجله اليسرى ، ونصب الأخرى ، وقعد على مقعدته» .

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ، ولم يصوبه ، ولكن بين ذلك ، وكان إذا رفع من الركوع لم يسجد حتى يستوي قائمًا ، وكان إذا رفع رأسه من السجدة ، لم يسجد حتى يستوي جالسًا ، وكان يقول في كل ركعتين التحية ، وكان يفرش رجله اليسرى ، وينصب رجله اليمنى ، وكان ينهى عن عقبة الشيطان ، وينهى أن يفترش الرجل ذراعيه افتراش السبع ، وكان يختم الصلاة بالتسليم » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : « أن النبي ﷺ كان يرفع يديه حذو منكبيه إذا افتتح الصلاة وإذا كبر للركوع وإذا رفع رأسه من الركوع » رواه البخاري .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبير والقراءة إسكاتة ، فقلت : بأبي وأمي أنت يا رسول الله : إسكاتك بين التكبير والقراءة ما تقول : قال : أقول : «اللهم

باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد » .

وروى أهل السنن عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا افتتح الصلاة قال : «سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك، ولا إله غيرك » .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء ، فقمن -أي حري- أن يستجاب لكم» .

وكان ﷺ يقول في سجوده : «اللهم اغفر لي ذنبي كله ، دقه وجله ، وأوله وآخره ، وعلانيته وسره» رواه مسلم .

وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه كما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع ، يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، وفتنة المحيا والممات ، ومن شر

فتنة المسيح الدجال » .

وعن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة من آخره يقول بين التشهد والتسليم : «اللهم اغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت » رواه مسلم .

وصح عن معاذ رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ أخذ بيده ، وقال : يا معاذ ، والله إني لأحبك ، والله إني لأحبك ، فقال : أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» رواه أبو داود .

وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان قال : « كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا ، وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام . وقيل للأوزاعي: كيف الاستغفار ؟ قال : يقول : أستغفر الله ، أستغفر الله » .

وفي البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة وسلم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» .

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «معقبات لا يخيب قائلهن أو فاعلهن دبر كل صلاة مكتوبة : ثلاث وثلاثون تسبيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة ، وأربع وثلاثون تكبيرة » رواه مسلم .

وفي الصحيحين من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، فقلنا : يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ قال : فقولوا : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» .

والآن سنسوق صفة صلاته ﷺ على وجه الاختصار، معتمدين على ما صح عنه ﷺ في الأخبار المتقدمة من قوله وفعله :

فقد كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول : الله أكبر مستقبلاً القبلة ، ولم ينقل عنه ﷺ ، ولا عن أحد من أصحابه ولا التابعين ، ولا الأئمة الأربعة رحمهم الله أنه كان يتلفظ بالنية . وأما ما نقل عن الإمام الشافعي رحمه الله من التلفظ بها ، فإنه غير صحيح ، ولم يثبت عنه ، وإنما قال به بعض الشافعية، ولم يوافقه جمهور الشافعية رحمهم الله ، بل خالفوه ، وقالوا : هذا ليس بشيء ، قال في المهذب: ومن أصحابنا من قال ينوي بقلبه ، ويتلفظ بلسانه ، وليس بشيء ؛ لأن النية هي القصد بالقلب .

قال الإمام النووي رحمه الله في المجموع كلامًا ، معناه أن من نسب

التلفظ بالنية للشافعي فقد غلط عليه ، وإنما قصد الإمام الشافعي التكبير فإنها لا تصح الصلاة إلا بالتكبير، وقد كان ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير ، ولم ينقل عنه غيره ، ويرفع يديه حذو منكبيه ، ممدودة الأصابع مستقبلاً بهما القبلة ، ثم يضع اليمنى على ظهر اليسرى ، ويضعهما فوق صدره .

وكان النبي ﷺ يستفتح بعدة استفتاحات ، تارة يستفتح بهذا ، وتارة بذاك ، ومن أصح ما ورد قوله ﷺ : « اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد ، اللهم نقني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس» رواه البخاري ومسلم . وتارة يقول : « وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض... إلخ » رواه مسلم ، إلى غير ذلك من أنواع الاستفتاحات ، وهي ستة أنواع أو سبعة .

ثم يستعيذ ، ثم يقرأ البسملة سرًا ، ثم يقرأ الفاتحة ، وكان يقف في قراءته على كل آية ، فإذا فرغ من قراءة الفاتحة قال : آمين ، فإن كانت القراءة جهرية جهر بها ، وإن أسر بالقراءة أسر بالتأمين .

وكان ﷺ يطيل القراءة في الفجر، فقد قرأ بسورة ق ، وقرأ بالطور ، وقرأ بالروم ، ويقرأ سورة السجدة ، و(هل أتى على الإنسان) في فجر يوم الجمعة ، وكان يقرأ في صلاة المغرب من قصار المفصل ، وربما قرأ من طواله . فقد ثبت أنه قرأ سورة الأعراف بالركعتين في المغرب ، وقرأ سورة

الطور ، وقرأ المرسلات ، وأما باقي الصلوات فإنه في الغالب يقرأ من أوساط المفصل ، أما ظهر الجمعة ، فإنه يقرأ حينًا بسورة الجمعة والمنافقين ، وحينًا بسورة سبح والغاشية ، فإذا فرغ من القراءة كبر رافعًا يديه ، وركع ، ووضع كفيه على ركبتيه ، كالقابض عليهما ، ونحى يديه عن جنبيه ، وبسط ظهره ، ومده ، واعتدل ، فلم ينصب رأسه ، ولم يخفضه ، ويقول : سبحان ربي العظيم ، وأحيانًا يزيد : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي ، ثم يرفع رأسه قائلاً : سمع الله لمن حمده ، ويرفع يديه ، ويقول : ربنا ولك الحمد ، وأحيانًا يقول : اللهم ربنا لك الحمد ، ويأتي بالدعاء المعروف : ملأ السماوات والأرض... الخ . ثم يكبر ويخر ساجدًا ، ولا يرفع يديه هنا ، ويضع ركبتيه ثم يديه ، ثم جبهته وأنفه ، ويُمَكِّن جبهته وأنفه من الأرض ، ويجافي يديه عن جنبه ، ويضع يديه حذو منكبيه في سجوده ، ويستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة ، ويقول : سبحان ربي الأعلى، ويقول أيضًا في سجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، وتارة يقول فيه : اللهم اغفر لي ذنبي كله ، دقه وجله ، وأوله وآخره ، وعلانيته وسره ، إلى غير ذلك من الأدعية، وقد قال ﷺ : « وأما السجود فأكثروا فيه من الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم» رواه مسلم ، ثم يرفع رأسه مكبرًا ، ولم يحفظ عنه ﷺ أنه رفع يديه حين يرفع من السجود ، ثم يجلس مفترشًا ، يفرش رجله اليسرى ويجلس عليها ، وينصب اليمنى ، ويضع يديه على فخذيه ، ويقول

اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وارزقني .

ثم يصلي الركعة الثانية كما سبق في الركعة الأولى ، إلا أن الركعة الأولى تمتاز عن غيرها بأربعة أشياء : بتكبيرة الإحرام التي هي ركن ، وبالسكوت بينها وبين القراءة ، وبالاستفتاح ، وبكونها غالبًا أطول من التي بعدها ، ثم يجلس للتشهد ، ويضع يده اليسرى على فخذه الأيسر ، ويده اليمنى على فخذه الأيمن ، ويشير بالسبابة ، ولا يحركها ، وأحيانًا كان ﷺ يفرش رجله اليسرى ، ويجلس عليها ، وينصب اليمنى ، وربما جلس على الأرض وأخرج اليسرى عن يمينه ونصب اليمنى، وقال بعض العلماء: إن كان في التشهد الأول فرش رجله اليسرى ، وجلس عليها ، ونصب اليمنى، وإن كان في التشهد الأخير جلس على الأرض ، وأخرج اليسرى عن يمينه ، ونصب اليمنى ، ثم يقرأ التشهد ، فيقول: التحيات لله ، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، هذا في التشهد الأول ، ويزيد في التشهد الأخير الصلاة على النبي وآله ، ويدعوا بأدعية معروفة حفظت عنه ﷺ .

وكان ﷺ لا يلتفت في صلاته ، وينهى عن ذلك ، ويقول : «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» رواه البخاري ، فإذا سلم ، سلم عن يمينه وعن شماله ، وروي عنه أنه ﷺ سلم تسليمة واحدة في صلاة

الليل، فإذا سلم استغفر ثلاثًا وهو مستقبل القبلة ، ثم قال: اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، ثم يلتفت على المأمومين ، ويستقبلهم بوجهه .

وكان ﷺ ربما صلى في نعليه ، وقد أمر بالصلاة بها من أجل مخالفة اليهود .

وربما قنت بعد الركوع في صلاة الفجر لعارض ، فإنه قنت ﷺ شهرًا يدعو على أحياء من العرب ، ولذلك قال أكثر العلماء : إنه يستحب القنوت في النوازل ، أي إذا نزل بالمسلمين نازلة مما يكرهون ، وليس خاصًا أيضًا بصلاة الفجر ، بل يستحب في جميع الصلوات ماعدا صلاة الجمعة ، فإن الدعاء في الخطبة كاف .

وكان عليه الصلاة والسلام يحافظ على ثنتي عشرة ركعة، وهي ما يسميها العلماء السنن الراتبة ، وهي أربع ركعات قبل الظهر، وركعتان بعدها ، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء في بيته ، وركعتان قبل صلاة الفجر.

وكان ﷺ يرغِّب في صلاة التطوع ، سيما صلاة الليل ، فإنها أفضل التطوع ، ويحث على صلاة الوتر ويقول : «أوتروا يا أهل القرآن» رواه أهل السنن ، وهو سنة مؤكدة ، بل قال بعض العلماء بوجوبه . وروي عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال : من تركه -أي داوم على تركه- فليس بعدل ،

والوتر أقله ركعة ، وأدنى الكمال ثلاث ، وأعلاه إحدى عشرة ، والأفضل آخر الليل لمن وثق من نفسه بقيامه ، وإلا أوتر أول الليل إن خشي من فواته.

وقد دل قوله ﷺ « إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم» على مشروعية الأذان ووجوبه ، حيث إن النبي ﷺ أمر به ، إلا أنه من فروض الكفاية ، إذا قام به شخص كفى عن الجماعة إذا كانوا بمسجد واحد وهم يسمعونه ، وكذا إذا كانوا في قرية صغيرة ، بحيث يسمعه الكل ، وإن كان لا يسمعهم زيد بقدر الحاجة .

ويدل الحديث على أن الأذان مشروعيته بعد دخول الوقت ؛ لقوله ﷺ : «إذا حضرت الصلاة ، فليؤذن لكم أحدكم» ، إلا أذان الفجر ، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال : «إن بلالاً يؤذن بليل ، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم» رواه البخاري ، فبهذا الحديث استدل العلماء على جواز الأذان للفجر خاصة ، قبل دخول الوقت ، كما كان بلال يؤذن بليل ، وابن أم مكتوم – وكان كفيف البصر - لا يؤذن حتى يدخل الوقت، ويقال له : أصبحت أصبحت .

وكذلك الإقامة للصلاة واجبة كالأذان ، وتسمى أذانًا أيضًا ، إلا أن الأذان هو الإعلام بدخول الوقت ، والإقامة الإعلام بالقيام إلى الصلاة ، ويستحب أن يكون المؤذن صيتًا ، أمينًا ، عالمًا بدخول الوقت ، متحريًا بكل

وسعه .

وقد ورد في فضل الأذان أحاديث كثيرة ، منها : ما رواه مسلم عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة» . وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لولا الخلافة لكنت مؤذنًا .

ويستحب لمن سمع المؤذن أن يقول مثل ما يقول المؤذن ، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا سمعتم النداء ، فقولوا مثل ما يقول المؤذن » رواه البخاري ومسلم .

ولمسلم رحمه الله عن عمر رضي الله عنه في فضل القول كما يقول المؤذن سوى الحيعلتين ، فيقول: لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله ﷺ: « وليؤمكم أكبركم» هو أمر ، والأمر يقتضي الوجوب ، فهو دليل على وجوب صلاة الجماعة .

ومما يدل على وجوب الجماعة أيضًا ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسًا وعشرين ضعفًا ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحط عنه خطيئة ، فإذا صلى لم تزل

الملائكة تصلي عليه ، ما دام في مصلاه تقول: اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه. ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » .

وفي رواية للإمام مالك في الموطأ « من توضأ فأحسن وضوءه ، ثم خرج عامدًا إلى الصلاة ، فإنه في صلاة ما دام يعمد إلى الصلاة ، وإنه يكتب له بإحدى خطوتيه حسنة ، ويمحى عنه بالأخرى سيئة ، فإذا سمع أحدكم الإقامة ، فلا يسع ، فإن أعظمكم أجرًا أبعدكم دارًا ، قالوا : لم يا أبا هريرة ؟ قال: من أجل كثرة الخطا » .

وفي رواية لابن حبان : إن رسول الله ﷺ قال : «من حين يخرج أحدكم من منزله إلى مسجدي ، فرجل تكتب له حسنة ، ورجل تحط عنه سيئة حتى يرجع » .

فينبغي للمسلم أن يحرص على هذا الثواب العظيم ، ولا ينبغي له أن يستولي عليه الكسل ، ويفوت على نفسه هذا الفضل العظيم ، فإذا كانت صلاة الجماعة تزيد على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ، فلا يفوت هذا الثواب على نفسه ، إلا محروم ، هذا مع مضاعفة الصلاة من الخطى إلى المساجد التي تكفر الذنوب ، ويحصل بها رفع الدرجات ، ودعاء الملائكة ، واستغفارهم له ، وإقام الصلاة مع جماعة المسلمين ، والسلامة من الإثم في ترك أدائها ، فلو لم يحصل للمسلم من حضور صلاة الجماعة إلا بعض ذلك، لكان جدير بالناصح لنفسه ألا يفوته على نفسه ، هذا على القول بأن

صلاة الجماعة سنة ، كما قاله بعض العلماء . وعلى القول بأنها واجبة كما قاله آخرون ، فإنه يأثم بتركها .

وأما على القول الثالث بأن صلاة الجماعة شرط من شروط صحة الصلاة ، أي أن الصلاة لا تصح بدون الجماعة إلا بعذر ، كما قاله بعض العلماء، وروي ذلك عن الإمام أحمد ، واختارها من أصحابه الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله وابن عقيل وغيرهما ، ولكنها من مفردات مذهب الحنابلة ، كما قال صاحب نظم المفردات في مذهب أحمد :

في كل فرض تجب الجماعة   وقال باشتراطها جماعة

قال الحافظ المنذري رحمه الله : « روينا عن غير واحد من أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : من سمع النداء ، ثم لم يجب من غير عذر ، فلا صلاة له . منهم ابن مسعود ، وأبو موسى الأشعري ، وقد روي ذلك عن النبي ﷺ » .

وممن كان يرى أن حضور الجماعات فرض : عطاء ، وأبو ثور . وقال الشافعي رضي الله عنه : « لا أرخص لمن قدر على صلاة الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر» .

وقال الخطابي بعد ذكر حديث ابن أم مكتوم : « وفي هذا دليل على أن حضور الجماعة واجب ، ولو كان ذلك ندبًا ، لكان أولى من يسعه التخلف

عنها أهل الضرورة والضعف ، ومن في مثل حال ابن أم مكتوم » ؛ لأنه كان مكفوف البصر .

وكان عطاء بن أبي رباح يقول : « ليس لأحد من خلق الله في الحضر وبالغربة رخصة ، إذا سمع النداء في أن يدع الصلاة » .

وقال الأوزاعي: « لا طاعة للوالد في ترك الجمعة والجماعة » .

وهذا من الأوزاعي دليل على أن تركها معصية ، والرسول ﷺ يقول : «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

وقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « من سره أن يلقى الله غدًا مسلمًا ؛ فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن ، فإن الله تعالى شرع لنبيكم سنن الهدي ، وإنهن من سنن الهدي ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم ، كما يصلي هذا المتخلف في بيته ، لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم ، لضللتم ، وما من رجل يتطهر ، فيحسن الطهور ، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه بها درجة ، ويحط عنه بها سيئة ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به ، يهادى بين الرجلين ، حتى يقام في الصف » رواه مسلم .

وفي رواية في صحيح ابن حبان : « لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة

إلا منافق ، قد علم نفاقه أو مريض ، وإن كان المريض ليمر بين الرجلين حتى يأتي الصلاة ، وقال : إن رسول الله عليه الصلاة والسلام علمنا سنن الهدي ، وإن من سنن الهدي الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه » .

وروى الترمذي وحسنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : « أتاني الليلة آت من ربي - وفي رواية : رأيت ربي في أحسن صورة - فقال لي : يا محمد ، قلت : لبيك رب وسعديك ، قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : رب لا أدري ، فوضع يده بين كتفي ، فوجدت بردها بين ثديي ، أو قال : في نحري ، فعلمت ما في السماوات وما في الأرض ، أو قال : ما بين المشرق والمغرب ، قال: يا محمد ، فقلت : لبيك رب وسعديك، قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الدرجات ، والكفارات ، وفي نقل الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء في المكروهات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، ومن حافظ عليهن عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، قال : يا محمد ، قلت : لبيك وسعديك ، فقال : إذا صليت ، قل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون ، قال : والدرجات إفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام».

ثم اعلم أيها المسلم أن المحافظة على الصلاة جماعة في المساجد فيها فوائد كثيرة :

منها : امتثال أمر الشارع ﷺ .

ومنها : الخروج من الخلاف في صحة الصلاة .

ومنها : التأسي بالرسول الكريم ﷺ والاهتداء بهديه ﷺ وهدي أصحابه من بعده والتابعين من بعدهم .

ومنها : ما يحصل من رفع الدرجات وتكفير السيئات بنقل الأقدام وكثرة الخطى إلى المساجد .

ومنها: ما يحصل للإنسان من تحية المسجد وصلاة النافلة قبل الصلاة وبعدها .

ومنها : ما يحصل من التسبيح والتهليل والتحميد وقراءة القرآن وقت انتظار الصلاة .

ومنها : فضل انتظار الصلاة ، فإنه في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه .

ومنها : ما يحصل له من سماع المواعظ والتذكير التي قد تحصل له في بعض الأوقات في المسجد .

ومنها : دخوله في عموم قوله ﷺ : إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالخير .

ومنها : اجتماعه بإخوانه المسلمين والتعرف عليهم ومعرفة أهل الخير

منهم .

ومنها : أنه لو قدر أن يخرج من بيته لأجل الصلاة ثم تفوته مع حرصه على إدراكها أنه يحصل له من الأجر مثل أجر من حضرها ، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي والحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم ، وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من توضأ فأحسن وضوءه ، ثم راح ، فوجد الناس قد صلوا ، أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها لا ينقص ذلك من أجرهم شيئًا » . وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة .

فإذا تأمل المسلم هذه الفوائد علم فضل المحافظة على صلاة الجماعة وأنها من أفضل ما يؤتاه المؤمن ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور:٣٦-٣٧].

وتحصل فضيلة الجماعة بإمام ومأموم .

ودل قوله ﷺ : «وليؤمكم أكبركم» على أنه ينبغي أن يكون الإمام الأكبر سنًا إذا استووا في القراءة والصفات المطلوبة في حق الإمام ، ولذا جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال : « يؤم القوم أقرأهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواء ، فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا في السنة سواء ،

فأقدمهم هجرة فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلمًا » ، فإذا كانوا متقاربين في هذه الصفات كان الأولى أكبرهم ، فإن تقديم الكبير مشروع في كل أمر طلب فيه الترتيب ، إذا لم يكن للصغير مزيد فضل عليه؛ لقوله ﷺ : « وليؤمكم أكبركم » ؛ ولقوله ﷺ أيضًا : «كبر كبر» رواه البخاري ومسلم .

وبما أنه ﷺ أمر بالجماعة ، وأن يكون هناك مأموم وإمام ، فليعلم أنه إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر كبر من وراءه ، وإذا ركع ركع من وراءه، وإذا رفع رفع من وراءه ، وإذا سجد فكذلك ، وإذا رفع من السجود فكذلك ، وهكذا يجب على المأموم متابعة إمامه ، وينهى عن موافقته له بالأفعال ، وأما مسابقته للإمام أو التقدم عليه في ركوع وسجود أو خفض أو رفع فإن ذلك محرم مبطل للصلاة ، فيؤمر المأمومون بالاقتداء بإمامهم ، وينهون عن موافقته أو مسابقته أو التخلف عنه .

واعلم أن للإمام موقفًا وللمأموم موقفًا ، فموقف الإمام إذا كان الجماعة اثنين فأكثر ، فالأفضل أن يكونوا خلفه ، ويجوز أن يصفوا عن يمينه، أو يكون الإمام وسطهم يكون بعضهم عن يمينه ، وبعضهم عن شماله ، وأما إذا كان المأموم واحدًا ، فإنه يتعين أن يكون عن يمين الإمام ، وأما المرأة تكون خلف الرجل إذا كان إمامًا لها ، كما تكون خلف الرجال ، وتقف وحدها ، ويجوز ذلك لها ، لكن بشرط أن لا تجد نساء تصف معهن ، فإن وجدت نساء فإنه يجب عليها المصافة لهن ، ولا يجوز أن تنفرد عنهن .

وأما الرجل فإنه لو وقف خلف الصف وحده أو خلف الإمام وحده لغير عذر بطلت صلاته ؛ لأن النبي ﷺ لما رأى الرجل الذي صلى خلف الصف وحده أمره بالإعادة ، كما روى أحمد وأبو داود والترمذي عن وابصة بن معبد رضي الله عنه : «أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلي خلف الصف وحده ، فأمره أن يعيد الصلاة» .

وينبغي للإمام مراعاة المؤمنين ، والحرص على تحصيل مقصود الإمامة من أداء الصلاة في وقتها ، من غير أن يشق عليهم بالعجلة بالدخول بالصلاة ، بل ينبغي انتظارهم بعد الأذان بقدر ما يتمكنون من الوضوء ، ومن قضاء حاجاتهم الضرورية كالتخلي ، وتجديد الوضوء ، وأداء السنن الراتبة ، ونحو ذلك ، وكذلك رفع الصوت بالتكبير ، والقراءة في الصلاة الجهرية ، بحيث يسمعهم بقدر إمكانه ، ومراعاة التخفيف مع الإتمام ؛ لقوله ﷺ : « إذا أم أحدكم الناس فليخفف ، فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض ، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء» رواه مسلم ، وليكن التخفيف في حدود ما أمر به النبي ﷺ أو فعله، فقد قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ رضي الله عنه : « يا معاذ أفتان أنت –ثلاث مرار– فلولا صليت بسبح اسم ربك ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » رواه البخاري ، وقد قال ﷺ هذا لمعاذ ، حين بلغه أنه قرأ سورة البقرة في صلاة العشاء .

ولهذا الحديث وغيره من الأحاديث قال العلماء رحمهم الله : إنه يستحب للإمام أن يقرأ في صلاة الفجر من طوال المفصل ، وفي العشاء من أوساطه ، وفي المغرب من قصاره .

وطوال المفصل من سورة (ق) إلى سورة عم . وأوساطه من سورة عم إلى سورة الضحى . وقصاره من سورة الضحى إلى الناس .

وهذا بالنظر لغالب الوقت ، وإلا فقد يحسن التطويل بعض الوقت إذا علم الإمام أنه لا يشق على المأمومين ، أو كانوا محصورين أي قليلين ، بحيث يعرف منهم عدم مشقته عليهم ، فقد ثبت أنه ﷺ قرأ بسورة الطور في صلاة المغرب ، ومرة بسورة الأعراف ، وقرأ أبو بكر سورة البقرة في صلاة الفجر ، ولكن هذا نادر ، وقد تقدم قوله ﷺ : « إذا أم أحدكم الناس فليخفف » ، فعلى الإمام أن يراعي حال المأمومين ، وأن يعرف معنى التخفيف الذي أمر به ﷺ ، وذلك بمعرفة ما كان ﷺ يفعله ، ويأمر به .

نسأل الله أن يرزقنا الفقه في الدين ، والعمل بسنة خاتم النبيين ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث السادس

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة ، وليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة ، وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة » .

هذا الحديث الشريف فيه بيان للنصاب الذي تجب فيه الزكاة في : الحبوب والثمار ، وبهيمة الأنعام ، والنقود ، وهذه الأنواع الثلاثة التي نص عليها الحديث هي أغلب ما هو موجود ، ومتداول بين الناس .

واعلم أيها المسلم أن الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام ، وهي أهم الأركان بعد الشهادتين والصلاة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة :٥] فمن جحد وجوبها فقد كفر ؛ لأنه مكذب لله ولرسوله ولإجماع الأمة ، ومن أداها معتقدًا وجوبها ، راجيًا ثواب إخراجها ، خائفًا من عقوبة منعها ، فإنه سينال الخير الكثير من ربه ، عاجلاً وآجلاً ، ففي الدنيا يحصل له الخلف العاجل ، والبركة ، وتنمية المال كما قال تعالى : ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣]،

كما أنه يزول اسم البخل عنه ، فإن البخيل هو الذي يبخل بالواجب، ويرجى له أن يدخل في عموم قوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩] والله سبحانه وعد المنفقين بالخلف في قوله عز وجل : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ:٣٩] وإذا علم الإنسان أن ما بيده من المال والثروة إنما هو عارية، والعارية لابد أن تُرد إلى صاحبها ، فلماذا يبخل بالزكاة ، وينمي ماله لغيره ، ويبوء بإثمها ، فيتولى حارها ، وغيره من بعده يتولى قارها .

وما المال والأهلون إلا وداع ولابـد يومًا أن ترد الودائع

فإذا علم المسلم وكل أحد يعلم ذلك أنه مرتحل وتارك هذا المال ، فلأي شيء يبخل بزكاة ماله ، ويعرض نفسه لعقوبة ربه ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة:٣٤-٣٥] وقد أخبر ﷺ أنه « ما من صاحب مال لا يؤدي زكاته ، إلا مُثِّل لصاحبه شجاعًا أقرع -أي صل عظيم وهو أخبث أنواع الحيات - فيأخذ بلهزمتيه -أي شدقيه- ويقول : أنا مالك ، أنا كنزك » رواه البخاري ، فمن يطيق ذلك يا عباد الله .

روى الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

أتى رجل من تميم رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إني ذو مال كثير ، وذو أهل ومال وحاضرة ، فأخبرني كيف أصنع ، وكيف أنفق ، فقال رسول الله ﷺ : «تخرج الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين » .

وروى أبو داود عن عبد الله بن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان : من عبد الله وحده ، وأنه لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه كل عام ، ولم يعط الهرمة ، ولا الدرنة ، ولا المريضة ، ولا الشرَط اللئيمة ، ولكن من وسط أموالكم ، فإن الله لم يسألكم خيره ، ولم يأمركم بشره » .

وقد أمر الله سبحانه بدفع الزكاة في عدة آيات من كتابه ، وكل ما ورد في القرآن الكريم من الأمر بأداء الصلاة يكون مقرونًا بالأمر بأداء الزكاة ، فالصلاة والزكاة دعامتان قويتان من دعائم دين الإسلام التي يقوم عليها ، كما أنها مشروطة بأخوة الدين بين المؤمنين ، فمن لم يصل ، أو لم يزك ، لم تحصل له الأخوة الدينية الحاصلة بين المؤمنين إذا تركها ، أو ترك أحدهما ، معتقدًا عدم وجوبه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة:١١] وقد حذر ﷺ من عدم إيتاء الزكاة ، وأخبر أن منع الزكاة سبب من أسباب القحط ، وقلة الأمطار ، كما أخبر ﷺ بأنه : «ما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا

البهائم لم يمطروا » رواه ابن ماجة والحاكم وصححه ، فالزكاة سبب قوي من أسباب كثرة الرزق ووجود البركة فيه ؛ لأن الزكاة مشتقة من الزيادة والكثرة ، كما يقال : زكى الشيء إذا زاد ونمى، وقد جاء في اللغة زكى الزرع إذا زاد ، كما أنها تزكي الأخلاق ، وتطهرها ، وتزكي النفوس من أدران البخل ، والشح ، والدناءة ، وقساوة القلوب ، والاستئثار ، والطمع، ومن أكل أموال الناس بالباطل ، وغير ذلك من الرذائل التي هي مثار التحاسد والتباغض ، وهي من الأسباب الجالبة للمحبة بين الفقراء والأغنياء ، والثناء والذكر الجميل لصاحب المال ، وعدم التعرض له بالسب ، وذكر المساوي والمعايب ؛ لأن الإنسان مجبول على محبة من أحسن إليه . وأداء الزكاة وإن كان شيئًا واجبًا فإنه إحسان إلى الفقراء والمساكين ، ويحبونه على ذلك ، ويحبه غيرهم أيضًا ، ولو لم ينلهم شيء من إحسانه ؛ لأن هذا عمل صالح ، وقد جعل الله في القلوب مودة ومحبة عباده الصالحين ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم:٩٦] .

أيها المسلم نعود بك إلى شرح الحديث ، فقوله : « ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة» ، هذه الجملة تدل على أن الثمار والحبوب نصابها خمسة أوسق ، والوسق ستون صاعًا بصاعه ﷺ ، فتكون خمسة الأوسق ثلاثمائة صاع ، فمن بلغت حبوب زرعه أو مثل ثمره هذا المقدار فأكثر ،

فعليه زكاته ، وما دون ذلك فليس فيه زكاة ، وأما مقدار المخرج فإنه يختلف بحسب طريقة سقيه الماء ، فإن كان الزرع والثمر يشرب بعروقه ، أو بواسطة الأنهار، والسيول ، ولا يحتاج في سقيه لمؤنة من مكائن، ورافعات للماء ، ودواليب ، أو حيوان كالسواني ونحوها ، فإنه يجب فيه العُشر كاملاً. وإن كان يحتاج إلى تلك المؤنة فإنه لا يجب فيه إلا نصف العُشر ، وهذا من حكمة الشارع ، والرفق بأهل الزروع ، فما سهلت مؤنته أوجب فيه العشر ، وما عظمت مؤنته نصف العشر .

وقوله ﷺ : « وليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة » الورق هي الفضة ، فهذا فيه بيان نصاب الفضة ، وأقله خمس أواق ، والأوقية أربعون درهمًا ، وخمس الأواق مئتا درهم ، فمتى بلغت عنده مئتا درهم ، ففيها الزكاة ، وما نقص عن ذلك فلا شيء فيه ، وما زاد عنها وجبت فيه الزكاة من باب أولى، ومقدار المخرج منها هو ربع العشر ، وأما نصاب الذهب فهو عشرون دينارًا ، والواجب أيضًا ربع العشر ، وكذلك ما تفرع من الذهب والفضة من عروض التجارة .

وعروض التجارة كل ما أعد للبيع والشراء لأجل طلب الربح والكسب منه، فهذا إذا بلغت قيمته نصابًا بأحد النقدين الذهب والفضة ، فإنه يجب في قيمته ربع العشر ، فيُقَوَّم عند تمام الحول بقيمته نقودًا ، ويخرج عنه ربع عشرها .

فعروض التجارة ليست محصورة في نوع معين من أصناف المال ، بل كل ما اتخذ من أجل الاستفادة والربح منه فهو داخل فيها ، سواء كان من البيوت أو الأراضي أو الحبوب أو السلع بأنواعها ، وأما ما اتخذ لأجل الحاجة إليه أو للقنية فلا زكاة فيه ، وليس داخلاً في عروض التجارة ، سواء كان من البيوت أو الأراضي أو السيارات ونحو ذلك .

وقوله ﷺ : « وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة » : هذه الجملة فيها بيان نصاب زكاة الإبل ، فدل الحديث على أن الإبل لا يجب فيها زكاة ، حتى تبلغ خمس وما دون ذلك فليس فيه زكاة ، فهذا نصابها ، وأما مقدار ما يخرج منها فقد وضح في غير هذا الحديث ، وذلك أنه يجب في خمس من الإبل شاة ، وفي عشر شاتان ويستمر هذا المقدار في كل خمس منها شاة حتى تبلغ خمسًا وعشرين، فإذا بلغت خمسًا وعشرين وجبت فيها بنت مخاض ، وهي التي تم لها سنة ، ثم في ست وثلاثين بنت لبون وهي ما تم لها سنتان ، وفي ست وأربعين حقة ، وهي ما تم لها ثلاث سنين ، ثم في إحدى وستين جذعة ، وهي ما تم لها أربع سنين ، وهذا هو أعلى سن يجب في زكاة الإبل ، وفي ست وسبعين بنتا لبون ، وفي إحدى وتسعين حقتان ، فإذا زادت على عشرين ومائة ، ففي كل أربعين بنت لبون ، وفي كل خمسين حقة، وما بين الفرضين فليس فيه شيء . مثال ذلك في خمس وعشرين من الإبل بنت مخاض إلى خمس وثلاثين ، فإذا بلغت ستًا وثلاثين ففيها بنت

لبون، فما بين الخمس والعشرين والست والثلاثين ليس فيه شيء .

وأما نصاب زكاة البقر فالثلاثون منها فيها تبيع أو تبيعة وهو ما تم له سنة، وفي أربعين مسنة ما تم لها سنتان ، ثم تستقر الفريضة في كل ثلاثين تبيع ، وفي كل أربعين مسنة .

ونصاب زكاة الغنم أقله أربعون وفيها شاة واحدة ، حتى تبلغ مائة وعشرين ، فإذا زادت واحدة فصارت مائة وإحدى وعشرين ففيها شاتان حتى تبلغ مائتين ، فإذا زادت واحدة ففيها ثلاث شياه ، ثم تستقر الفريضة في كل مائة شاة ، وما بين الفرضين في البقر والغنم والإبل ليس فيه شيء كما تقدم ، وأما بقية الحيوانات كالخيل والبغال والحمير فليس فيها زكاة إلا إذا أعدت للبيع والشراء فتكون من جملة عروض التجاة .

وتعتبر فريضة الزكاة من محاسن الإسلام ، فإن الله أوجبها على الأغنياء حقًا ثابتًا مستقرًا كل عام تدفع للفقراء والمساكين وبقية الأصناف الثمانية المذكورة في الآية الكريمة ، لا يجوز صرفها لغيرهم ، والآية المشار إليها هي قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٦٠] .

فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ ﴾ أي الزكوات الواجبة ، بدليل أن الصدقة المستحبة تدفع لكل أحد لا يختص بها أحد دون أحد ، فالصدقات

الواجبة لهؤلاء المذكورين دون من عداهم ؛ لأنه حصرها فيهم ، فلا يجزئ أن تبنى منها المساجد ، ولا يصلح بها الطرق .

والفقراء والمساكين هم في هذا الموضع صنفان متفاوتان ؛ لأن حمله على التأسيس أولى من حمله على التوكيد ، فالفقير أشد حاجة من المسكين ؛ لأن الله بدأ بهم ، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم ، وفسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئًا ، أو يجد بعض كفايته دون نصفها . والمسكين هو الذي يجد نصفها ، ولا يجد التمام لكفايته ؛ لأنه لو وجد الكفاية لكان غنيًا ، والغني ليس له حظ فيها ، فهؤلاء يعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكنتهم .

والثالث : العاملون على الزكاة ، وهم كل من له عمل، أو شغل فيها، من حافظ لها ، وجاب لها من أهلها ، أو راع ، أو حامل لها ، أو كاتب ، أو نحو ذلك ، فيعطون أجرة لأعمالهم فيها .

والرابع : المؤلفة قلوبهم ، والمؤلف قلبه : هو السيد المطاع في قومه ممن يرجى إسلامه ، أو يخشى شره ، أو يرجى بعطيته قوة إيمانه أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها ، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة .

الخامس: الرقاب:وهم المكاتبون الذين اشتروا أنفسهم من أسيادهم، فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم ، فيعتقون على ذلك من الزكاة، وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا ، بل أولى ، ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق الرقاب استقلالاً ؛ لدخوله في قوله :﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾.

السادس : الغارمون وهم قسمان : أحدهما : الغارمون لإصلاح ذات البين ، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة ، فيتوسط الرجل لأجل الإصلاح بينهم بمال يبذله لأحدهما أو لهما ، فجعل له نصيب من الزكاة ؛ ليكون أنشط له وأقوى لعزمه ، فيعطى ، ولو كان غنيًا . والثاني : من غرم لنفسه ، ثم أعسر ، فإنه يعطى ما يوفى به دينه .

والسابع : الغازي في سبيل الله ، وهم الغزاة المتطوعة الذين لا ديوان لهم، ولا يأخذون من بيت المال نصيبًا على ذلك ، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم ، من ثمن سلاح ، أو أجرة مركوب ، أو نفقة له ولعياله؛ ليتفرغ للجهاد ، ويطمئن قلبه ، وقد قال بعض الفقهاء : إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم أعطي من الزكاة ؛ لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله.

والثامن : ابن السبيل ، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده ، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده .

فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم ، ولا يجوز دفع الزكاة المفروضة لغيرهم ؛ لهذه الآية الكريمة التي حصرتها فيهم . والله سبحانه أعلم ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث السابع

روى البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

هذا الحديث الشريف يدل على أن مسمى الإيمان يشمل جميع شرائع الدين من عقائد القلوب وأعماله ، وأعمال الجوارح ، وأقوال اللسان ، فكل عمل يتقرب به إلى الله من الأعمال الصالحات فهو من الإيمان ، وكل عمل يحبه الله ويرضاه فهو من الإيمان . فيدخل في ذلك الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، كلها من الإيمان . وكذا الأعمال الباطنة كالحب ، والخوف ، والخشية ، والتوكل ، كله من الإيمان ، ويدخل فيه ذكر الله ، والصلاة على نبيه محمد ﷺ ، وقراءة القرآن ، كله من الإيمان .

والحديث دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ، وأن أهله ليسوا في رتبة واحدة ، لتفاوت إيمانهم ، وتحصيلهم من هذه الشعب ، لكن الفرق بين هذه الشعب أن من أخل بأعلاها ، وهي الشهادة ، فقد بطل سائر عمله دون من أخل بشيء مما دونها ، فإن إيمانه صحيح ، لكنه ناقص بنقصان تلك

الشعب .

وإذا أطلق لفظ الإيمان مجردًا كما في هذا الحديث ، فإنه يدخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة ، وإن أعلى ذلك وأرفعه هو قول لا إله إلا الله ، كلمة التوحيد ، كلمة الإخلاص التي تضمنت إفراد الله بالعبادة ، والكفر بما دونه ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة:٢٥٦] ، وهي المتضمنة لملة إبراهيم عليه السلام ، حيث يقول سبحانه عن خليله ونبيه إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧] ، ولا إله إلا الله هي التي خلق الخلق من أجلها ، كما قال الله سبحانه وتعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، قال ابن عباس رضي الله عنهما:﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ يوحدون ، وهي التي بعثت من أجلها الرسل ، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، وهي دعوة جميع المرسلين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] ، وكان النبي ﷺ يقول لعمه : «يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله » رواه البخاري ومسلم .

فدلت هذه النصوص وغيرها أن الله خلق الخلق من أجل عبادته،

وأرسل إليهم الرسل من أجل عبادته ، والمعنى إخلاص العبادة له وحده لا شريك له ، فإن من عبد الله ولكن عبد معه إلهًا آخر يصرف له شيئًا من أنواع العبادة فقد أشرك بالله ، ومن أشرك بالله فقد حبط عمله ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥] ، وكما قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، وعرفها بعضهم بقوله : هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله ، وذلك مثل : الدعاء ، والنذر ، والذبح ، والتوكل ، والرغبة، والرهبة ، والخوف ، والخشية ، والإنابة ، والتوبة ، والرجاء ، ونحو ذلك مما ورد في القرآن والسنة ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر:٦٠] ، وقال سبحانه :﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان:٧] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣] ، وقال سبحانه : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] ، وقال سبحانه :﴿ إِنَّهُمْ

كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:٩٠] ، وقال سبحانه: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال : ﴿ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ﴾ [المائدة:٣] ، وقال : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر:٥٤] .

فالحاصل أن كل ما أمر الله به ، أو أمر به رسوله ﷺ من أنواع العبادات فهي خالص حقه سبحانه ، فلا يجوز أن يصرف لغيره شيء من ذلك ، فمن صرف منها شيئًا لغير الله كائنًا من كان رسولاً كان أو نبيًا أو وليًا أو ملكًا فقد أشرك بالله ، لأن العبادة هي الذل والخضوع مع المحبة التامة ، وهذا لا يجوز إلا للخالق الرازق والمحيي المميت ، وسواه جل وعلا لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرًا ولا نفعًا ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى لرسوله ، وأكرم الخلق عليه وأعلاهم عنده منزلة : ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٨] .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله قاعدة عليها مدار العبادة، فقال رحمه الله: « رحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة ، من كملها كمل مراتب العبودية ، وبيانها أن العبودية منقسمة على القلب ، واللسان ، والجوارح ، وعلى كل منها عبودية تخصه ، والأحكام التي للعبودية خمسة: (واجب

ومستحب وحرام ومكروه ومباح) ، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح» اهـ من مدارج السالكين .

وقال القرطبي رحمه الله : أصل العبادة التذلل والخضوع ، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات ؛ لأنهم يلتزمونها ، ويفعلونها خاضعين ، متذللين لله تعالى ، قلت : وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] فهو خلقهم من أجل عبادتهم له ، وهذا هو الحكمة في خلقهم ، ولم يخلقهم ويجعلهم عبيدًا له من أجل أن يعينوه في شيء من الأشياء ، كما يريده السادة من عبيدهم أن ينصروهم ، ويعينوهم في الرزق والإطعام ، بل هو سبحانه الرزاق ذو القوة المتين الذي يطعم ولا يطعم ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:١٤] ، فإذا علمنا ذلك ، وأنه سبحانه خلقهم من أجل عبادته ، تبين لنا أنه لا يرضى أن يعبد معه أحد كائن من كان، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، بل هذا حقه سبحانه، وهو دين الإسلام الذي لا يرضى سواه .

والإسلام هو الاستسلام لله وحده ، بتوحيده بالعبادة دون من سواه، وهذا هو معنى لا إله إلا الله التي هي أعلا شعب الإيمان الواردة في هذا الحديث الذي نحن بصدد الكلام عليه .

وأما أدناها فهو إزالة الأذى عن الطريق ، كما قال ﷺ : « وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» ، ونبه ﷺ بهذا على أن جميع أنواع الإحسان القولي والفعلي الذي فيه وصول المنافع إلى الناس ، والإحسان الذي فيه دفع المضار عن الخلق ، كل ذلك داخل في مسمى الإيمان ، فكل خصلة خير ، فهي من تلك الشعب ، ونصيب العبد من الإيمان بقدر نصيبه من هذه الخصال الخيرية التي تعود عليه ، وعلى غيره بالنفع ، وكلما كثرت وقوي الإخلاص بها زاد إيمان المسلم .

ثم ذكر ﷺ أن الحياء شعبة من تلك الشعب التي هي من خصال الإيمان .

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله : « ولعل ذكر الحياء -هنا بين أعلا شعب الإيمان وبين أدناها- ؛ لأنه السبب الأقوى للقيام بجميع شعب الإيمان ، فإن من استحيا من الله لتواتر نعمه وسابغ كرمه ، وتجليه عليه بأسمائه الحسنى ، والعبد مع هذا كثير التقصير مع هذا الرب الجليل الكبير المتعال ، يظلم نفسه ، ويجني عليها ، أوجب له هذا الحياء التوقي من الجرائم ، والقيام بالواجبات والمستحبات» اهـ .

ومن المعلوم أن الحياء إذا وهبه الله للعبد ، فإنما يدل على إرادة الخير فيه ، ولذلك كان ضده موجبًا لفعل ما يشينه ، ويضيره عند الله وعند خلقه، ولذلك يقول ﷺ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم

تستحي فاصنع ما شئت » رواه البخاري .

وقد قال بعض العلماء : إن الحياء أصل العقل وبذر الخير ، وتركه أصل الجهل وبذر الشر ، وقد قيل في هذا المعنى :

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه فلا خير في وجه إذا قل ماؤه

حياؤك فاحفظه عليك فإنما يدل على وجه الكريم حياؤه

وقد روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : «من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله» .

وقال سفيان بن عيينة عن يحيى بن جعدة : «إذا رأيت الرجل قليل الحياء ، فاعلم أنه مدخول في نسبه» .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الثامن

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

« الدين النصيحة ، قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » .

هذا الحديث له شأن عظيم ، وجعله بعض العلماء أحد أرباع الدين ؛ لأنه أحد الأحاديث التي يدور عليها الفقه ، وروي عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، ومن لم يصبح ويمسي ناصحًا لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه وعامة المسلمين فليس منهم » رواه الطبراني .

والنصح له مكانة عالية في الدين ، وفي كمال الإيمان ؛ ولذلك ورد في الصحيحين عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم .

وقد قال الله عز وجل : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة :٩١] يعني : أن من تخلف عن الجهاد في سبيل الله لعذر ، فلا حرج

عليه إذا كان ناصحًا لله ولرسوله في تخلفه .

وفي قوله عليه الصلاة والسلام : « الدين النصيحة » دليل على أن النصيحة تشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان ، وهي التي ذكرت في حديث جبريل عليه السلام حينما سأل النبي ﷺ عنها ، وأجابه ، ثم قال ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم» رواه مسلم .

قال ابن رجب رحمه الله : « النصح لله يقتضي القيام بأداء الواجبات على أكمل وجه ، وهو مقام الإحسان ، فلا يكمل النصح لله بدون ذلك ، ولا يتأتى ذلك بدون كمال المحبة الواجبة ، والمستحبة ، ويستلزم ذلك الاجتهاد في التقرب إليه بنوافل الطاعات على هذا الوجه، وترك المحرمات، والمكروهات على هذا الوجه» اهـ .

فالنصيحة لله هي : الإيمان به سبحانه ، وأنه الإله الحق الفرد الصمد المستحق للعبادة وحده ، والإيمان بأسمائه وصفاته ، والقيام بحقه ، وعبوديته التامة ، وإخلاص النية في عبادته . وعبوديته سبحانه تشمل ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان كلها ، وأعمال القلوب ، والجوارح ، وأقوال اللسان ، من الفروض ، والنوافل ، حسب الاستطاعة ، والقدرة ، والعزم ، والنية الصادقة على القيام بما لا يقدر عليه عند القدرة عليه .

ومن أعظم النصيحة لله الدعوة لهذا الدين ونصرته ورد الشبهة عنه ، وبيان مزاياه وخصائصه ، وفضائله وما يدعو إليه . فسعادة الدين والدنيا في

اتباع دين الإسلام ، والتمسك به ، وقد صرح بذلك كثير من المفكرين ممن لا ينتسبون إليه .

أما من الناحية الدينية والحصول على نعيم الروح ، والقلب في هذه الدنيا ، ونعيم الروح والبدن في دار الآخرة ، فهذا شيء لا يعلمه إلا من آمن به ، وصدق وعد الله ورسوله فيه ، وهو الغاية التي يتسابق إليها المؤمنون ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٩]، ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٥]، ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢١].

وأما النصيحة لكتاب الله : فهو الإيمان به ، وأنه كلام الله جل وعلا ، أنزله على نبيه محمد ﷺ ، ويشمل العمل بما فيه ، والإقبال عليه بالتدبر ، والتفهم ، والتلاوة ، وتعلمه وتعليمه ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، والعمل بمحكمه ، والإيمان بمتشابهه ، واجتناب نواهيه ، وتحكيمه ، والتحاكم إليه ، وأن لا يقدم حكم أحد كائنًا من كان على حكمه ، ويدعو الناس إلى ذلك ، ويحث عليه ، ويرشد إليه ، كما قال سبحانه ﴿ أَفَحُكْمَ

ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠] .

وأما النصيحة لرسوله ﷺ : فهي الإيمان به ﷺ ، وأنه رسول من عند الله جل وعلا ، وتصديق ما أخبر به ، ومحبته ، وتقديم محبته على كل أحد ، واحترام أقواله ، وتقديم أوامره ، وأحكامه ، والعمل بها ، والرضا بحكمه، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، ومن محبته ﷺ أن تكون محبته ﷺ بعد محبة الله عز وجل ، مقدمة على النفس والولد، وعلى كل شيء ، والعناية بطلب سنته ، والبحث عن أخلاقه ، وآدابه ، وشمائله ، والاتصاف بها ، مهما أمكن ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] ، ومن محبته ﷺ محبة من له به صلة من قرابة ، أو صهر ، أو نصرة ، أو صحبة ، والترضي عنهم جميعهم .

وأما النصيحة لأئمة المسلمين : فمحبتهم ، ومحبة صلاحهم ، ورشدهم ، وعونهم ، والدعاء لهم بالسداد ، والرشد ، ومحبة اجتماع الأمة عليهم، والدعاء إلى ذلك ، وكراهية افتراق الأمة عليهم ، والنهي عن ذلك، والتدين بطاعتهم في طاعة الله ، والبغض لمن رأى الخروج عليهم ، والتحذير من ذلك ، ومحبة إعزازهم في طاعة الله ، وبذل ما يستطيع الإنسان من نصيحتهم ، وتوضيح ما خفي عليهم ، مما يحتاجون إليه في

رعايتهم ، والدعاء لهم بالتوفيق ، والابتعاد عن الطعن عليهم ، ومسبتهم والقدح فيهم ، وإشاعة مثالبهم ، فإن في ذلك ضررًا ، وفسادًا كبيرًا ، وينبغي القيام بنصحهم سرًا بعبارة لطيفة تليق بمقامهم ، ويحصل بها المقصود ، فإن النصيحة إذا كانت على هذا الوجه فهو أدعى للقبول، وهي علامة الصدق والإخلاص من الناصح ، ولذلك يروى عن الإمام الشافعي رحمه الله رحمة واسعة هذه الأبيات :

تعمدني النصيحة بانفراد ... وجنبني النصيحة في الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع ... من التوبيخ لا أرضى استماعه

فإن خالفتني وعصيت أمري ... فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

ولا ينبغي للناصح أن يتحدث بنصيحته عند الناس ، فإن هذا دليل على الرياء ، ومخالف لهدي السلف الصالح رضوان الله عليهم ، ومدعاة لعدم القبول ، ويدخل في هذا جميع من له ولاية ، من الإمام الأعظم ، إلى من دونه من أصحاب الولايات ، ويدخل فيه كل صاحب مقام له فيه تصرف وتأثير .

وأما النصيحة لعامة المسلمين : فهي أن يحب لهم ما يحب لنفسه ، وأن يسعى في حصول الخير إليهم ما استطاع ، وفي دفع الشر عنهم مهما أمكنه ذلك ، وأن يعلم جاهلهم ، ويعظ غافلهم ، وينصحهم في كل ما يعود

عليهم بالخير في أمور دينهم ودنياهم، وأن يعاملهم بما يحب أن يعاملوه به، ولا يبخل عليهم في بذل جاهه وماله بحسب حاله ، فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه المسلم .

ويدخل في النصيحة كف الغيبة عن عرض أخيك المسلم ، منك ومن غيرك، فعليك أن تمسك لسانك عن الوقوع في أعراض إخوانك من المؤمنين ، كما عليك أيضًا إذا ذُكر أخوك المؤمن بسوء أن ترد عنه ، وتنصره ، فإن الرد عن عرض صاحبك في حال غيبته يدل على صدق النصيحة وسلامتها من الرياء ، والتملق ، ومن النصيحة أنك إذا رأيته في أمر غير محمود أن تنهاه برفق ولين ، فإن هذا من النصح له، ومن نصرته المأمور بها ، ففي صحيح البخاري رحمه الله يقول عليه الصلاة والسلام : « أنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا ، فقال يا رسول الله : أنصره إذا كان مظلومًا ، فكيف أنصره إذا كان ظالمًا ؟ قال : تمنعه وتحجزه عن الظلم فإن ذلك نصرته » .

وهكذا ينبغي للمؤمن أن ينصح أخاه ، ويذكره بعيوبه لإصلاحها ، لا على وجه التقريع والتوبيخ ، ويتحمل ، ويصبر على ما يلاقيه في هذا السبيل ، فإن المنصوح قد يشق عليه نصحك ، وتضجر نفسه ، ولكنه إن كان عاقلاً تحمل ذلك منك ، وشكرك على ذلك ، وعلم أنك ناصح له ؛ لأنك نبهته على خطأه ؛ ليصلحه ، وهذا دليل المحبة والنصح له كما قيل :

ما ناصحتك خياب الود من أحد ما لم ينلك بمكروه من العذل

مـــودتي لك تـأبى أن تســـامحني بأن أراك على شـيء من الزلل

رزقنا الله وإياكم الإخلاص في السر والعلن ، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث التاسع

روى الإمام أحمد والترمذي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

« كنت خلف النبي ﷺ يومًا فقال لي : يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

وفي رواية للحاكم : «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن الخلائق لو اجتمعوا على أن يعطوك شيئا لم يرد الله أن يعطيك لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا أن يصرفوا عنك شيئا أراد الله أن يصيبك به لم يقدروا على ذلك، فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا، واعلم أن القلم قد جرى بما هو كائن » .

لقد كان ﷺ كما وصفه ربه عز وجل بقوله : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨] ، فمن شفقته ورحمته ﷺ بأمته إرشادهم إلى الخير ، ولما ينفعهم ، صغيرهم وكبيرهم .

ففي هذا الحديث يرشد ﷺ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ويعلمه على صغر سنه ، فقد كان ﷺ دومًا في حالة تعليم وإرشاد ، وتذكير وموعظة للرجال والنساء ، والصغير والكبير .

وهذا الحديث العظيم يتضمن وصايا نافعة ، وقواعد جامعة من أصول الدين ، وصى بها رسول الله ﷺ ابن عمه ، وهي لجميع الأمة .

فقوله ﷺ : « احفظ الله » أي احفظ أوامر الله بامتثالها ، واحفظ النواهي باجتنابها ، واحفظ حدوده ، فلا تتجاوزها ، واحفظ حقوقه بالقيام بها على الوجه المطلوب شرعًا ، وأعظم ما يجب حفظه هو الإيمان بالله ربًا ، وبمحمد ﷺ نبيًا ، فلا يشرك مع الله أحدًا ، فلا يذبح لغير الله ، ولا يستعين ولا يستغيث إلا بالله ، ويحفظ حق نبيه ﷺ من محبته وتعظيمه ، ومن أعظم ما يجب حفظه أيضًا أركان الإسلام ، وهي الشهادتان ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله لمن استطاع . وقد جاءت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة بحفظ كثير من أوامر الله جل وعلا ، فمن تلك الأدلة ، يقول الحق تبارك وتعالى :﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٣٢-٣٣]،

وقد فسر العلماء رحمهم الله الحفيظ هنا بالحافظ لأوامر الله ، وبالحافظ لذنوبه ؛ ليتوب منها . وقال سبحانه : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة:٢٣٨] ، وقال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج :٣٤] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى » رواه الترمذي ، وروى الترمذي أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «من وقاه الله ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة» .

وقال الله عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المعارج: ٢٩-٣١] .

وقال عليه الصلاة والسلام كما في حديث معاذ : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » رواه الترمذي.

أما حفظ الله لعبده : فمعناه أن الله سبحانه يحفظ عبده من الزيغ والضلال ، فيحفظ إيمانه من الشبهات والشهوات ، ويتوفاه على دين الإسلام . أخرج ابن حبان في صحيحه من حديث عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ علمه أن يقول : « اللهم احفظني بالإسلام قائمًا ، واحفظني بالإسلام قاعدًا ، واحفظني بالإسلام راقدًا ، ولا تطمع في عدوًا ولا

حاسدًا » . ومن حفظ الله لعبده أن يحفظه في نفسه وبدنه وفي ماله وعرضه ، فإن الجزاء من جنس العمل ، كما قال تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد:٧] .

ومن جملة ما يحفظ الله به عبده حفظه له بواسطة الملائكة ، الذين جعلهم الله لحفظ بني آدم ، كما قال عز وجل : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:١١] ، قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله ، فإذا جاء القدر خلوا عنه .

وقال علي رضي الله عنه : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فإذا جاء المقدر خليا بينه وبينه ، وإن الأجل جنة حصينة .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لم يكن النبي ﷺ يدع هذه الدعوات حين يمسي وحين يصبح : «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي ، واحفظني من بين يدي ، ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي، وأعوذ بك أن أغتال من تحتي» رواه أحمد وأبو داود والنسائي .

وقد يحفظ الله على العبد ذريته بصلاحه بعد موته ، كما قال عز وجل : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف:٨٢] .

وقوله ﷺ : «احفظ الله تجده تجاهك» وفي رواية « أمامك » : قال ابن رجب رحمه الله : « معناه : أن من حفظ حدود الله ، وراعى حقوقه ، وجد الله معه في كل أحواله ، حيث توجه ، يحوطه ويحميه ، وينصره ، ويحفظه ، ويوفقه ، ويسدده ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨] .

قال قتادة : من يتق الله يكن معه ، ومن يكن الله معه ، فمعه الفئة التي لا تغلب ، والحارس الذي لا ينام ، والهادي الذي لا يضل .

وقد كتب بعض السلف إلى أخ له : أما بعد ، فإن كان الله معك ، فمن تخاف ؟ وإن كان عليك ، فمن ترجو؟ .

وهذه المعية الخاصة ، المذكورة في قوله عز وجل لموسى وهارون : ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦] ، وقول موسى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢] ، وقول النبي ﷺ لأبي بكر وهما في الغار : «ما ظنك باثنين الله ثالثهما » رواه البخاري ومسلم . فهذه المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد ، والحفظ والإعانة »اهـ .

وقوله ﷺ : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » : هذا كما في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] ، فإن السؤال لله هو دعاؤه ، والرغبة إليه .

و«الدعاء هو العبادة» ، كذا روي عن النبي ﷺ من حديث النعمان بن بشير ، وتلا قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ ﴾ [غافر:٦٠]، خرجه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة.

فإذا سئل سأل الله ، ولا يسأل غيره، وإذا استعان استعان بالله وحده. قال الله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ ﴾ [النساء:٣٢] ، وعند الترمذي عن ابن مسعود مرفوعًا : « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل » .

وفيه أيضًا عن أبي هريرة مرفوعًا : « من لم يسأل الله يغضب عليه » .

وفي حديث آخر : « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع » رواه الترمذي.

وفي النهي عن مسألة المخلوقين أحاديث كثيرة صحيحة ، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئًا : منهم أبو بكر الصديق ، وأبو ذر، وثوبان ، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته ، فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أن الله عز وجل يقول : « من يدعوني ، فأستجيب له؟ من يسألني ، فأعطيه؟ من يستغفرني ، فأغفر له؟».

واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين ؛ لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار ، ولا يصلح الذل

والافتقار إلا لله وحده؛ لأنه حقيقة العبادة ، وكان الإمام أحمد يدعو ويقول: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك . ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواه . كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ ﴾ [يونس:١٠٧] .

وقوله ﷺ : «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك » : المعنى : أن ما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه ، فكله مقدر عليه ، ولا يصيب العبد إلا ما كتب له من ذلك في الكتاب السابق ، ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعًا .

وقد دل القرآن على مثل هذا في قوله عز وجل : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١] ، وقوله سبحانه : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ ﴾ [الحديد:٢٢] ، وقوله : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ ﴾ [آل عمران:١٥٤] .

وخرج الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « إن لكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه » .

واعلم أن مدار جميع هذه الوصية على هذا الأصل ، وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه ، وراجع إليه ، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر ، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة، علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع ، المعطي المانع ، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل ، وإفراده بالطاعة ، وحفظ حدوده ، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار ، ولهذا ذم الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ، ولا يغني عن عابده شيئًا ، فمن علم أنه لا ينفع ولا يضر ، ولا يعطي ، ولا يمنع غير الله ، أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء ، وتقديم الطاعة على طاعة الخلق جميعًا ، وأن يتقي سخطه ، ولو كان فيه سخط الخلق جميعًا ، وإفراده بالاستعانة به ، والسؤال له ، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء ، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد ، ونسيانه في الرخاء ، ودعاء من يرجون نفعه من دونه ، قال عز وجل : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر:٣٨] .

وقوله ﷺ : « رفعت الأقلام وجفت الصحف » : هو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها ، والفراغ منها من أمد بعيد ، فإن الكتاب إذا فرغ من

كتابته ، ورفعت الأقلام عنه ، وطال عهده ، فقد رفعت عنه الأقلام ، وجفت الأقلام التي كتب بها من مدادها ، وجفت الصحيفة التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها ، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها .

وقد دل الكتاب والسنة الصحيحة الكثيرة على أن المقادير كلها قد كُتبت ، قال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد:٢٢] .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» .

وفيه أيضًا عن جابر قال : « جاء سراقة بن جعشم ، قال : يا رسول الله ، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير ، أم فيما يستقبل ؟ قال : لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، قال : ففيم العمل ؟ قال : اعملوا فكل ميسرٌ » .

وخرج الترمذي وغيره من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : « إن أول ما خلق الله القلم ، ثم قال : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى الأبد » .

اللهم اجعلنا قائمين بأوامرك ، مجتنبين نواهيك ، حافظين لحدودك ، واحفظنا اللهم بحفظك .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

الحديث العاشر

روى البخاري ومسلم عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ».

هذا الحديث الشريف يدل على فضل العلم وطلبه، علم شريعة المصطفى ﷺ الذي هو معرفة أصول الدين، وشرائع الإسلام، والأحكام الشرعية، وكل ما يقرب من الله، ويباعد من سخطه، فشمل ذلك أركان الإسلام، وأركان الإيمان، والإحسان، كما جاء ذلك في الصحيحين في حديث جبريل المشهور، عندما سأل الرسول ﷺ عنها، فأخبره بها، ثم قال: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم».

وهذا الحديث يدل على أن من علامات إرادة الله بعبده الخير؛ أن يجعله فقيهًا في أمور دينه، ولا شك أن الفقه في الدين من أشرف الأعمال وأفضلها، وقد نوه الله بفضل العلماء، وقرن شهادتهم على توحيده، وألوهيته بشهادته وشهادة ملائكته، فقال سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران:١٨]، فبدأ سبحانه بنفسه، وثنى بملائكته، وثلث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفًا

وفضلاً ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١] .

روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال :« للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام » .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨] . وقال عز وجل : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢] ، فإذا حصل للعبد الفقه في الدين حصلت له سعادة الدنيا والآخرة ، ولذلك دعا رسول الله ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، لما رأى عليه مخائل الذكاء والنجابة والمعرفة ، فدعا له ﷺ فقال: «اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل»رواه أحمد . ولهذا الدعاء سبب ، قد جاء ذلك مبينًا في صحيح البخاري رحمه الله عن عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ دخل الخلاء ، فوضعت له وضوءًا ، قال: من وضع هذا؟ فأخبر ، فقال ﷺ : « اللهم فقهه في الدين» رواه البخاري .

فالفقه في الدين هو عنوان سعادة العبد ، وأهم شيء معرفة أصول الدين وما يجوز على الله وما لا يجوز ، ومعرفة أنواع التوحيد ، والعلم بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق المدبر لجميع شؤون خلقه ، ومعرفة توحيد الألوهية ، وأن الله جل وعلا هو المستحق للعبادة بجميع أنواعها ، فلا

يصرف منها شيء لغير الله ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ويدخل في توحيد الربوبية توحيد الأسماء والصفات ، وأن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه نبيه ﷺ أعلم الخلق به ، وأن يقفوا أثر السلف بهذا ، فلا يكيف ، ولا يمثل ، ولا يشبه ، ولا يؤول ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] .

وامر آياتِ الصفات كما أتت   من غير تشبيه ولا أتأول

فيثبت من الأسماء والصفات ما جاء في القرآن الكريم أو في السنة الصحيحة ، وينفي عن الله ما نفاه الله ، أو نفاه عنه رسوله ﷺ ، وما لم يرد ذكره في القرآن أو السنة لا نفيًا ولا إثباتًا نسكت عنه ، ولا نثبته ولا ننفيه ، ولذلك كان من عمق علم السلف رحمهم الله وقوة فقههم أن نهوا عن التعرض لآيات الصفات بالتأويل ، ونهوا عن السؤال عن كيفيتها ، فلا يعلم كيفيتها إلا الله جل جلاله ، كما أنه لا يعلم كيفية ذاته إلا هو سبحانه ، فكذلك لا يعلم كيفية صفاته إلا هو .

ولهذا لما قيل للإمام مالك رحمه الله : يا أبا عبد الله ، ما معنى الاستواء؟ قال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، ولا أظنك إلا مبتدع . فأمر بإخراجه من مجلسه .

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : آمنت بالله ، وبما جاء عن الله، على مراد الله ، وآمنت برسول الله ، وما جاء عن رسول الله ، على مراد

رسول الله .

وقد قال الإمام موفق الدين رحمه الله : وعلى هذا درج السلف وأئمة الخلف رضي الله عنهم ، كلهم متفقون على الإقرار والإمرار والإثبات ؛ لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، من غير تعرض لتأويله، وقد أمرنا بالاقتفاء لآثارهم، والاهتداء بمنارهم ، وحذرنا المحدثات ، وأخبرنا أنها من الضلالات ، فقال النبي ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة» رواه أبو داود.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «اتبعوا ، ولا تبتدعوا فقد كفيتم» .

وقال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله كلامًا معناه : « قف حيث وقف القوم ، فإنهم عن علم وقفوا ، وببصر نافذ كفوا ، وهم على كشفها كانوا أقوى ، وبالفضل لو كان فيها أحرى، فلئن قلتم حدث بعدهم، فما أحدثه إلا من خالف هديهم ، ورغب عن سنتهم، ولقد وصفوا منه ما يشفي ، وتكلموا بما يكفي ، فما فوقهم محسر ، وما دونهم مقصر ، لقد قصر عنهم قوم فجفوا ، وتجاوزهم آخرون فضلوا ، وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم» .

وأما في باب العبادات والمعاملات والفروع الفقهية ، فإنهم كذلك

يعتمدون على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ولا يقدمون عليها قياسًا ولا رأيًا ولا مذهبًا ، بل يدورون مع الدليل ، وكذلك طريقتهم في عبادة ربهم ، فإنهم يسلكون الطريق السوي الذي سنه لهم رسول الله ﷺ ، ولا يأتون بعبادةٍ من قبل أنفسهم ، فهم في سيرهم إلى ربهم وسلوكهم مقتفون سيرة أصحاب النبي ﷺ والتابعين لهم بإحسان . فهذه طريقة الذين فقههم الله في الدين ، وأراد الله بهم ولهم الخير .

ومفهوم هذا الحديث أن من لم يرد الله به خيرًا لم يفقهه في الدين ، فسلك سبيل المنحرفين ، وأعرض عن كتاب رب العالمين ، وأخذ بأقوال الرجال واعتمدها ، ولو قيل له : هذه الآيات القرآنية ، وهذه الأحاديث الثابتة النبوية ، قال : هذه لا نفهمها ، ولا يفهمها إلا العلماء السابقون ، وجمد على ما وجد عليه مشايخه ، وما علم أن هؤلاء المشايخ مثابون باجتهادهم ، ولهم على إصابتهم الحق أجران ، وعلى خطئهم مع الاجتهاد أجر ، وأما من قلدهم ، وأخذ أقوالهم جميعها قضية مسلمة ، ولو تبين له الدليل لم يعبأ به ، ولم يأخذ به نظرًا إلى أنه لم يقل به إمامه فهذا على خطر في دينه أن يدع العمل بالدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ الثابتة لقول مجتهد خفي عليه الدليل ، مع أن إمامه رحمه الله لو ظهر له الصواب لم يعدل عنه ، والأئمة رحمهم الله لم يحيطوا بجميع أحكام الشريعة، وكل منهم يأمر متبوعه أنه إذا تبين لهم الدليل ، وجب عليهم ترك قوله ، والأخذ بالدليل ،

وهذا من فقههم ، وعلمهم ، وورعهم رحمهم الله ، وفوق كل ذي علم عليم .

ولقد وردت الأحاديث والآثار الكثيرة في فضل من تفقه في دين الله ، فكان عالمًا بهذا الدين ، عاملاً به ، كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، الذي رواه ابن حبان وأهل السنن ما عدا النسائي ، أن رسول الله ﷺ قال : «العلماء ورثة الأنبياء» ، فإذا كانت رتبة الأنبياء هي أعلا الرتب وأشرفها ، فقد ورثها العلماء ، فكانوا أشرف الناس ، وأعلاهم منزلة ، والمراد بهم العلماء العاملون ، المتبعون لسنة نبيهم ﷺ ، والمهتدون بهديه ، المقتدون به ، وفي حديث أبي الدرداء : إن العالم يستغفر له كل شيء ، حتى الحيتان في البحر . فهذا فيه فضل عظيم ، وثواب جسيم ؛ ولأن من جملة المستغفرين له ملائكة الرحمة . قال بعض العلماء : العالم مشغول بنفسه ، وبعلمه ، والملائكة تدعو له ، وتستغفر له .

وروى ابن عبد البر من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه بسند ضعيف مرفوعًا قال : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء» .

وروى الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ».

وروي عنه ﷺ : « ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شيء عماد ، وعماد هذا

الدين الفقه » .

قال ابن القيم رحمه الله في معنى هذا الحديث في كتابه مفتاح دار السعادة : « وذلك أن الشيطان يضع البدعة ، فيبصرها العالم ، وينهى عنها ، والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها، ولا يعرفها .

فالعالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه ، ويهدم ما يبنيه ، فكل ما أراد إحياء بدعة ، وإماتة سنة ، حال العالم بينه وبين ذلك ، فلا شيء أشد عليه من بقاء العالم بين ظهراني الأمة ، ولا شيء أحب إليه من زواله من بين أظهرهم ؛ ليتمكن من إفساد الدين ، وإغواء الأمة. وأما العابد فغايته أن يجاهده ؛ ليسلم منه في خاصة نفسه ، وهيهات له ذلك» .

وقد روي عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال : « العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة ، لا يسدها إلا خلف منه» .

وقال أيضًا رضي الله عنه في الحديث الطويل المشهور في فضل العلم الذي رواه كميل بن زياد عنه كما ذكره أبو نعيم وغيره ، قال كميل رضي الله عنه : « أخذ بيدي علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأخرجني ناحية الجبانة ، فلما أصحر جعل يتنفس ، ثم قال يا كميل بن زياد : القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، احفظ عني ما أقول لك : الناس ثلاثة : عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح،

لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال، العلم يزكوا على الإنفاق - وفي رواية على العمل -والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم ، والمال محكوم عليه ، ومحبة العلم دين يدان بها العالم ، يكسب العالم الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، وصنيعة المال تزول بزواله، مات خزان الأموال ، وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقوده ، وأمثالهم في القلوب موجودة ، هاه هاه إن ههنا علما - وأشار إلى صدره - لو أصبت له حمله ، بل أصبنه لقنا غير مأمون عليه ، يستعمل آلة الدين للدنيا ، يستظهر حجج الله على كتابه ، وبنعمه على عباده ، أو منقادًا لأهل الحق ، لا بصيرة له في إحيائه ، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة ، لا ذا ولا ذاك ، أو منهومًا للذات، سلس القياد للشهوات، أو مغرى بجمع الأموال والادخار ليسا من دعاة الدين ، أقرب شبهًا بهم الأنعام السائمة، لذلك يموت العلم بموت حامليه . اللهم بك لن تخلوا الأرض من قائم لله عند الله قبلا بهم ، يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش الأعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه ، ودعاته إلى دينه ، هاه هاه » .

قال أبو بكر الخطيب : هذا حديث حسن ، من أحسن الأحاديث معنى ، وأشرفها لفظًا ، وتقسيم أمير المؤمنين للناس في أوله تقسيم بديع في

غاية البيان ، ونهاية السواد ؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام الثلاثة التي ذكرها ، مع كمال العقل ، وإزالة العلل، إما عالم، أو متعلم، أو مُغْفلاً للعلم وطلبه ، ليس بعالم ، ولا طالب للعلم ، فالأول هو الناجي ، والثاني على طريق النجاة ، والثالث من الهمج الرعاع أتباع كل ناعق .

سئل ابن المبارك رحمه الله : من الناس؟ قال : العلماء . قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين .

قال بعض العلماء : ولم يجعل غير العالم من الناس ؛ لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن البهائم هو العلم ، فإن الإنسان إنما شرف بالعلم ، وصار إنسانًا بسببه ، ومن أجله ، وليس ذلك لأجل قوة شخصه ، فإن الجمل أقوى منه ، ولا بعظمه ، فإن الفيل أعظم منه ولا بشجاعته ، فإن السبع أشجع منه ، ولا بأكله ، فإن الثور أوسع بطنًا منه ، ولا بقدرته على الجماع ، فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه ، بل لم يخلق إلا للعلم ؛ لأنه خلق لعبادة الله ، وكيف يعرف العبادة إلا بالعلم .

وقال بعض العلماء : «ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم ، وأي شيء فاته من أدرك العلم» .

قال الحسن البصري : «يوزن مداد العلماء بدم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء» .

وقال الإمام أحمد : «تذاكر بعض ليلة في العلم أحب من إحيائها بالصلاة» ، وروي هذا أيضًا عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم .

وروي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في فضل العلم وأهله :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

ففز بعلم تعش حيًا به أبدًا الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود : «ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك» .

وروي عن النبي ﷺ في حديث رواه ابن عبد البر في فضل العلم بسند ضعيف عن أنس رضي الله عنه قال : « قيل : يا رسول الله : أي العمل أفضل؟ فقال : العلم بالله عز وجل ، فقيل : أي العلم تريد ؟ قال ﷺ : العلم بالله ، إنَّ قليل العمل ينفع مع العلم ، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله » .

فالعلم النافع هو الذي يدفع بصاحبه للعمل ، والخشية من الله ، والتواضع لعباد الله ؛ لأن الله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨] ، فالذي فقدت منه الخشية لم ينتفع بعلمه ، وإذا لم ينتفع بعلمه كيف ينفع غيره ، ولكن إذا رزق العبد علمًا وعملاً ودعوة إلى

الله ، فهذا هو الذي نفعه علمه ، وأدى حق الله عليه ، وتضاعف لـه الأجـر بحسب قيامه بالدعوة إلى الله ونفع الناس .

ولذا جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه : « لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خـير لـك من حمر النعم» .

فهذا الحديث يدل على فضل العلم والتعلـيم ، وشرف منزلـة أهلـه ، بحيث إذا اهتدى رجل واحد بالعالم كان ذلك خيرًا له من حمر النعم ، وهي خيارها ، وأشرفها عند أهلها ، فما الظن بمن يهتدي به كل يوم طوائـف مـن الناس .

وجاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعـه لا يـنقص ذلك من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثـل آثـام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا» .

فهذا إخبار من رسول الله ﷺ أن المتسبب إلى الهدى بدعوتـه لـه مثـل أجر من اتبعه واهتدى بسببه ، والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثـل إثـم من ضل بسببه ؛ لأن هذا بذل قدرته في هداية الناس ، وهذا بـذل قدرتـه في إضلالهم ، فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه حكمة فهو يقضي بها ويعلمها» .

قال ابن القيم رحمه الله على قوله ﷺ : « إن العلماء ورثة الأنبياء» :

هذا من أعظم المناقب لأهل العلم ، فإن الأنبياء خير خلق الله فورثتهم خير الخلق بعدهم ، ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته ، إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده ، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به ، إلا العلماء كانوا أحق بميراثهم ، وفي هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم ، فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث، وهذا كما أنه ثابت في ميراث الدينار والدرهم، فكذلك هو في ميراث النبوة، والله يختص برحمته من يشاء.

وفيه إرشاد وأمر للأمة بطاعتهم ، واحترامهم، وتعزيرهم ، وتوقيرهم ، وإجلالهم ، فإنهم ورثة من هذه بعض حقوقهم على الأمة وخلفاؤهم فيهم .

وفيه التنبيه على أن محبتهم من الدين ، وبغضهم مناف للدين ، كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : محبة العلماء دين يدان به ، وقال ﷺ كما في الحديث القدسي فيما يرويه عن ربه : «من عادى لي وليًا ، فقد بارزني بالمحاربة» رواه البخاري . وورثة الأنبياء سادات الأولياء.

وفيه التنبيه للعلماء على سلوك طريقة النبي ﷺ في التبليغ ، والصبر، والاحتمال، ومقابلة الإساءة بالإحسان والرفق ، واستجلاب الناس إلى الله بالتي هي أحسن ، وبذل غاية النصح لهم ، والشفقة عليهم ، فإن هذه هي طريقة المرسلين ، وكلما كثرت في العالم الصفات الحميدة ، كان أكثر ميراثًا من غيره ، فالميراث ليس خاصًا بالعلم فقط ، بل هو بالعلم ، والعمل ، والدعوة ، والتخلق بأخلاقهم ، والله الموفق لمن شاء من عباده » انتهى بتصرف من مفتاح دار السعادة .

اللهم وفقنا لهدي نبيك الكريم يا حي يا قيوم .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الحادي عشر

روى الترمذي -واللفظ له- وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

« **من ضار ، ضار الله به ، ومن شاق ، شاق الله عليه** » .

هذا الحديث الشريف أصل عظيم ، وقاعدة من قواعد الشريعة يدل على أن الجزاء من جنس العمل ، إن خيرًا فخير، وإن ضرًا فضر . وهذا يدل على حكمة الله ، وهي ما دل عليه اسمه الحكيم ، فإنه سبحانه حكيم في أسمائه ، حكيم في صفاته ، حكيم في أفعاله ، فإذا عمل إنسان مضارة مع غيره ، فإن حكمة الله تقتضي أن يعامل بمثل ما عمل ، كما أن عدله سبحانه يقتضي ذلك ، وكذلك من عمل ما يحبه الله ويرضاه ، فإن حكمة الله وعدله يقتضيان حصول المحبة له ، جزاء وفاقًا .

واعلم أن الضرر والمضارة منهي عنها شرعًا ، كما قال المصطفى ﷺ «لا ضرر ولا ضرار» رواه ابن ماجة ، ومن هذا الحديث قعَّد العلماء القاعدة الفقهية المعروفة (الضرر يزال) .

قال بعض العلماء : وقد دلت الشواهد الكثيرة في الكتاب والسنة على ما دل عليه هذا الحديث ، يقول الله سبحانه في جزاء من يبغي على غيره :

﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣] ، فعاقبة بغي الباغي يرجع عليه ، ولذلك يقول بعض العلماء : أربع ترجع على فاعلها ، فذكر منها البغي ، واستدل بهذه الآية الشريفة ، ومنها المكر ، لقوله تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠] ، ومنها الخداع لقوله تعالى : ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢] ، ومنها النكث ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح:١٠] .

فعليك أيها المسلم أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ؛ ليسلم لك دينك وعرضك ، ويحصل لك من الله الأجر والثواب ، فإذا أحسنت إلى عباد الله ، أحسن الله إليك ، كما أنك إذا أسأت إليهم ، فلابد أن تنال جزاء إساءتك عاجلاً أو آجلاً ، ولذلك أوجب الله على الولد البر والإحسان إلى الوالدين جزاء لفعلهما ، فإنهما قد أحسنا إليه في حال الصغر ، فناسب الإحسان إليهما جزاء على سابق إحسانهما، وقد قال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣] ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠] ، فإذا أحسن المرء عامله الله بالإحسان ، وإذا أساء حصل له جزاء إساءته ، والناس أيضًا يحبون من أحسن إليهم غالبًا، ويحترمونه ولا يسيئون إليه ، كما قيل في ذلك:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ‌‌ ‌ فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

وإلحاق الضرر بالآخرين بأي وجه من أنواع الضرر اللاحق لغير

مستحقه ، لا يجوز ، ولا يحل لأي إنسان أن يفعله ، أو يتسبب به ، بل يجب كف ضرره ، ومنعه عنهم ، ولذا قال ﷺ «كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وماله وعرضه» رواه مسلم .

ويلتحق بإدخال الضرر المنهي عنه ما يحصل في المعاملات من الغش، والتدليس، والكذب ، والمكر ، والخداع ، والنجش، وغير ذلك .

ومن ذلك الإضرار بالوصية بعد الموت ، كأن يوصي للذكور دون الإناث ، أو بالعكس ، أو أن يخص أحد الورثة دون أحد ، أو أحد الأولاد دون أحد ؛ لقوله تعالى : ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ ﴾ [النساء:١١] .

ويدخل بالإضرار المنهي عنه مضارة أحد الزوجين لصاحبه ، كأن يعضل الزوج زوجته ؛ لتفتدي منه ، أو أن يطلقها ، ويراجعها ، ثم يطلقها ، ويراجعها لقصد الإضرار بها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ ﴾ [الطلاق:٦] ، أو يميل إلى إحدى زوجاته ، ويجعل غيرها كالمعلقة، وكذلك عضل الولي لموليته ، كأن يمنعها من التزوج بكفئها ، إما لغرض مادي ، أو لقصد إدخال الضرر عليها ، ومن ذلك إدخال الضرر على المسلم في الحكم الجائر ، أو شهادة الزور ، أو الجور في القسمة على أحد الشريكين، فكل هذا من المضارة التي توعد الله من فعلها بأن يضار به .

ويدخل في ذلك ما هو أشد من ذلك كله ، كإطالة الرجل في عرض

أخيه المسلم ، أو الوقيعة فيه، فإن هذا من البغي الذي قد يعجل الله عقوبته؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ [يونس:٢٣]، ويدخل في ذلك أيضًا منع الخير عن الآخرين حسدًا لهم ، وتفويتًا لمصالحهم ، فإن هذا من إيقاع الضرر عليهم ، والشريعة جاءت لجلب المصالح ودفع المفاسد عنهم .

ويدل الحديث بمفهومه على أن من ترك ذلك خوفًا من الله أنه يثاب عليه، وأما من سعى في إزالة الضرر عن غيره ، فإن الله سبحانه يجلب له الخير، ويعامله بالإحسان والرفق ، ويشهد لذلك قوله ﷺ : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا ، فشق عليهم ، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا، فرفق بهم ، فارفق به » .

ومن هنا يتبين لك شدة النهي عن إدخال الضرر على أحد من المسلمين، سواء بطريق مباشر ، أو غير مباشر ، وأن فاعل ذلك يترقب وقوع العقوبة عليه من الله عاجلاً وآجلاً ، فعلى الناصح لنفسه أن يجعل هذا الحديث نصب عينيه ، ويراقب ربه ويخشى من سطوته وعقابه ، ويحرص على إيصال الخير للمسلمين بكل ممكن ، سواء من يعرف ، ومن لم يعرف ، وسواء صديقه أو عدوه ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت:٣٤] .

ومما يجدر التنبيه عليه أن المضارة المنهي عنها هي ما كان بغير وجه

حق ، أما ما يوقع على الظلمة والجناة من القصاص والتعزير والحدود ، ونحو ذلك ، فليس داخلاً في هذا المعنى ؛ لأن العقوبة الواقعة على فرد هي مصلحة ونفع للأمة كافة ، كما قال سبحانه ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٩] ، وهي نفع ومصلحة له تزجره عن المعصية وتكفر ذنبه .

اللهم وفقنا لما تحب وترضى ، وجنبنا اللهم أسباب سخطك وعقوبتك . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الثاني عشر

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ بعثه ومعاذًا إلى اليمن ، فقال :

« **يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا** » .

هذه وصية عظيمة ، جامعة لخيري الدنيا والآخرة، لقد جمعت هذه الجمل الثلاث كل خير من أسباب النجاح والفلاح في أمر الدين والدنيا ، فإن تيسير الأعمال وتهوينها ، والرفق بأصحابها ، واللين والتسامح معهم ، ودعوتهم بما يناسب أحوالهم هو أدعى لحصول الإجابة والانقياد ، وهذا من الحكمة التي أرشد إليها القرآن ، كما في قوله عز وجل : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:٩٠] ، سيما إذا انضم إلى ذلك التبشير بفائدة العمل ، وثمراته المنتظرة في العاجل والآجل ، ونفعه الحاضر والمنتظر .

وأما سلوك طريق التعسير ، والتنفير ، فإنه من أعظم أسباب الرد ، والصد عن الخير وأهله . ولو فكر الإنسان في نفسه وما يطلبه منها من أعمال الدين والدنيا لوجد أنها لا تطاوعه إلى كل ما يريد ، فكم يعزم المرء

على فعل عمل ديني أو دنيوي مما مصلحته ظاهرة ، ثم يحول دون فعله بعض الأمور مما للنفس فيه نصيب ، إما الإخلاد إلى الدعة والراحة ، وإما الخوف من فوات بعض الأشياء المحببة للنفس ، فإذا كان هذا يحصل بينك وبين نفسك ، فكيف تطالب غيرك بأن يكون على وتيرة واحدة في كل أموره معك ، لا يضعف ، ولا يكسل ، ولا يغفل ، فإن هذا من التعسير في الأمور ، وعدم التيسير ، كما قيل :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلاً أن تعد معائبه

وكما قيل :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه   على شعث أي الرجال المهذب

فينبغي الإغضاء والتسامح في بعض الأمور ؛ لترتاح في نفسك ، ويرتاح صديقك ، وزميلك ، ومعاشرك :

خذ من الدنيا الذي درت به   واسل عما بان منها وانقطع

وإنك لو تأملت شرائع الدين التي أوجبها رب العالمين الذي حقه هو أعظم الحقوق ، وطاعته أوجب الطاعات ؛ لوجدتها مبنية على التيسير ورفع الحرج ، كما قال جل وعلا : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨] ، وقال سبحانه : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال جل شأنه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]

وكان من قواعد الشريعة أن المشقة تجلب التيسير .

ومن أعظم الأدلة على هذا الصلاة ، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام ، دخلها التيسير في الكمية والكيفية ، والتوقيت ، فالصلاة شرعت في الحضر أربع ركعات في غير المغرب والفجر ، ولكنها في السفر ركعتين تسهيلاً وتيسيرًا على العباد ؛ لما كان السفر في الغالب مظنة المشقة والحرج ، وكذلك جاز الجمع للعذر في السفر ، وفي المطر ، وعفي عن الحضور للجماعة في حال المطر والوحل ، وفي حال الخوف أباح الله جل وعلا الصلاة رجالاً أو ركبانًا .

وتأمل هديه ﷺ في مراعاته لأحوال الناس والمصلين معه ، حيث يقول عليه الصلاة والسلام : « إني لأدخل في الصلاة ، فأريد إطالتها ، فأسمع بكاء الصبي ، فأتجوز مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه » رواه البخاري -واللفظ له- ومسلم .

وانظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « أيها الناس إن منكم منفرون، فمن صلى بالناس فليخفف ، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة » رواه البخاري .

وقال لإمام أمره بأحكام الصلاة ، حتى قال : « واقتد بأضعفهم » رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة.

وقال أنس رضي الله عنه : « ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ، ولا أتم صلاة من النبي ﷺ » رواه البخاري ومسلم.

فتخفيف الصلاة مع إتمامها من أعظم الأسباب لترغيب الناس في صلاة الجماعة ، والتبكير لها والمبادرة إليها .

وقال ﷺ : « إن طول صلاة الرجل ، وقصر خطبته مئنة من فقهه ، فأطيلوا الصلاة ، وأقصروا الخطبة » رواه مسلم .

ففي الحديث أن إطالة الصلاة من غير مشقة على الناس ، وتقصير الخطبة دليل على الفقه ، ولذا كان من هديه ﷺ أنه يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السآمة والملل .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « دخل أعرابي المسجد والنبي ﷺ جالس فصلى ، فلما فرغ قال : اللهم ارحمني ومحمدًا ، ولا ترحم معنا أحدًا ، فالتفت إليه النبي ﷺ فقال : لقد تحجرت واسعًا ، فلم يلبث أن بال في المسجد ، فأسرع إليه الناس ، فقال النبي ﷺ : أهريقوا عليه سجلاً من ماء ، أو دلوًا من ماء ، ثم قال : إنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » رواه الترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وقال لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » رواه مسلم .

وكان عليه الصلاة والسلام يحث على الحياء ويقول : «والحياء شعبة من الإيمان » رواه البخاري ومسلم . ومن المعلوم أن الحياء يحمل صاحبه على فعل ما يزينه ، ويمنعه من فعل ما يشينه ، وإذا اتصف الإنسان بفعل ما يستحسن ، واجتناب ما يستقبح ، كان محبوبًا عند الله ، وعند عباد الله ، ولذلك كان أكمل الناس خلقًا هو محمد ﷺ ، وقد وصفه ربه جل وعلا بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] ، ويظهر ذلك جليًا في فعله ﷺ مع أهله وأصحابه ، بل قد كان في دعوته للمشركين والكفار داعيًا إلى الله بالتي هي أحسن برفق ولين، وبما يناسب ، ويتلاءم مع حال المدعو ، وبالطريق التي يعلم أنها أقرب إلى حصول المقصود من غيرها ، وكان يأمر أصحابه بذلك يأمرهم أن يدعوا الناس بالطريقة المثلى .

وفي نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ما يدل على ذلك ، ويأمر به ، انظر إلى قوله تعالى مخاطبًا موسى وهارون عليهما السلام : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٣-٤٤]، بين الحكمة في إلانة القول له، وأنه أقرب إلى الانقياد والقبول، وفهم ما يلقى عليه من الترغيب والتهديد .

وتأمل قولــه تعالى : ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت:٤٦] ، قال بعض العلماء : إن هذه الآية باقية ، محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين ، فيجادل بالتي هي أحسن ؛ ليكون أنجع

فيه ، كما قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥] .

ثم إن الإسلام على محبته للسلام ، وأمره بالدعوة بالتي هي أحسن ، وتقديمها على غيرها ، لكنه لا يقف مكتوف الأيدي ، وليس فيه خور وضعف ، ولم يصدر ذلك اللين والعطف والكلام الحسن والرفق في الأمور عن ضعف عزيمة ، ولا عن خور وجبن ، وإنما نشأ عن حكمة ، فإذا جابهه معاند مكابر بعد اتضاح الحق له ، ولم ينفع فيه اللين ، فليس لهذا الظالم سوى مقابلته بما يستحق من الشدة والقوة ، بحسب ما تقتضيه الحال، ويحتمه الموقف ، فلذلك قال عز وجل في نفس الآية : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت:٤٦] ، أي إلا من تبين عناده ، وحاد عن وجه الحق ، ولم ينقد للصواب، وعمي عن واضح المحجة ، وكابر، فحينئذ ينتقل معه من الجدال إلى الجلاد، ويقاتل بما يمنعه ، ويردعه إلى أن يثوب إلى رشده ، ويقلع عن غيه ، أو يعترف بالحق ، ولا يكابر ، ويلتزم الذلة والصغار ، ويبذل الجزية : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩] .

إذا عرفت هذا تبين لك أيها المسلم كيف كانت دعوته ﷺ ، وكيف كانت معاملته، وكيف كانت توجيهاته ﷺ لأصحابه ، متبعًا أوامر القرآن ،

ومتخلقًا بخلقه ، يعامل كلا بما يناسبه . ومما يدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر » رواه أحمد ، فأمر أن يكتفى بأمرهم من حين التمييز لمدة ثلاث سنوات ، ثم إذا بلغ عشر سنين انتقل معه إلى التأديب بالضرب المناسب لحالته ، ضربًا غير مبرح ، ليعتاد ، ويتمرن على أداء هذه العبادة ، التي هي أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، ويعرف مكانتها ، ويسهل عليه أداؤها إذا بلغ وكبر.

وكذلك أيضًا ينبغي تلقينهم من العلوم الشرعية بحسب ما تقبله نفوسهم ، ويسهل فهمه عليهم ، ولا يحمل أذهانهم ما لا تتحمله من المسائل الصعبة ، التي تكل أذهانهم عن فهمها وحفظها ، ومن في مستوى الصغار يعامل معاملتهم من العوام ، والجهال الذين لم يكن عندهم سابق علم ، فكل هذا داخل في قوله عليه الصلاة والسلام : « يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا» .

اللهم اهدنا صراطك المستقيم ، وهدي نبيك القويم . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

الحديث الثالث عشر

روى مسلم في صحيحه عن أبي عمرو سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال :

« قلت : يا رسول الله ؛ قل لي في الإسلام قولاً ، لا أسأل عنه أحدًا بعدك ، قال : قل آمنت بالله ثم استقم » .

هذا الحديث من جوامع الكلم التي أوتيها النبي ﷺ ، فإنه إذا حصل للمرء الإيمان فقد حصل له الخير كله ، وإذا حصلت له الاستقامة على ذلك فقد حصل الفوز في أمر معاشه ومعاده .

وانظر إلى مدى حرص الصحابة رضي الله عنهم على ما ينفعهم في أمور دينهم ، وتحريهم إلى أن تكون أعمالهم فيما يحبه الله ويرضاه ، وعلى اتباع ما يرسمه لهم نبيهم الكريم ﷺ ، فهذا السائل قد سأل النبي ﷺ أن يرشده إلى كلام جامع نافع ينتفع به ، ويتمسك به ، وتقر عينه ، ويطمأن به قلبه ، فلا يسأل بعد رسول الله أحدًا في ذلك ، فأرشده ﷺ إلى كلام جامع مختصر، وجيز لفظه ، غزير معناه ، قال له : « قل آمنت بالله ، ثم استقم » .

سبحان الله ما أجمع هذه الجملة ، وما أكثر ما احتوت عليه من المعنى، لقد صدق النبي الكريم ﷺفي قوله : « بعثت بجوامع الكلم» رواه البخاري

-واللفظ له- ومسلم ، كما صدق في كل شيء ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، فالنبي ﷺ رسم لهذا السائل الطريق الواضح الموصل إلى الله ، وإلى الدار الآخرة ، فأمره بالإيمان المشتمل على الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والإيمان بالقضاء والقدر ، وما يتبع ذلك من أعمال القلوب، كالرغبة في الخير ، والرهبة من الشر ، وإرادة الخير ، وكراهية الشر ، والانقياد لله ، والاستسلام له سبحانه .

وقد دلت نصوص القرآن والسنة على أنه يدخل في الإيمان الأعمال الصالحة ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد والإحسان إلى الناس ، وكثرة التعبد ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ ﴾ [البقرة:١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، قبل تحويل القبلة إلى الكعبة، كما في صحيح البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : « مات على القبلة قبل أن تحول رجال قتلوا ، فلم ندر ما نقول فيهم ، فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ ﴾».

وقد قال الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه في كتاب الإيمان : وهو قول وفعل ، يزيد وينقص ، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْۗ ﴾ [الفتح:٤] ، ﴿ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف:١٣] ، ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ ﴾ [مريم:٧٦] ، ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد:١٧] ، ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًاۙ ﴾ [البقرة:٣١] ،

وقوله: ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [التوبة:١٢٤]، وقوله جل ذكره:﴿ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [آل عمران:١٧٣] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٢٢] ، والحب في الله والبغض في الله من الإيمان .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي : « إن للإيمان فرائض، وشرائع ، وحدودًا ، وسننًا ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص» .

وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة:٢٦٠] .

وقال معاذ رضي الله عنه : « اجلس بنا نؤمن ساعة » .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « اليقين الإيمان كله » .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : « لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر» .

وقال مجاهد : (شرع لكم) : أي وصاك يا محمد وأنبياءه دينًا واحدًا .

وفي صحيح مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» .

وقد ورد في هذا المعنى عدة آيات ، ومن أوضحها قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥] . وقد استدل بهذه الآية الإمام الشافعي والإمام أحمد وغيرهما من العلماء على أن الأعمال تدخل في الإيمان.

وقوله ﷺ في هذا الحديث : « قل آمنت بالله ثم استقم» : أمره بالاستقامة على الإيمان .

وقد مدح الله عز وجل المستقيمين على إيمانهم ، وأثنى عليهم في عدة آيات من كتابه ، يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأحقاف:١٣-١٤]، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت:٣٠-٣١] .

وقد روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ قال : قد قال الناس ، ثم كفر أكثرهم ، فمن مات عليها فهو ممن استقام » .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه: « استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا » .

وروي عن بعض الصحابة رضي الله عنه : « إن الاستقامة أداء الفرائض».

وعن بعضهم : « إن الاستقامة المداومة على الطاعة» .

وعن بعضهم : « إن الاستقامة هو التوحيد » .

يعني التوحيد الكامل الذي يحرم صاحبه على النار ، وهو تحقيق معنى لا إله إلا الله ، فإن الإله هو المعبود الذي يطاع ، فلا يعصى ، خشية ، وإجلالاً ، ومهابة ، ومحبة ، ورجاء، وتوكلاً . والمعاصي قادحة في التوحيد ؛ لأنها إجابة لداعي الهوى . قال الله عز وجل : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية:٢٣] . قال الحسن على هذه الآية : « هو الهوى الذي لا يهوى صاحبه شيئًا إلا ارتكبه ، فهذا ينافي الاستقامة على التوحيد » .

ولأهمية الاستقامة ، وشدة العناية بها، وعظم مكانتها أمر الله نبيه بها، فقال عز وجل : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود:١١٢] ، فأمره أن يستقيم ومن تاب معه ، وأن لا يجاوزوا ما أمروا به ، وهو الطغيان ، وأخبر أنه بصير بأعمالكم مطلع عليها. وقال عز وجل:﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾

[فصلت:١٥] .

قال قتادة : أمر محمد ﷺ أن يستقيم على أمر الله .

وقال الثوري : على القرآن .

وعن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية ، شمر رسول الله ﷺ ، فما رؤي ضاحكًا .

وذكر القشيري عن بعضهم : أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال له : يا رسول الله ، قُلتَ : شيبتني هود وأخواتها ، فما شيبك فيها ؟ قال : قوله : ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ ، وقد قال عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت:٦].

قال ابن رجب رحمه الله :

(الاستقامة في سلوك الصراط المستقيم ، وهو الدين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة ، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة ، وترك المنهيات كلها ، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها ، وفي قوله عز وجل : ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت:٦] ، إشارة إلى أنه لا بد من تقصير ، مهما اجتهد المرء في الاستقامة المأمور بها ، فيجبر ذلك الاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة ، فهو نظير

قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ رضي الله عنه : «اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها » رواه أحمد والترمذي .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «سددوا وقاربوا » ، فالسداد هو حقيقة الاستقامة ، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد ، كالذي يرمي إلى غرض ، فيصيبه .

فأصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد ، فمتى استقام القلب على طاعة الله ، ومعرفته ، وخشيته ، وإجلاله ، ومهابته ، ومحبته ، ورجائه ، ودعائه ، والتوكل عليه ، والإعراض عما سواه ، استقامت الجوارح كلها طاعة لله ، فإن القلب هو ملك الأعضاء ، وهي جنوده ، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه .

وأعظم ما يراعى في الاستقامة بعد القلب اللسان ، فإن اللسان هو ترجمان القلب والمعبر عنه ، ولهذا لما أمر النبي ﷺ معاذًا بالاستقامة وصاه بعد ذلك بحفظ لسانه ، كما روي في مسند أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » .

وروى أحمد والترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان ، فتقول : اتق الله فينا فإنما نحن بك ، فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا») .

انتهى كلام ابن رجب بتصرف .

اللهم ارزقنا الاستقامة وجنبنا أسباب الحسرة والندامة . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين برحمتك يا أرحم الراحمين .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الرابع عشر

روى الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ :

« اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

هذا الحديث من أعظم وصاياه ﷺ ، بين فيه الحقوق الواجبة لله تعالى، والحقوق الواجبة للخلق ، فمن أعظم حقوق الله سبحانه وتعالى على عباده هي تقواه سبحانه ، فتقواه جل وعلا هي وصيته للأولين والآخرين ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:١٣١] ، ويقول الله عز وجل لعباده المؤمنين : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩] ، ﴿ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة:١٦٧] ، وكثيرًا ما كان ﷺ يحث على التقوى ، ويأمر بها ، فكان يأمر بها في المواعظ والخطب ، ويوصي بها أصحابه ، ويذاكرهم بها ، ويوصي من أراد السفر بها ، وقد أوصى ﷺ أبا ذر بها ، فقال له : « أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته، وإذا أسأت فأحسن ، ولا تسألن أحدًا عن شيء ، وإن سقط سوطك ، ولا تقبض

أمانة، ولا تقض بين اثنين » رواه أحمد .

وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية ، تقيه منه . وحقيقة تقوى الله أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية ، تقيه ذلك ، وهذه الوقاية هي امتثال المأمور ، واجتناب المحظور ، فيفعل ما أمره الله به من طاعته ، ويجتنب ما نهاه عنه من معصيته .

وليعلم العبد أن الله سبحانه وتعالى بيده النفع والضر، وأنه أهل أن يتقى ويخشى، وأهل سبحانه أن ترجى مغفرته وعفوه ، كما قال عز وجل ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر:٥٦] ، فهو أهل أن يخشى، ويهاب ، ويجل ، ويعظم في صدور عباده حتى يعبدوه ، ويطيعوه لما يستحقه من الإجلال ، وصفات الكبرياء ، والعظمة .

جاء في الترمذي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال في هذه الآية : ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ قال تعالى : « أنا أهل أن أتقى ، فمن اتقاني ، فلم يجعل معي إلهًا ، فأنا أهل أن أغفر له » .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٠٢] قال : « أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر » ومعنى يذكر فلا ينسى : ذكر العبد ربه بقلبه ولسانه ، ويستحضر أوامر الله فيمتثلها ، ونواهيه فيجتنبها .

وقال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، تخاف عقاب الله.

ولما سئل أبو هريرة رضي الله عنه عن التقوى ، قال : هل أخذت طريقًا ذا شوك ؟ قال : نعم ، قال : فكيف صنعت ؟ قال : إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته ، أو قصرت عنه ، قال : ذاك التقوى.

ونظم بعضهم هذا المعنى فقال :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

ولما كانت منزلة التقوى منزلة رفيعة ، وعليها مدار الأمر، كانت هي وصية الله للأولين والآخرين ، كما قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:١٣١] ، وكثيرًا ما كان ﷺ يوصي بها أصحابه ، وعلى هذا جرى الصحابة رضي الله عنهم وسلف الأمة رحمهم الله .

فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب لابنه عبد الله : « أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل ، فإنه من اتقاه وقاه ، ومن أقرضه جزاه ، ومن شكره زاده ، واجعل التقوى نصب عينيك ، وجلاء

قلبك» .

وأوصى علي رضي الله عنه رجلاً فقال : « أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا بد لك من لقائه ، ولا منتهى لك دونه ، وهو يملك الدنيا والآخرة».

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : « أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يقبل غيرها ، ولا يرحم إلا أهلها ، ولا يثيب إلا عليها ، فإن الواعظين بها كثير ، والعاملين بها قليل» .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » هذا كقوله عز وجل : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود:١١٤] ، فالنبي الكريم ﷺ لما أمر بالتقوى حيثما كان الإنسان ، وأنه ينبغي أن تكون دومًا نصب عينه ، علم ﷺ أن المرء مهما كان ومهما اجتهد لا يمكن أن يخلوا من غفلة أو ذنب أو خطأ ، فذكره للتوبة وسرعة المبادرة إلى محو ما يصدر منه من زلل ، وذلك يكون بالتوبة النصوح ، وكثرة الاستغفار وبالاجتهاد بعمل الحسنات، ولذلك قال عليه الصلاة السلام : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها».

وقد وصى الله سبحانه عباده المتقين بمثل ما وصى به نبيه ﷺ ، قال الله عز وجل : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا

وَٱلْأَرْضُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦] ، فوصف الله عباده المتقين بمعاملة الخلق بالإحسان إليهم والإنفاق وكظم الغيظ والعفو عنهم ، فجمع بين وصفهم ببذل الندى واحتمال الأذى ، وهذا هو غاية حسن الخلق الذي وصى به ﷺ معاذًا .

وفي الصحيحين ، واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن عبدًا أصاب ذنبًا ، وربما قال : أذنب ذنبًا ، فقال : رب أذنبت ، وربما قال : أصبت ذنبًا فاغفر لي ، فقال ربه : علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنبًا ، أو أذنب ذنبًا ، فقال : رب أذنبت ، أو أصبت آخر ، فاغفره ، فقال : أعلم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنبًا ، وربما قال : أصاب ذنبًا ، قال: قال : رب أصبت ، أو قال : أذنبت آخر ، فاغفره لي ، فقال : أعلم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرت لعبدي – ثلاثًا – فليعمل ما شاء » .

وروى الترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ما أصر من استغفر، ولو فعله في اليوم سبعين مرة » .

وعند الحاكم من حديث عقبة بن عامر : « أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ قال : يا رسول الله ، أحدنا يذنب ، قال : يكتب عليه ، قال : ثم يستغفر منه ويتوب ، قال : يغفر الله له ، ويتاب عليه ، قال : فيعود فيذنب ، قال : يكتب عليه ، ولا يمل الله حتى تملوا » .

وفي مسند الإمام أحمد رحمه الله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع القول، ويل للمصرين ، الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون » .

وقد أخبر سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أن من تاب من ذنبه فإن الله يتوب عليه ، كما قال عز وجل : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم:٦٠] ، وقال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء:١٧] .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها» معناه : أتبع السيئة بالتوبة النصوح ، وقد يراد بها أيضًا غير التوبة ، وذلك كالأعمال الصالحة التي هي الصلاة ، والصدقة والصيام ، ونحو ذلك مما يتقرب به إلى الله ، كما قال عز وجل : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ

ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤]، فتكون الحسنة اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله، وأعظمها على الإطلاق حسنة التوحيد ، وهو إفراده سبحانه بالعبادة وهو معنى لا إله إلا الله ، ومن أعظمها أيضًا التوبة النصوح والاستغفار والإنابة إلى الله .

أخرج الإمام أحمد رحمه الله وأصحاب السنن إلا النسائي عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما من عبد يذنب ذنبًا ، فيتوضأ ، فيحسن الطهور ، ثم يصلي ركعتين ، فيستغفر الله تعالى ، إلا غفر الله له ، ثم تلا : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٣٥] .

وفي الصحيحين عن عثمان رضي الله عنه أنه توضأ ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال : « من توضأ نحو وضوئي هذا ، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وجاء في صحيح البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا » .

واعلم أن ذكر الله والتسبيح والتحميد والتهليل والصلاة على النبي ﷺ من أفضل الحسنات ، ويحصل بها التكفير للذنوب والخطايا .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من قال : سبحان الله وبحمده ، في كل يوم مائة مرة ، حطت خطاياه ، وإن كانت مثل زبد البحر » .

وفي الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك » .

وفي الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ مر بشجرة يابسة الورق ، فضربها بعصاه فتناثر الورق ، فقال :« إن الحمد لله ، وسبحان الله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لتُسَاقِطُ من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة» .

ومما يحصل به تكفير السيئات ، المصائب التي تصيب المؤمن ، كما بين ذلك المصطفى ﷺ بقوله : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته » رواه مسلم .

وهذه الهموم والمصائب إذا تلقاها العبد بالرضى والتسليم ، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فإن الله سبحانه

وتعالى يجازيه على ذلك ، وقد تكون سببًا لقوة إيمانه ويقينه ، كما قال عز وجل : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١]. قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ، ويسلم .

يقول ﷺ : « وخالق الناس بخلق حسن » .

اعلم أن حسن الخلق من أفضل الأعمال ، وهو داخل في التقوى ، وهو أثقل ما وضع في الميزان يوم القيامة ، وحسن الخلق تنوعت عبارات العلماء في تفسيره .

فمنهم من قال : هو الحلم .

ومنهم من قال: هو الصبر والعفو عن الناس .

وقد قال عبد الله بن المبارك رحمه الله في تفسيره له : هو طلاقة الوجه ، وبذل المعروف ، وكف الأذى.

وقال غيره : هو اختيار الفضائل وترك الرذائل .

وقال بعضهم في تعريفه :

تعريف حسن الخلق المختار قد حده أشياخنا الأبرار

وهو اختيار أحسن الفضائل والترك للقبيح والرذائل

وأما فضله : فقد قال ﷺ : « ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من

حسن الخلق» رواه الترمذي .

ومدح الله نبيه على حسن خلقه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم :٤] .

وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا » .

وروى الشيخان أيضًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ، وكان يقول : « إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا » .

وروى الترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، قال : «تقوى الله وحسن الخلق . وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : الفم والفرج».

وقد قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » رواه البخاري ومسلم .

واعلم أيها المسلم أن المعاشرة بالمعروف من آداب الإسلام ، ومن هدي الرسول الكريم ﷺ كما عرفت من هذه الأحاديث وغيرها . والإنسان لابد له من معاشرة الناس ، والاختلاط بهم ، لكن ينبغي للمؤمن أن لا يكثر من ذلك ، سيما في هذا الزمن ، فإن كثيرًا من مجتمعات الناس اليوم لا

تعين على التقوى ، ولا يكتسب منها نفع ديني ولا دنيوي ؛ إنما هي ضياع وقت ، أو حصول مأثم بما يتكلمون به ، من الوقوع في الأعراض ، وكثرة الغيبة ، والنميمة ، والطعن على الناس فيما يعلمون من أحوالهم ، وفيما لا يعلمون .

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا شرًا أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

فإذا علمت ذلك فإن اللائق بك أن تقلل من الاختلاط ؛ ليسلم لك دينك ، وعرضك ، وقد قيل في صحبة الأشرار :

فلو كان منه الخير إذ كان شره عتيدًا ضربت الخير يومًا مع الشر

ولو كان لا خيرًا ولا شر عنده رضيت لعمري بالكفاف مع الأجر

ولكنه شر ولا خير عنده وليس على شر إذا طال من صبر

وروي عن جعفر بن محمد : « من كان فيه ثلاث خصال ، فقد وجب له على الناس أربع : إذا خالطهم لم يظلمهم ، وإذا حدثهم لم يكذبهم ، وإذا وعدهم لم يخلفهم . وعلى الناس أن يظهروا عدله، وأن تكمل فيهم مروءته، وأن يجب عليهم أخوته ، وأن يحرم عليهم غيبته » .

فإذا علمت هذا ، وابتعدت ما يمكنك الابتعاد عن سيء الخلق فمن المعلوم أنه لابد للإنسان من جلساء وأصدقاء ، لا يمكنه التخلي عن مجالستهم يفرضه عليه طبيعة عمله ، أو مكانته أو حاجته ، فعليه حينئذ أن

يتحلى بالصبر وحسن الخلق ؛ لينال من الله بذلك الأجر الأوفر والسمعة الحسنة ، وينال أيضًا بذلك الراحة العاجلة ، فإن الإنسان إذا تسامح سلم من الشقاق والنزاع ، وإذا ضاق صدره ، ونفذ غيظه ، وساء خلقه ، صار في نكد وغم وهم ، فحسن الخلق يكسب الراحة والطمأنينة في الدنيا والأجر العظيم في الآخرة ، وأساسه الصبر والحلم ، والرغبة في مكارم الأخلاق ، وآثاره العفو والصفح عن المسيئين ، وإيصال الخير والمنافع إلى الناس أجمعين .

فحسن الخلق هو احتمال الجنايات ، والعفو عن الزلات ، ومقابلة السيئات بالحسنات ، وقد جمع الله ذلك في آية واحدة من كتابه ، وهي قوله عز وجل : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩] ، أي : خذ ما عفى وصفى لك من أخلاق الناس ، واغتنم ما حصل منها، وغض النظر عما تعذر تحصيله منهم، وعن نقصها وكدرها، ومعنى ذلك أن نشكر الناس على ما جاء منهم من الخير والإحسان ، وما سمحت به طباعهم من الخلق الجميل ، ولا تطلب منهم ما زاد على ذلك ، فإنك بذلك تستريح وتريحهم .

وأما من يطلب من الناس أن يكونوا له في كل شيء على ما يريد ، ولا يصدر منهم خلاف ما في نفسه ، أو خلاف ما يكون على رغبته وذوقه ، وإذا بدر منهم شيء من التقصير أو الإخلال بشيء من ذلك أهدر جميع ما

جاء منهم من الخير والإحسان بسبب زلة صغيرة، فهذا لا تصفوا حياته، ولا يبقى له صديق ولا قريب ولا صاحب.

وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا الخلق الفاضل في معاملة الزوج لزوجته، فقال ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر» رواه مسلم، فأمر بالإغضاء عما فيها من العيوب، وأن يكون نظره إلى ما فيها من المحاسن والأخلاق الفاضلة، ويجعله شفيعًا لهذا، فبذلك تدوم الزوجية، وتتم العشرة الطيبة والصفاء، ويقل النزاع والخصام، وقس على هذا الذي ذكره ﷺ في جميع المعاملات، والحقوق مع الأقارب، والأصحاب، والأصدقاء.

وفي هذا الحديث عندما أمر ﷺ بالتقوى، والإكثار من الحسنات، ومبادرة تكفير السيئة بعمل الحسنة التي تكفرها، قال ﷺ بعد ذلك: «وخالق الناس بخلق حسن»، مما يدل على اعتنائه ﷺ بهذا الأمر العظيم، ومحبته للمؤمنين أن يتصفوا به، وهو من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به، وإنما أفرده ﷺ بالذكر؛ لشدة الحاجة إلى بيانه، وفضل من جمع التقوى وحسن الخلق فإن الجمع بينهما عزيز.

كما قال بعضهم: «ثلاثة أشياء عزيزة جدًا أو معدومة: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن الخلق مع الديانة، وحسن الإخاء مع الأمانة».

وقد روى أبو داود عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

« أنا زعيم بيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه » .

وسئل بعضهم عن حسن الخلق ، فأنشد الأبيات المشهورة :

تـراه إذا ما جئـتـه متهـلـلاً كأنك تعطيه الذي أنت سـائله

ولو لم يكن في كفه غير روحــه لجـاد بهـا فليتـق الله سـائله

هو البحر من أي النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

والواقع أن هذه الأبيات لا تصلح إلا لخير البرية محمد ﷺ فإنه أجـود الناس على الإطلاق ، وأحسنهم خلقًا وخُلقًا .

وقد فسر الإمام أحمد رحمه الله حسن الخلق بقوله : حسن الخلق أن لا تغضب ، ولا تحقد .

وهذا مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام لمن سأله الوصية ، فقال: « لا تغضب » رواه البخاري.

وقد قال ﷺ : « أفضل الفضائل : أن تصل من قطعك ، وتعطـي مـن حرمك ، وتصفح عمن شتمك » .

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق ، وجنبنا أخلاق أهل النفاق .

وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الخامس عشر

روى الترمذي بسند صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« قال الله تبارك وتعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني ، غفرت لك على ما كان فيك ، ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني ، غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا ، لأتيتك بقرابها مغفرة » .

هذا الحديث الشريف اشتمل على بيان سعة فضل الله تعالى ، ورحمته بعباده، ورأفته بهم ، وبيان منزلة الدعاء ، وعلو مكانه من الله جل وعلا ، وأن الله سبحانه يحب من عباده أن يدعوه ، ويتقربوا إليه بإنزال حوائجهم بربهم ؛ ليثيبهم على ذلك ، ويعطيهم سؤلهم ، ويكرمهم بتحصيل ما طلبوا ، وفيه بيان فضل الرجاء ، وأن من رجا الله فإن الله لا يخيب رجاءه ، بل يعطيه مطلوبه ، ويغفر ذنوبه إذا علم الله منه صدق الالتجاء إليه ، وعدم الالتفات إلى أحد سواه ، فإن من استعان بأحد غير الله خذل ، ومن طلب حاجاته من غيره حرم :

من استعان بغير الله في طلب ... فإن ناصـــره عجز وخذلان

وقد اشتمل هذا الحديث القدسي على ثلاث جمل :

الأولى : قوله سبحانه : « يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي » ، فهذه الجملة دلت على أن الله يحب من عبده أن يدعوه ويرجوه ، ويتعلق به .

ويشهد له ما جاء في مسند الإمام أحمد رحمه الله عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والذي نفسي بيده ، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم الله عز وجل ، لغفر لكم» .

فالله سبحانه يحب من عباده أن يتضرعوا إليه ويدعوه ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠].

وروى أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الدعاء هو العبادة » ، ثم تلا هذه الآية .

وروى الطبراني في المعجم الصغير عن النبي ﷺ أنه قال : « من أعطي الدعاء أعطي الإجابة» .

فالله لم يأمر عباده بدعائه إلا ليتسجيب لهم ، كما قال سبحانه : ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ .

وروي عنه ﷺ أنه قال : « ما كان الله ليفتح على عبد باب الدعاء ،

ويغلق عنه باب الإجابة » .

والدعاء أعظم أسباب الإجابة ، وحصول المقصود ، لكن مع استكمال شرائطه وانتفاء موانعه ، وقد تتخلف الإجابة ؛ لانتفاء بعض شروطه أو وجود بعض موانعه وآدابه ، ومن أعظم شروطه : حضور القلب وقت الدعاء ، وقوة الرجاء ، والثقة بوعد الله ، وتصديقه ، وحصول الاستبشار بإدراك مأموله ؛ حيث إن الله فتح عليه باب الدعاء .

وقد روى الترمذي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ » .

وفي مسند أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: « القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس ، فاسألوه ، وأنتم موقنون بالإجابة ، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل ».

ولهذا نهي العبد أن يتردد في سؤاله أو يعلقه بشيء ، بل يعزم الدعاء ، ويستحضر الإجابة ، كما جاء في الصحيحين واللفظ للبخاري عن النبي ﷺ قال : « لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة ، فإنه لا مكره له» . كما أنه قد ورد النهي عن استبطاء الإجابة والاستعجال فيها ، وترك الدعاء ؛ لتأخر حاجته ومطلوبه ، بل يستمر في

الدعاء ، ويلح فيه ، فإن الله يحب الملحين في الدعاء ، قال الله عز وجل: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦] .

فينبغي للعبد أن يداوم على الدعاء ، ويلح فيه ، ويطمع في الإجابة من غير قطع الرجاء ، فهو قريب من الإجابة ، ومن أدمن قرع الباب ، يوشك أن يلج .

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وفي حديث أنس رضي الله عنه يقول رسول الله ﷺ : « لا تعجزوا في الدعاء ، فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد» رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه.

وينبغي للمسلم أن يحرص على المهم من مهماته وحاجاته ، فيقدم الأهم قبل المهم ، ومن أهم ما يحرص عليه المؤمن سؤال الله المغفرة ، مغفرة ذنوبه ، والنجاة من النار ، والفوز بالجنة ، والنعيم المقيم فيها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا ، كما جاء في حديث ابن ماجة عن النبي ﷺحينما قال له الأعرابي : يا رسول الله : أنا لا أعرف دندنتك ودندنة معاذ ، ولكن أسأل الله الجنة ، وأستعيذ به من النار ، فقال رسول الله ﷺ : « حولهما ندندن » . أي حول

سؤال الجنة والنجاة من النار .

ومن لطف الله ورحمته بعبده أن العبد ربما دعا ، وألح في الدعاء بطلب حاجة من الدنيا ، فيصرفها عنه ويعوضه خيرًا منها ، إما بأن يصرف عنه من السوء مثلها ، أو يدخرها له يوم القيامة، أو يغفر له بها ذنبًا .

جاء في مسند أحمد ومستدرك الحاكم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ، ليس فيها إثم أو قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها ، قالوا : إذا نكثر ، قال : الله أكثر» .

والحاصل أن الإلحاح في الدعاء ، والتضرع إلى الله مطلوب شرعًا، بل هو موجب لمحبة الله لعبده حيث قد جاء في الأثر : إن الله يحب الملحين في الدعاء . سيما إذا انضم إلى ذلك قوة الرجاء بالله ، والثقة بما عنده ، وانتظار الإجابة ، وحسن الظن ، كما جاء في الحديث القدسي يقول الله سبحانه : «أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء» رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه. وفي رواية : «فلا تظنوا بالله إلا خيرًا» .

ومن أعظم أسباب المغفرة ، أن العبد إذا أذنب ذنبًا ، تاب إلى ربه ، وسأله الغفران ، وهو موقن أنه لا يغفر الذنوب ، ويأخذ بها غيره سبحانه ، كما قال جل وعلا : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ

ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:١٣٥] ، فإذا تذكر المؤمن ذلك أوجب له الاستحياء من ربه ، ورجاء ما عنده ، ويشفق من ذنوبه ، فيكون قلبه دائمًا في حالة بين الرجاء لربه ، والخوف ، والحذر منه ، فيتصف بها وصف الله به عباده المؤمنين بقوله : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:٩٠] . ولذلك قال العلماء رحمهم الله : إنه ينبغي للعبد أن يكون في حال الصحة بين الخوف والرجاء ، فإن غلب عليه الخوف ، أو غلب عليه الرجاء دخل عليه النقص في دينه ، بحسب ما وقع في قلبه من ذلك ، وأما في حالة المرض ، فينبغي أن يغلب الرجاء حتى يلاقي ربه راجيًا عفوه ، كما في الحديث : « أنا عند ظن عبدي بي » . وكما جاء في صحيح مسلم ، قال ﷺ : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » .

والجملة الثانية قوله سبحانه : « يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، ولا أبالي ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة ».

هذا يدل على فضل الاستغفار ، ورجاء القبول من الله لعباده المستغفرين ، ولذلك أثنى الله سبحانه على عباده المستغفرين في عدة آيات من كتابه ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران:١٧] ، وقال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:١٣٥] ، وقال سبحانه عن رسوله نوح عليه السلام : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾ [نوح : ١٠-١٢] ، والآيات في هذا الباب كثيرة جدًا .

والاستغفار هو طلب المغفرة من الله ، والمغفرة هي وقاية شر الذنوب مع سترها ، وقد كان ﷺ كثير الاستغفار ، ويحث أصحابه عليه ، قال عليه الصلاة والسلام : « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » رواه أحمد وابن ماجة .

وقال ابن عمر رضي الله عنه : « إنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة يقول : رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم» رواه أبو داود وابن ماجة .

وعند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وروي عن أبي ذر مرفوعًا : « إن لكل داء دواء ، وإن دواء الذنوب الاستغفار» .

وينبغي للمسلم أن لا يتعاظم ذنوبه ، مهما كانت في جنب عفو الله ، فإن الله رحيم بعباده ، لطيف بهم ، يحب منهم أن يسألوه فيعطيهم ، ويستغفروه فيغفر لهم ، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » .

ثم إنه سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه ، وينادي عباده المسرفين على أنفسهم بالذنوب والمعاصي ، يناديهم إليه ويخبرهم بألا يقنطوا من رحمته ، فإن رحمته وسعت كل شيء ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر:٥٣-٥٤] .

كما أنه سبحانه يحب الملحين في الدعاء ، والمتضرعين إليه ، ولله سبحانه نفحات ، قد يصادفها العبد في دعائه ، فيتحصل على خيري الدنيا والآخرة .

وقال الحسن رحمه الله : « أكثروا من الاستغفار في بيوتكم ، وعلى موائدكم ، وفي طرقكم ، وفي أسواقكم ، وفي مجالسكم ، وأينما كنتم ، فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة » .

جاء في الحديث القدسي : « يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث ذكرني ، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، ومن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا ، وإذا أقبل إلي يمشي - أقبلت إليه أهرول» رواه مسلم ، ويقول ﷺ : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» رواه أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة .

والأخبار والآثار في التوبة كثيرة ، وإن الله سبحانه وتعالى يقبل توبة عبده ، ما لم يحضره الموت ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[النساء:١٧-١٨].

وإذا أردت معرفة سعة الله ورحمته ولطفه بعباده ، فتأمل هذه القصة ، أخرج البخاري ومسلم رحمهما الله من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعًا وتسعين نفسًا ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل راهب ، فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله ، فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل عالم ، فقال إنه قتل

مائة نفس ، فهل له من توبة فقال : نعم ، ومن يحول بينك وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناسًا يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك ، فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى نصف الطريق ، فأتاه ملك الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرًا قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي ، فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتها كان أدنى فهو له ، فقاسوه ، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة» .

وفي رواية لمسلم : « فكان إلى الأرض الصالحة أقرب منها بشبر ، فجعل من أهلها» .

وفي رواية للبخاري : « فأوحى الله إلى هذه أن تقربي ، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي ، وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجد إلى هذه أقرب بشبر ، فغفر له» .

فتأمل أيها المسلم هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وآثار السلف الصالح يتبين لك سعة رحمة الله ولطفه بعباده ، وإنما الشأن كل الشأن في صدق التوبة والاستغفار ، وأن يكون حال توبته واستغفاره مستحضرًا بقلبه رحمة ربه ، وعفوه ، ومغفرته ، ووعد الصادق ، وأن لا ييأس المرء من روح الله ، ولا يقنط من رحمة ربه ، فإن هذا من السبل

القاطعة عن الله ، فربما سول لـه الشـيطان أن ذنوبـه عظيمـة كثـيرة ، حتـى يدخل في قلب العبد اليأس والقنوط ، وهذا إذا دخل في قلب العبـد ، فهـو أعظم من جميع ذنوبه ، بل ينبغي للعبد أن يستحضر أنـه مهـما كانـت ذنوبـه ومعاصيه فإن الله يغفرها ، إذا تاب وصدق بتوبته إلى ربه ، ورجع إلى إلهـه ، وعمل صالحًا ، كما قال سبحانه وتعـالى : ﴿ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «أن عبدًا أذنب ذنبًا ، فقال : رب إني أذنبت ذنبًا ، فاغفر لي ، قال الله تعالى : علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنبًا آخر ، فذكر مثل الأول مرتين أخريين» .

وفي رواية لمسلم قال في الثالثة : «قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء» . والمعنى ما دام على هذا الحال ، كلما أذنب استغفر .

والظاهر أن المراد الاستغفار مع عدم الإصرار ، كما ذكر ذلك ابن رجب رحمه الله ، ويشهد لهذا ما ورد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي ﷺ «ما أصر من استغفر ، وإن عاد في اليوم سبعين مرة» . رواه أبو

داود والترمذي ، وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري .

وأما الاستغفار باللسان مع الإصرار بالقلب على المعاصي ، فهو دعاء مجرد ، إن شاء الله أجابه ، وإن شاء رده ، وقد يكون الإصرار مانعًا من الإجابة ، كما في مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر مرفوعًا : « ويل للذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون » .

قال بعض العلماء : من لم يكن ثمرة استغفاره تصحيح توبته ، فهو كاذب في استغفاره .

وكان بعضهم يقول : استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار.

وقد قال بعضهم في هذا المعنى :

استغفر الله من استغفر الله   من لفظة بدرت خالفت معناها

وكيف أرجو إجابات الدعاء وقد   سددت بالذنب عند الله مجراها

والمراد من هذا من يقول بلسانه : أستغفر الله ، وهو مقيم على الذنب، ولم يعزم على تركه ، سيما إذا قال : أستغفر الله وأتوب إليه ، وهو لم يتب ، فإن التوبة لها شروط ، وهي الندم على ما وقع منه ، والإقلاع عن الذنب، والعزم على عدم العودة له ، ورد الحقوق لأصحابها ، ولذلك يروى عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال : « يحسب من الكذب أن يقول : أستغفر الله ثم يعود » .

فعلى المسلم أن يحرص على كثرة الاستغفار والتوبة إلى الله ، ويعزم على اجتناب المعاصي والذنوب ، وأن يتخير من الألفاظ الواردة عن المعصوم ﷺ . ومن أفضلها ، وأجمعها ما جاء في صحيح البخاري عن شداد ابن أوس عن النبي ﷺ أنه قال : « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي ، فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» .

وقد علَّم ﷺ خباب بن الأرت أن يقول : « اللهم اغفر لنا ، وارحمنا، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم» .

اللهم وفقنا للتوبة النصوح يا حي يا قيوم . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث السادس عشر

روى البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس ، تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » .

في هذا الحديث الشريف يرشد النبي ﷺ أمته إلى ما فيه الخير والأجر لهم.

فقوله ﷺ : «كل سلامى من الناس عليه صدقة»: السلامى هي في الأصل عظام صغار مثل الأصبع أو أقل ، تكون في اليدين والرجلين ، والمراد في هذا الحديث هي وغيرها من عظام جسم المرء، فالرسول ﷺ يقول : «كل سلامى» ، أي : كل عظم من عظام اليدين والرجلين عليه صدقة، وهذه الصدقة شكر لله على هذه النعمة ، وهي هذا الخلق السوي الذي خلق على أحسن انسجام ، وأدق نظام ، على حسب الحاجة والمصلحة ، ففيها الصغار التي خلقت للقبض، والمد ، ومسك ما يحتاج إلى مسكه من صغير وكبير ، وتلك العظام هي الأصبع ، ونحوها ، وانظر إلى ما فوقها مما يحتاج إليه لحمل البدن وغيره مما

يحتاج إليه ، وذلك مثل عظام الساقين ، والقدمين والفخذين ، والظهر ، وما أشبهه ، فسبحان الخالق العليم الذي أعطى كل شيء خلقه ، ثم هدى.

فإذا تذكر المسلم هذه النعم التي هي من الله وحده ناسب أن يشكر الله عليها ، والشكر يكون باللسان ، ويكون بالعمل ، كالصدقة ، والصلاة ، والصيام وغير ذلك من العبادات، فمعنى الحديث أن هذه الأعضاء والمفاصل التي امتن الله عليك ، وركبها أحسن تركيب ، من أعظم نعم الله عليك ، فيحتاج كل عظم منها إلى صدقة ، يتصدق ابن آدم بها ، شكرًا لله على هذه النعمة ، كما قال عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك:٢٣]. وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد: ٨-٩].

قال مجاهد : هذه نعم من الله متظاهرة يقررك بها ؛ كيما تشكر .

وقرأ الفضيل هذه الآية الكريمة ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ ليلة فبكى ، فسئل عن بكائه فقال : هل بت ليلة شاكرًا لله ، أن جعل لك عينين تبصر بهما ، هل بت ليلة شاكرًا لله أن جعل لك لسانًا تنطق به ، وجعل يعدد من هذا الضرب.

فسبحان الله العليم الحكيم ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

[السجدة:٧-٩].

فينبغي لك أيها المسلم أن تذكر نعم الله عليك ، وأن تجدد شكر الله كلما تذكرتها ، وقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم كثيرًا ما يتذكرون نعم الله ، ويُذكرون بها عباد الله من شفقتهم ، ونصحهم للمسلمين .

روي عن يونس بن عبيد أن رجلاً شكى إليه ضيق حاله ، فقال له يونس أيسرك أن لك ببصرك هذا الذي تبصر به مائة ألف درهم ؟ قال الرجل : لا ، قال: فبيدك مائة ألف درهم ؟ قال : لا ، فذكّره نعم الله عليه ، فقال يونس : أرى عندك مئين ألوفًا ، وأنت تشكو الحاجة .

وروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يقول : الصحة غناء الجسد .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .

فجميع هذه النعم التي امتن الله بها على عبده ، لابد أن يسأله عنها يوم القيامة ، وعن القيام بشكرها ، وماذا عمل فيها .

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨].

وفي الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « إن أول ما يسأل عنه

العبد يوم القيامة من النعيم فيقال له : ألم نُصِحَّ لك جسمك؟ونُرْوِيَكَ من الماء البارد؟» .

وروى الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : «من قال : لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله ، ومن قال : سبحان الله وبحمده ، كتب له بها مائة ألف حسنة ، فقال رجل : يا رسول الله كيف نهلك بعد هذا ؟ قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده إن الرجل يوم القيامة ليأتي بالعمل ، لو وضع على جبل لأثقله ، فتقوم النعمة من نعم الله ، فتكاد أن تستنفد ذلك كله ، لولا ما يتفضل الله به من رحمته » .

فاعلم أيها المسلم أنك لو تدبرت نعم الله عليك ، وعرفتها حق معرفتها، وتأملت حاجتك إليها ، لو فقدت منك ، لأحدثت لذلك شكرًا بلسانك ، وشكرًا بجنانك ، وشكرًا بجوارحك ، ولعلمت أنك لا تحصي شكرها ، ولكن على حسب الاستطاعة .

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:١٨]، فهو سبحانه إذا علم من عبده القيام بشكر النعم بقدر ما يستطيع غفر له ما قد يسهو عنه ، أو ما يعجز عنه ، ولذلك قال عز وجل : ﴿ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . ففي ختم هذه الآية الكريمة بهذين الاسمين الشريفين من أسمائه الحسنى دلالة على أن العبد مهما عمل ، ومهما قام بشكر شيء منها ، لا يستطيع القيام بجميع شكرها ، ولكن الله يغفر ، ويرحم

عباده ، وذكر سبحانه في الآية الأخرى ، وهو قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] فهو ظلوم لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله ، أي كفار شديد الكفر لنعم الله ، غير شاكر لله على نعمه كما ينبغي .

أما قوله عليه الصلاة والسلام : « تعدل بين اثنين صدقة »

فاعلم أيها المسلم أن العدل والإصلاح بين الناس من أفضل الأعمال ، كما قال عز وجل : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ [النساء:١١٤]، وقال عز وجل : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ ﴾ [الحجرات:٩] ، وقال ﷺ : « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين » .

فالإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين ، ومتخاصمين . والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر ، والفرقة ، والفساد الدائم في الدين والدنيا ، وفوات المصالح ما لا يمكن حصره ، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء ، والأموال ، والأعراض ، كما قال عز وجل : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وإذا لم يحصل الاعتصام بحبل الله حصل التفرق والتنافر ولابد . ولذلك كان الساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القائم بالصلاة والصيام والصدقة ؛ لأن نفعه أعظم ، وفائدته أكبر ، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « إن فساد ذات البين هي الحالقة » رواه

أحمد والترمذي ، أي تحلق الدين ، فصار القيام بالإصلاح من أفضل الأعمال ؛ لما يترتب عليه من المصالح ، ويندفع بسببه من الشر العظيم ، والقائم بالإصلاح إذا حسنت نيته وصدق قصده ، أصلح الله عمله وسعيه ، كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله، ولا يتم له مقصوده ، ولا تنجح مساعيه ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٨١]، ويقول عز وجل في حق الآمرين بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس : ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤].

فعلى المسلم أن يحرص على هذه الفضيلة ، وأن يخلص العمل لله ، ويقصد به وجهه ، ويراقب الله في كل وقت وفي كل عمل من أعماله ؛ ليحصل له بذلك الأجر الأوفر ، وليتعود على الإخلاص في العمل ، فيكون من المخلصين؛ ليتم له الأجر سواء ، تم مقصوده أم لا ؛ لأن النية حصلت ، واقترن بها ما يمكن من العمل ، وحصول المقصود بيد الله .

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده   وليس عليه أن تتم المقاصد

ثم قال عليه الصلاة والسلام : «وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة » .

أي أن إعانتك لأخيك المسلم ومساعدته في بعض شؤونه يعتبر من الصدقات التي يكفر الله بها الخطايا والذنوب ، ويرفع بها الدرجات ، وتكون شكرًا لله على نعمته ، التي امتن بها عليك في ما أعطاك من القوة والقدرة على

القيام بأعمالك ، فمِنْ شكرها مساعدة أخيك المسلم المحتاج إليك ، فإذا فعلت هذا فقد قمت ببعض ما يجب عليك من شكر الله على هذه النعمة .

وقوله ﷺ : « والكلمة الطيبة صدقة » : يدخل في ذلك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وابتداء السلام ورده ، وتشميت العاطس ، ومساعدة أخيك إذا احتاج إليك في التعبير عنه ، والإخبار بمراده لمن لا يفهم ما يريد ، ويدخل في ذلك أيضًا ردك عن عرض أخيك إذا سمعت من يتكلم فيه بما يعيبه ويشينه ، ومما يدخل أيضًا دخولاً أولويًا التسبيح ، والتهليل ، والتكبير، والتحميد ، والصلاة ، والتسليم على الرسول الكريم ﷺ .

وأما قوله ﷺ : « وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » .

فهذا يدل على فضيلة المحافظة على الصلاة في المساجد مع جماعة المسلمين، وأنه من جملة الصدقات التي يثاب فاعلها ، ويكفر عنه بها خطاياه وذنوبه ، وترفع له فيها درجاته ، كما جاء في الحديث الآخر عنه ﷺ في البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل في الجماعة يضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسًا وعشرين درجة ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى الصلاة ، لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه ، تقول : اللهم صل عليه ، اللهم

ارحمه ، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة» .

وفي رواية لمسلم : «اللهم اغفر له ، اللهم تب عليه ، ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجرًا .

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ:«إن أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم إليها ممشى،فأبعدهم».

وقوله ﷺ : « وتميط الأذى عن الطريق صدقة » :

هذا مما يثاب عليه الإنسان كما أخبر به ﷺ، وهو شعبة من شعب الإيمان ، كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ بقوله : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» رواه مسلم، فإزالة كل ما يؤذي المسلمين في طريقهم فهو مما يحصل به الأجر لفاعله، ويعتبر صدقة من الصدقات ، وذلك كتنحية الحجر ، أو تسوية الحفر ، أو إزالة الشوك ، ونحو ذلك ، مما يتأذى به المارة ، فإذا نحاه المسلم على وجه البر والإحسان دل على إيمانه ، وأثيب على ذلك .

واعلم أن كل ما يحصل فيه إزالة الضرر عن المسلمين ، أو يحصل فيه إيصال النفع لهم ، أو إدخال السرور عليهم مما يثاب عليه ، ويعتبر صدقة من الصدقات ، ففي صحيح البخاري رضي الله عنه عن عبد الله بن عمر رضي الله

عنهما يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أربعون خصلة ، أعلاهن منيحة العنز : ما من عامل يعمل بخصلة منها ؛ رجاء ثوابها ، وتصديق موعودها ، إلا أدخله الله بها الجنة» .

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «حق الإبل حلبها على الماء ، وإعارة دلوها ، وإعارة فحلها ، ومنيحها ، وحملٌ عليها في سبيل الله».

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي جري الجهني قال : سألت النبي ﷺ عن المعروف فقال : « لا تحقرن من المعروف شيئًا ، ولو أن تعطي صلة الحبل ، ولو أن تعطي شسع النعل ، ولو أن تنزع من دلوك في إناء المستسقي ، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق ، ولو أن تلقى أخاك ، فتسلم عليه ، ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض» .

وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال : «قلت : يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله، قلت : أي الرقاب أفضل ؟ قال : أنفسها عند أهلها ، وأكثرها ثمنًا ، قال : قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : تعين صانعًا ، أو تصنع لأخرق ، قلت : أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل ؟ قال : تكف شرك عن الناس ، فإنها صدقة منك على نفسك » .

اللهم وفقنا لعمل الخيرات ، وجنبنا عمل المنكرات ، وارزقنا الإخلاص في القول والعمل ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

الحديث السابع عشر

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ورواه الإمام أحمد رحمه الله بلفظ : « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير» .

فهذا الحديث يدل على أن الإنسان لا يكمل إيمانه ، حتى يتصف بهذا الوصف ، وإنَّ نفي الإيمان هنا المراد به نفي كماله ، وبلوغ حقيقته ونهايته ، فإن الإيمان قد ينتفي لانتفاء بعض أركانه وواجباته ؛ لأن الأعمال الصالحة من الإيمان وحصول الإخلال بها يحصل به نقص الإيمان ، كما أن وجود المعاصي ينقصه ويضعفه ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» رواه البخاري ومسلم ، وكقوله عليه الصلاة والسلام: «والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل : من يا رسول الله ؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه » رواه البخاري .

والحاصل أن من جملة خصال الإيمان الواجبة أن يحب المرء لأخيه ما

يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه ، فإذا زال عنه هذا الوصف فقد نقص إيمانه بذلك ، ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال له: « أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا » رواه ابن ماجة .

وفي مسند الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه ، أنه سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الإيمان ، قال : «أفضل الإيمان أن تحب في الله ، وتبغض لله ، وتعمل لسانك في ذكر الله ، قال : وماذا يا رسول الله ؟ قال : أن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك ، وأن تقول خيرًا أو تصمت » .

وفي هذا المعنى روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «من أحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه » .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم » .

فهذا يدل على شدة نصحه ﷺ وشفقته على أصحابه وأمته ، ومحبته الخير لهم ، فهو ﷺ متصف بهذا ، ويحب لكل مؤمن أن يتصف به ، ولعله ﷺ علم من أبي ذر رضي الله عنه عدم القدرة على القيام بأعباء الولاية ،

فنبهه على ذلك ، وأرشده إلى عدم تولي أمور الناس ، سلامة له من تبعة الأمر ، ومخافة أن يضعف رضي الله عنه عن القيام به ، فيقصر فيما أنيط به ، فيلحقه بسبب ذلك الإثم ، ولذلك لم يقل ﷺ ذلك في حق غيره من أصحابه الذين لهم قدرة وقوة على القيام بأعباء الإمارة ، بل كان يوليهم ذلك ، والنبي ﷺ متصف بهذا فهو القائم بأمور المسلمين ، وهو الذي يدبرهم في أمورهم الدينية والدنيوية ؛ لأن الله قواه على ذلك ، وأمره بدعوة الخلق إلى دين الإسلام ، وولاه سياستهم الدينية والدنيوية .

فمدار هذا الحديث ، وهو قوله ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » يدل على أن المؤمن يسوؤه ما يسوء أخاه المؤمن ، ويريد لأخيه المؤمن ما يريد لنفسه من الخير ، وهذا إنما يحصل من سلامة الصدر من الغش والغل والحقد ، فإن الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في خير ، أو يساويه فيه ؛ لأنه يحب أن يمتاز على الناس بفضائله، وينفرد بها عنهم ، والإيمان الكامل يقتضي خلاف ذلك ، وهو أن يحب أن يشركه المؤمنون كلهم فيما أعطاه الله من الخير ، من غير أن ينقص عليه منه شيء ، وقد مدح الله سبحانه في كتابه العزيز من لا يريد العلو في الأرض ولا الفساد ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣].

فينبغي للمؤمن أن لا يرى نفسه بعين الكمال ، ويرى غيره بعين

النقص ، سواء فيما يتعلق بأمور دينه ، أو غيرها ، من خلق ، أو خلق ، أو علم ، أو غير ذلك ، فإذا رأى من هو فوقه في العبادة والطاعة تمنى أن يكون مثله ولا يحسده على ذلك ، وكذلك إذا رأى أهل المعاصي ينبغي له أن يخشى على نفسه أن يكون مثلهم ، ولذا لا يتكبر عليهم ، ولا يظن أن له منزلة عند الله ؛ لأن الأعمال بالخواتيم ، ولا يدرى ماذا يختم له به ، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، فيسأل الله الثبات على الحق ، وينصح من رآه على معصية بنية تغيير المنكر ، عملاً بقوله ﷺ « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم. فينصح لأخيه المسلم ، بدون سب ، أو تعنيف ، أو تنقص له .

قال بعض السلف الصالح : أهل المحبة لله نظروا بنور الله ، وعطفوا على أهل المعاصي ، مقتوا أعمالهم ، وعطفوا عليهم ؛ ليزيلوهم بالمواعظ عن أفعالهم، وأشفقوا عليهم من النار .

فالمؤمن يأمره إيمانه ، ويحمله على أن يكون في مساعدة أخيه المؤمن، مساعدة بكل ما يقدر عليه ، مساعدة بالمادة ، مساعدة بالجاه، مساعدة بالدعاء ، مساعدة بالنصرة له إن كان مظلومًا ، مساعدة بمنعه من الظلم إن كان ظالمًا ، كما بين النبي ﷺ أن من نصرة الظالم رده عن ظلمه ، وكما قال النبي ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا ، وشبك بين أصابعه»

رواه البخاري ومسلم .

فعلى المؤمنين مراعاة هذا الأصل ، وأن يكونوا إخوانًا متراحمين، متحابين ، متعاطفين ، يحب كل منهم للآخر ما يحب لنفسه ، ويسعى في ذلك بكل جهده ، وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضًا ، فإن مجموع البنيان من أساسات وحيطان محيطة بجميع البنيان ، وهناك حيطان تحيط بمنازل مخصوصة ، وما تضمنته من سقوف وأبواب ونوافذ ومنافع ، كل نوع من ذلك لا يقوم بمفرده ، لكن بانضمام بعضها لبعض يحصل المقصود من وقاية الحر ، والقر ، وصد الرياح ، والأتربة ، وحصول الأمن ، والاستقرار فيها ، والخلوة ، والستر عن أعين الناس ، فكذلك المؤمنون يحصل لهم كل ذلك إذا اتصفوا بهذا الوصف ، فيراعون قيام دينهم وشرائعه ، وما يقوم ذلك ويقويه ، ويزيل موانعه ، وعوارضه .

فالقيام بأمور المسلمين التي فيها الحفاظ على حقوقهم يجب على جميع المسلمين القيام بها، فإذا كلف فيها فردًا أو طائفة ، وقامت بها ، سقط الإثم عن الباقين، وإلا أثم الكل كما تقدم ، كما قال عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢] ، وقال عز وجل : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

ويدخل في ذلك الجهاد ، والقيام بأمور القضاء ، والتعليم ، وحفظ القرآن ، والسنن ، وما يحتاج إليه في فهمها ومعرفتها من أنواع العلوم التي لا يحصل كمال المعرفة إلا بها . وكذلك التعاون على البر والتقوى .

فالمسلمون قصدهم ومطلوبهم واحد ، وهو قيام مصالح دينهم ودنياهم التي لا يتم الدين إلا بها ، وكل طائفة تسعى في تحقيق مهمتها بحسب ما يناسبها ، ويناسب الوقت ، والحال ، وما يتعلق بمعرفتها من جميع جوانبها سلبًا أو إيجابًا ، ولا يتم لهم ذلك إلا بعقد المشاورات ، والبحث عن المصالح الكلية ، وبأي وسيلة تدرك ، وكيفية الطرق إلى سلوكها ، وإعانة كل طائفة للأخرى في رأيها ، ومعرفتها ، وتجاربها ، ومساندتها في قولها وفعلها في دفع المعارضات والمعوقات عنها ، فمنهم طائفة تتعلم ، وطائفة تُعَلِّم ، وطائفة تخرج للجهاد ، بعد تعلمها لما يحتاج إليه المجاهد من أمور دينه ، التي لا يسعه جهلها ، ومن فنون الأسلحة والعلوم الحربية التي يحتاج إليها المجاهد ، ولكل زمن من الفنون والعلوم ما يناسبه ، ومنهم طائفة تحافظ على الثغور ، والحدود ، وترابط بها، وتعرف أنواع الطرق البرية أو البحرية أو الجوية ، وتأخذ الحذر ، والحيطة ، لكل نوع منها بما يناسبه ، ومنهم طائفة تتفرغ للصناعات ، وعمل الأسلحة ، وغيرها مما يحتاجه المسلمون في أوقات سلمهم وحربهم ، ومنهم طائفة تشتغل بالزراعة ، والحراثة ، وتأمين ما تحتاجه البلاد من قوت ؛ لئلا يتحكم

الأعداء بأرزاقهم وأقواتهم،ومنهم طائفة تتعاطى أنواع التجارات، والسعي في الأسباب الاقتصادية ، التي تضمن للمسلمين إصلاح أحوالهم ، ونمو أموالهم . ومنهم طائفة تتفرغ لمعرفة علوم السياسة وأحوال الأعداء ؛ ليكونوا على بصيرة مما عليه العالم،ومعاملة كل بحسب ما عرف من وضعه، وحالته، ومعرفة حقيقة المصالح والمضار ومراتبها ؛ ليعامل كل بما يستحقه، ويتلاءم معه.

فالشريعة الإسلامية حثت على كل ما يقوي أمور المسلمين ، وما يوجب المحبة بينهم ، وما يتم به التعاون بينهم على جميع مصالحهم الدينية والدنيوية .

وبالجملة فالمؤمن لا يكمل إيمانه إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه ؛ لأن المؤمنين كما شبههم الرسول ﷺ كالبنيان يشد بعضه بعضًا ، وهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

فنسأل الله سبحانه أن يجمع كلمة المسلمين على الهدى ، وأن يرزقهم التمسك بالقرآن الكريم ، وهدي نبيهم ﷺ ، وأن يؤلف بين قلوبهم ، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الثامن عشر

روى البخاري ومسلم رحمهما الله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفد ما عنده ، فقال :

« ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر » .

هذا الحديث الشريف من جوامع كلمه ﷺ التي أعطيها ، وهو حديث عظيم فيه بيان فضل النبي ﷺ وشفقته على أمته ، وحبه الخير لهم ، وسخائه وكرمه ﷺ مع أصحابه، فهو الناصح الأمين عليه الصلاة والسلام، بذل لأصحابه ما عنده حتى نفد ، ثم لما نفد المال زودهم بكنوز من الحكمة والإيمان والتوجيه النبوي الكريم ، فقد اشتمل هذا الحديث على أربع قواعد جامعة لخصال من أفضل خصال الإيمان ، ومن أنفع أنواع البر .

فقوله ﷺ في الجملتين الأوليين : « من يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله » .

في هاتين الجملتين يوجه النبي ﷺ أمته إلى الانصراف عن التعلق

بالمخلوقين ، إلى الاستغناء بالله وحده ، والاستعفاف عما في أيدي الناس، فلا يستشرف له ، أو يتمناه ، أو يمد عينيه إلى ما أوتي أهل الدنيا من زينتها وزهرتها وزخرفها ، يقول عز وجل : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [مريم:١٣١]. وقال عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ، ولا سائل ، فخذه ، وما لا ، فلا تتبعه نفسك » رواه البخاري ومسلم ، وبهذا تتخلص النفس من الذل والخضوع للخلق ، وعن التعلق بهم ، فذلك سبب قوي في حصول العفة ، وراحة الضمير ، ولا يتم ذلك إلا بالاستغناء بالله وحده ، فإنه كلما تعلق القلب بالله ، وقوي رجاؤه به ، ضعف تعلقه بالمخلوقين ، وكلما قوي رجاؤه بالمخلوقين ، وطمعه فيما في أيديهم ، ضعف تعلقه بالله ، ونقص من إيمانه بمقدار ذلك .

وكان من دعاء النبي ﷺ : « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » رواه مسلم . فكم ترى من الناس المكثرين من الدنيا ، ومع ذلك قلوبهم فقيرة ، فهم في لهف على زيادة تحصيلها ، يتعبون أرواحهم وأبدانهم، وربما لا يحضر الصلاة مع الجماعة ؛ لشغله ببيعه وشرائه ، أو يمنع الزكاة خوفًا من نقص ماله ، أو يحلف على الكذب تنفيقًا لسلعته ، أو يتعامل بالمعاملات الربوية ، والغش، والخداع ، إلى غير ذلك من الأمور المحرمة ،

وما حمله على ذلك إلا فقر قلبه، أضف إلى ذلك زيادة همه، واشتغال قلبه الدائم ، مخافة نقص ماله، كما قال أبو الحسن التهامي :

نزاد همًا كلما ازددنا غنى والفقر كل الفقر في الإكثار

وكما قال المتنبي :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وكما قيل :

أفٍّ لدنيا كلما ازددنا غنى زدنا افتقارًا خشية الإقتار

فالغنى الحقيقي هو غنى القلب ، ولا تتم للعبد الحياة الطيبة ، والنعيم الدنيوي ، إلا بالعفاف ، والقناعة بما آتاه الله سبحانه وتعالى :

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل

قال أبو حاتم رحمه الله : من أكثر مواهب الله لعباده ، وأعظمها خطرًا، القناعة ، وليس شيء أروح للبدن من الرضا بالقضاء ، والثقة بالقَسْم ، ولو لم يكن في القناعة خصلة تحمد إلا الراحة ، وعدم الدخول في مواضع السوء لطلب الفضل ، لكان الواجب على العاقل ألا يفارق القناعة على حال من الأحوال ، وقد قيل :

تقنع بالكفاف تعش رضيًا ولا تبغ الفضول من الكفاف

وكل تـــزين بالمـــرء زيـــن وأزينـــــه التزيـــن بالعفـاف

وقال ﷺ في الجملتـين الأخيرتـين : « ومـن يتصـبر يصـبره الله ، ومـا أعطي أحد عطاء خير أوسع من الصبر» .

إن الصبر من أفضل الأعمال ، والصبر من الإيمان بمنزلة الـرأس مـن الجسد ، روى البيهقي في شعب الإيمان ، عن رسول الله ﷺ قال : « لا إيـمان لمن لا صبر له» .

والصبر على ثلاثة أنواع : صبر على طاعة الله، وصبر عن معاصي الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة .

ولما كان الصبر له المنزلة الرفيعة ، والرتبة السامية ، صار عسـيرًا عـلى كثير من الناس ، واحتاج إلى مجاهدة النفس وضـبطها ، ولـذلك قـال عليـه الصلاة والسلام في هذا الحديث : « ومن يتصبر يصبره الله » ، فأتى بصـيغة تصبر ، على وزن تفعل ، الدال على معالجـة الشيـء واحتمالـه ، فـإن قولـه : «يتصبر» أي يجاهد نفسه على الصبر ، فـإذا فعـل ذلـك ابتغـاء مرضـاة الله ، وطلبًا لثوابه ، واستحضارًا لما أعد الله للصابرين ، أعانه الله تعالى ، ولـذلك قال عليه الصلاة والسلام : « يصبره الله » أي : يعينه ، ويسهل عليـه تحمـل الصبر .

والعبد يحتاج إلى الصبر في كل أحواله ، يحتاجه في طاعة الله ، حتى يقوم بها ، ويؤديها على الوجه المطلوب منه مع ما قد يحصل لـه في ذلـك مـن نوع مشقة ، ويحتاج إلى الصبر عن معصية الله حتى يتركها مخالفًا لهـواه ، ورغبته ، وخوفًا من عقاب الله ، وطمعًا في ثوابـه ، ويحتـاج إلى الصـبر على الأقدار المقدرة التي تقع على خلاف مـراده ، فـلا يتسـخطها ، بـل يقابلها بالرضا والتسليم ؛ لأنها من عند الله، ويقول كما أرشدنا القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٦] .

فالمسـلم في كـل أحوالـه يحتـاج إلى الصـبر ، وبالصـبر ينـال الفـلاح والسعادة ، والفوز والرضا ، ويعظم له الأجر ، ويـزول الكـرب بـإذن الله ، ويتحقق له ما يتمناه .

اصبر ففي الصبر ما يغنيك عن حيل
وكل صعـب إذا حاولتـه هانـا

وأعلى أنواع الفلاح والفوز هو حصـول المطلـوب في الآخـرة ، التـي نعيمها لا يحول ، ولا يزول ، بل هو دائم مسـتديم ، ولـذلك أخـبر الله عـز وجل في كتابه في قصة يوسف وصـبره عليـه السـلام عـلى مـا حصـل مـن

أخوته، وصبر أبيه يعقوب ، وقوله عليه السلام : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨] .

وكذا ما حصل لسائر الأنبياء وصبرهم وقيامهم بأمر الدعوة إلى الله ، ومن ذلك ما حصل لنبينا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، وما لقيه يوم العقبة ، وقد أرسل الله له ملك الجبال ، فسلم على النبي ﷺ ، ثم قال : « يا محمد ؛ إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا » رواه البخاري ومسلم .

والله عز وجل يقول : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٤]، وكذلك يقول عز وجل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٧٥].

وهذا الصبر الذي تحصلوا بسببه على ما تحصلوا عليه ، لما صبروا على ما أصابهم من البلاء ، والمحن التي تزعجهم ، وتقلقهم ، ولكنهم صبروا عليها ابتغاء ثواب الله ، وطلبًا لمرضاته ، فينبغي للعبد أن يوطن نفسه ، ويصبر على ما يصيبه .

وينبغي له أن يسأل الله العافية من الابتلاء ، فإن العبد لا يدري كيف

تكون حاله إذا نزل به البلاء ، وقد كان النبي ﷺ يسأل الله العافية، ويقول: « اللهم عافني فيمن عافيت » رواه ابن ماجة ، ويقول ﷺ : « اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي » رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة.

لكن العبد إذا ابتلي صبر ، والله سبحانه وتعالى هو المعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فإذا أصاب الإنسان ما يكره فينبغي له أن يقول كما قال الخليلان إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشدائد : «حسبنا الله ونعم الوكيل » قال الله عز وجل : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] .

اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة ، واجعلنا اللهم من الصابرين الشاكرين .

وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث التاسع عشر

روى البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« إياكم والجلوس في الطرقات ، فقالوا : يا رسول الله : ما لنا بد من مجالسنا ، نتحدث فيها ، فقال رسول الله ﷺ : فإذا أبيتم إلا المجلس ، فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حقه ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى، ورد السلام ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر » .

في هذا الحديث يرشد ﷺ أمته إلى ما يصلح أحوالهم ومجتمعاتهم وأنديتهم ومجالسهم ، ومن ذلك آداب الجلوس في الطريق إذا اضطروا إلى الجلوس فيها ، فلقد وجه النبي ﷺ أصحابه أولاً ، إلى أن يخلو الطريق ، وأن تكون لما أعدت له ، وهو المرور فيها فقط ، فهذا هو الأولى والأكمل .

فإذا كان لابد من الجلوس فيها ، فهو ليس بمحظور شرعًا ، لكن بشروط بيَّنها الرسول الكريم ﷺ ، فمن هذه الآداب والوصايا :

«غض البصر» ، أي : كف بصرك عن النظر إلى المحرمات بجميع أنواعها ، كالنظر إلى النساء الأجنبيات ، والنظر إلى عورات المسلمين ، أو محاولة الاطلاع على ما يحملونه معهم ، مما لا يحبون الاطلاع عليه ، وقد أمر

الله بغض البصر ، كما في قوله سبحانه: قُل﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور:٣٠] ، وقد جاء عنه ﷺ في الأثر القدسي أنه قال : « إن النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة ، من تركها مخافتي أبدلته إيمانًا يجد حلاوته في قلبه » رواه الحاكم في مستدركه وصححه ، والطبراني في الكبير . وجاء التحذير من إطلاق النظر في المحرمات ؛ لما فيه من ضرر على صاحبه كما في هذا الحديث وغيره، فهو سهم مسموم من سهام إبليس، قد يصيب صاحبه هذا السهم إصابة يتعذر معها برؤه ، فتتكدر عليه حياته كلها ، وقد قيل في ضرر النظر على صاحبه :

كل الحوادث مبداهـــا من النظـر

ومعظم النار من مستصغر الشـرر

والمـــرء ما دام ذا عـــين يقلبـها

في أعين الناس موقوف على الخطر

كم نظرة فعلت في قلب صاحبهـا

فعل السهام بلا قـوس ولا وتـر

يســـر ناظـره ما ضـــر خاطـــره

لا مرحبًا بســـرور عـاد بالضـــرر

والنظر كما أن خطره على الرجال وهو الأغلب ، فإن خطره على النساء كذلك ؛ لأن النساء شقائق الرجال فعلى المرأة أن تكف بصرها عن النظر إلى الأجانب ، وتبتعد عن مخالطتهم ، والمرور بمجتمعاتهم ، ولا يجوز لها أن تخلوا بأحد منهم ، وعليها أن لا تخرج من بيتها إلا وهي متسترة محتشمة في مشيتها ، ولباسها ، بعيدة عن الريبة ، ومواضع التهم ، غير متعطرة ، ولا متزينة ، لقوله سبحانه : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور:٣١] ، ممتثلة قوله سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب:٥٩].

وإن واقع النساء اليوم في كثير من البلاد الإسلامية مؤلم جدًا، بل مخز، ومحزن غاية الحزن ، فترى كثيرًا منهن تخرج من بيتها، من بين أهلها وذويها، كاشفة عن مفاتنها بدون خجل أو حياء ، ثم تخترق الأسواق، وتزاحم الرجال ، وكأنها تتعمد ذلك ، تخرج في أوقات الزحام ، لا تبالي بمن مسته ، أو مسها ، أين دين الإسلام الذي يحارب هذا ؟ أين الشيمة العربية التي تأنف من هذا ؟ أين الغيرة الإنسانية التي تستهجن ذلك ؟ كل هذا لا يؤثر عليها ، ولا على أوليائها ، بل ربما رأى بعض الجهلة أن هذا هو التقدم ، وهذه هي الحرية ، ما هذا التقدم ، وما هذه الحرية ، فإن قصد أنه تقدم إلى

الانحلال والانحطاط في الأخلاق فنعم ، وإن قصد بالحرية التحرر من الدين ، والتشبه بالبهائم والحيوانات ، وأن يكونوا كما وصف الله ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩] ، فبئست الحرية ، وبئس ما أرادوا :

مرجت عقول الناس حيث استحسنت

من صنعهـــــا ما اســتهجن العقلاء

تدعــــو التهتـك والســـــفور فضيـلة

ونتـــــــاج ذاك الشـــــر والفحشاء

وإذا الحيـــاء تهتكــــــت أســـــتاره

فعلى العفـاف من الفتـــــاة عفـــــاء

كان بعض الصحابة رضوان الله عليهم يمنعون نساءهم من الخروج حتى للمسجد ، روى ابن خزيمة وابن حبان عن رسول الله ﷺ قال : «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، وليخرجن تفلات» أي غير متطيبات ولا متجملات ، وقالت عائشة رضي الله عنها بعدما توفي ﷺ : والله لو رأى نساء اليوم ، لمنعهن من المساجد ، كما منعت نساء بني إسرائيل . هذا قول عائشة بالنسبة للخروج للمساجد ، فكيف لو رأت عائشة رضي الله عنها خروج نساء اليوم للمساجد ، بل لو رأت خروجهن إلى الأسواق ،

والحفلات ، ودور الملاهي ، التي قد فشت في أكثر البلاد الإسلامية ، فالله المستعان .

فعلى المسلم أن يتقي الله في جميع شؤونه ، وفيما استرعاه الله من النساء والذرية ، وأن لا يترك الحبل على الغارب لبناته ، وزوجاته ، يفعلن ما يردن، فالرجال قوامون على النساء ، قوامون عليهن في كل ما يحتجن إليه ، فليست القوامة خاصة بالنفقة ، بل جميع الشؤون ، ومن أهم ذلك لزومهن لطاعة الله وطاعة رسوله ، والبعد عن مخالفة ذلك ، والأخذ على أيديهن عن كل ما يخدش من كرامتهن ، وينبغي زجرهن عن النظر إلى الأجانب ، فإنه وإن كان النظر إلى النساء محرم بالنسبة للرجال ، فكذلك النساء ورد نهيهن عن التطلع للرجال والنظر إليهم ، فقد روت أم سلمة رضي الله عنها ، قالت : «كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة ، فأقبل ابن أم مكتوم ، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب ، فقال النبي ﷺ : احتجبا منه ، فقلنا يا رسول الله أليس أعمى ، لا يبصرنا ، ولا يعرفنا ؟ فقال النبي ﷺ : أفعمياوان أنتما ، ألستما تبصرانه» . رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

فانظر إلى هذا الحديث الذي أمر فيه ﷺ زوجاته أن يحتجبن من هذا الرجل الأعمى ، وقال لهما : ألستما تبصرانه ، فنهاهما عن النظر إليه ، والنهي عن نظر النساء للرجال ونظرهم إليهن عام لكل أحد ، ما عدا الأقارب ممن يحرم عليهم نكاحهن ، وأما الأقارب الذين لا يحرم عليهم

التزوج بهن ، فلا يجوز له النظر إليها ، ولا لها أن تنظر إليه ، ولا يجوز أن يخلو بها ، وذلك لما جاء عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو ؟ قال : الحمو الموت» . الحديث متفق عليه ، والمراد بالحمو قريب الزوج كأخيه ، وابن أخيه ، وعمه ، وابن عمه .

وقوله ﷺ : « كف الأذى» فهذا أيضًا من حقوق الطريق ، وكف الأذى واجب على كل مسلم ، سواء كان في الطريق أو في غيره ، ولكن لما كان الطريق يسلكه أكثر الناس ، ويراهم الجالسون وربما وقعت أبصارهم على بعض ما فيهم من العيوب ، أو تذكروا عيوبهم عند رؤيتهم ، فربما كان ذلك سببًا للوقوع في أعراضهم، ووصفهم بالأوصاف السيئة ، واغتابوهم، وأي أذى أشد من ذلك ! فهذا من أشد أنواع الأذى الذي يجب على الجالس في الطريق أن يكفه ، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام : «إن أربى الربى الاستطالة في عرض المسلم بغير حق » رواه أحمد وأبو داود ، ولكن مما يؤسف له أشد الأسف في زماننا هذا أن كثيرًا من الناس لم يجلسوا في الطريق ، إلا لهذا الغرض؛ ليتسلوا بالوقوع في أعراض الناس ، وإظهار معايبهم ، وتلقيبهم ، ووصفهم بالألقاب والأوصاف المضحكة ، فربما غمزوا هذا لطوله ، وذاك لقصره ، وآخر لسمنه ، وغيره لنحافته ، أو لمزوه لحسن ثيابه ، أو رداءتها ، أو سرعة مشيه ، أو بطئها ، فالحاصل أن كل من

مر قريبًا منهم وقعوا في عرضه بما فيه ، أو بما ليس فيه ، كما قيل :

لو كنت كالرمح في الأعمال معتدلا

لقالت الناس هذا غير معتـــــدل

فأكثر الناس يحاولون البحث عن عيوب الناس ، وإظهارها بصورة مشوهة ، ومن كان هذا حاله ، فقد خالف أمر الرسول الكريم ﷺ ، وبرهن على نفسه بالشر ، ومحبة الشر ، كما قال الشاعر :

شر الورى من بعيب الناس مشتغل

مثل الذبـــاب يراعي موضع العلل

فهذه صفة من رق دينه ، وضعف عقله ، وقلت مروءته ، وأقبح منه من كان قوله بهتانًا ، فشوه الحقيقة، والواقع كما قال بعضهم :

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا   شـرًا أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

ويدخل في كف الأذى جميع أنواعه وأشكاله ، سواء كان الأذى باللسان ، أو بالإشارة ، أو غير ذلك ، مما يؤدي إلى أذية المارة في الطريق ، ويدخل فيه إزالة ما يؤذي ، كالحفر ، والأحجار ، والشوك ، والأشياء الملوثة ، أو التخلي في طرق الناس، وقد جاءت أحاديث بهذا المعنى، وقد قال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٨] .

وأما الأحاديث الدالة على التحذير من أذية المسلمين والآمرة بفعل المعروف معهم فهي كثيرة :

فمنها ما رواه أبو ذر عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة في كل يوم طلعت فيه الشمس ، قيل : يا رسول الله من أين لنا صدقة نتصدق بها؟ فقال : إن أبواب الخير لكثيرة ، التسبيح ، والتحميد، والتكبير ، والتهليل ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتميط الأذى عن الطريق ، وتسمع الأصم ، وتهدي الأعمى ، وتدل المستدل على حاجته، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف ، فهذا كله صدقة منك على نفسك» رواه ابن حبان في صحيحه .

وفي رواية عند البيهقي : « وتبسمك في وجه أخيك صدقة ، وإماطتك الحجر ، والشوكة ، والعظم من طريق الناس صدقة ، وهديك الرجل في أرض الضالة صدقة» .

وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك ، فأخره ، فشكر الله له ، فغفر له» .

وفي رواية لمسلم : « لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين» .

وفي أخرى لمسلم أيضًا : « مر رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق فقال : والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم ، فأُدْخِلَ الجنة» .

وذكر ﷺ في هذا الحديث أن من حق الطريق (رد السلام) ، وهذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض ، ورد السلام واجب من واجبات الدين ، وإن كان ابتداءه سنة ، ولكن رده واجب .

وقد حث ﷺ على السلام ، ورغب فيه ، وأكده ، وجعله من حقوق المسلمين بعضهم على بعض ، وجعله ﷺ من خير خصال الإسلام ، فقد روى البخاري ومسلم رحمهما الله عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما « أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : أي الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» .

وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : « حق المسلم على المسلم ست : قيل : ما هن يا رسول الله ؟ قال : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه» .

والابتداء بالسلام دليل على التواضع ، دليل على كرم الأخلاق، موجب للمودة ، سبب للرفعة في الدين والدنيا .

فقد روى الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله

ﷺ : «أفشوا السلام كي تعلوا» .

وروى أبو داود والترمذي وحسنه عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام».

كما أن ترك السلام والاستخفاف به دليل على التكبر ، دليل على البخل ، بل البخل بالسلام هو غاية البخل ، كما روى الطبراني بإسناد جيد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أعجز الناس من عجز في الدعاء ، وأبخل الناس من بخل بالسلام» .

وفي حديث جابر الذي رواه الحاكم والإمام أحمد في قصة صاحب العذق ، الذي طلب منه النبي ﷺ أن يشتريه منه بعذق في الجنة ، فامتنع ، فقال ﷺ : «ما رأيت الذي هو أبخل منك إلا الذي بخل بالسلام» .

وأما قوله ﷺ : « والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

فاعلم أيها المسلم أن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر من واجبات الدين ، أوجبه الله على عباده المؤمنين ، وجعل هذه الأمة خير الأمم بسبب أمرها بالمعروف ، ونهيها عن المنكر ، كما قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

وقد حذر ﷺ أمته غاية التحذير من التهاون بهذا الواجب العظيم ، فقال ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم

شراركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » رواه الطبراني في الأوسط والبزار.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر قبل أن تدعو الله فلا يستجيب لكم ، وقبل أن تستغفروه فلا يغفر لكم » .

ولما ترك الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لعنهم الله على لسان أنبيائهم ، ثم عموا بالبلاء .

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تزال لا إله إلا الله تنفع من قالها ، وترد عنهم العذاب ما لم يستخفوا بحقها ، قالوا : يا رسول الله ، وما الاستخفاف بحقها ؟ قال : يظهر العمل بمعاصي الله فلا ينكر ولا يغير» رواه الأصفهاني .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم : يا ظالم ، فقد تودع منهم » رواه أحمد والحاكم وصححه.

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت : « دخل علي رسول الله ﷺ فعرفت في وجهه أن قد حضره شيء ، فتوضأ وما كلم أحدًا ، فلصقت بالحجرة أستمع ما يقول ، فقعد على المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :

يا أيها الناس إن الله يقول لكم : مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم ، وتسألوني فلا أعطيكم ، وتستنصروني فلا أنصركم، فما زاد عليهن حتى نزل» رواه ابن حبان في صحيحه .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول : يا هذا اتق الله ، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قرأ : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٧٨-٨٠] ، ثم قال : كلا والله ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ،ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرًا» الحديث رواه أبو داود واللفظ له والترمذي .

وروى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذونه بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنه تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم

بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» .

وروى البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم ، نجوا ، ونجوا جميعًا » .

ففي هذه الآيات والأحاديث الشريفة التي سقناها ما يدل على وجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومعلوم أنه من فروض الكفاية ، إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين ، وإذا لم يقم به أحد أثم الكل ، هذا إذا علم به الكل ، وأما المنكر الذي لا يعلمه إلا شخص ، فإنه يتعين عليه وحده تغييره ، وإن علمه اثنان وجب عليهما ، فتغيير المنكر واجب على من علم به ، وتغييره يكون على حسب قدرة الشخص ، والناس على مراتب في ذلك ، والنبي ﷺ وضح لنا ذلك غاية الإيضاح ، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الذي رواه مسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، والنسائي ، ولفظ النسائي أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى منكم منكرًا فغيره بيده ، فقد برئ ، ومن لم يستطع أن يغيره بيده

فغيره بلسانه ، فقد برئ ، ومن لم يستطع أن يغيره بلسانه فغيره بقلبه ، فقد برئ وذلك أضعف الإيمان» .

فهذه مراتب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فعلى المؤمن أن يجاهد نفسه على ذلك ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويستعمل الرفق ما أمكنه ؛ لأن ذلك أدعى للقبول .

والغرض من الأمر بالمعروف هداية البشر ، ودلالتهم على ما ينفعهم، ويقربهم إلى الله ، وليحذر الداعي أن يستعمل العنف أو الشدة ، فإن ذلك قد يكون سببًا من أسباب عدم القبول ، فيفوت المقصود ، ولا ينبغي أن يكون الإنسان هدفه براءة الذمة فحسب ، بل يحرص كل الحرص على أسباب القبول ؛ حتى يفوز بالأجر الأوفر ، والجزاء الكثير منه سبحانه، كما قال ﷺ: « والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا ، خير لك من حمر النعم » رواه البخاري . فإن حصل القبول فهو المطلوب ، وإذا لم يحصل فقد برأت الذمة .

كما أنه ينبغي للآمر الناهي أن يحذر من المخالفة في الذي يأمر الناس ، ولا يأتمر ، وينهى ، ولا ينتهي ، كما جاء ذلك في صحيح البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أقتاب بطنه أي أمعاؤه ، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى ، فيجتمع إليه الناس ،

فيقولون يا فلان : مالك ألم تكن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ، ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر ، وآتيه » ، قال : وسمعته يقول-يعني النبي ﷺ- : «مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، قلت : ما هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خطباء أمتك من أهل الدنيا ، كانوا يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » رواه أحمد .

ولهذا شواهد من القرآن الكريم ، يقول الله سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف:٢-٣] ، ويقول سبحانه : ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة:٤٤] .

وليحذر المأمور بالمعروف أن يرد الحق ولا يقبله ، فإن هذا فيه خطر عظيم ، ويدل على الكبر ، وقلة الإيمان ، وضعف العقل، وقد توعد الله سبحانه من يرد الحق، ولا يقبله ، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [البقرة:٢٠٦] .

اللهم إنا نسألك الاستقامة ، ونعوذ بك من الحسرة والندامة آمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث العشرون

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه :

« أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أوصني ، قال : لا تغضب ، فردد مرارًا ، قال : لا تغضب » .

وفي الترمذي بلفظ : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني شيئًا ولا تكثر علي ، لعلي أعيه ، قال : لا تغضب ، فردد مرارًا ، كل ذلك يقول : لا تغضب » .

ففي هذا الحديث يوصي النبي ﷺ من طلب منه الوصية بأن لا يغضب ، وهذه وصية وجيزة نافعة جامعة لخصال الخير كلها ، أوجزها ﷺ؛ ليحفظها عنه ، ثم ردد هذه المسألة عليه مرارًا ، والنبي ﷺ يردد عليه هذه الوصية ، فهذا يدل على أن الغضب جماع الشر ، وأن التحرز منه جماع الخير.

قال أبو حاتم رحمه الله : سرعة الغضب من نسيم الحمقى ، كما أن مجانبته من زي العقلاء ، والغضب بذر الندم ، فالمرء على تركه قبل أن يغضب أقدر على صلاح ما أفسد به بعد الغضب ، وقد قيل في هذا المعنى :

ولم أر فضلاً تم إلا بشيمة

ولم أر عقلاً صح إلا على الأدب

ولم أر في الأعداء حين اختبرتـــــهم

عدوًا لعقل المرء أعدى من الغضب

وقيل لابن المبارك : اجمع لنا حسن الخلق في كلمة ، فقال: ترك الغضب .

كما روي عن أبي العلاء بن الشخير « أن رجلاً أتى النبي ﷺ من قبل وجهه فقال : يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ فقال : حسن الخلق ، ثم أتاه عن يمينه ، فقال يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتاه عن شماله ، فقال : يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ فقال : حسن الخلق ، ثم أتاه من بعده - أي من خلفه- فقال : يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ فقال : فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، فقال : ما لك لا تفقه ، حسن الخلق هو أن لا تغضب إن استطعت » رواه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة.

فقوله ﷺ للرجل الذي طلب منه الوصية : لا تغضب ، يحتمل أمرين، كما قال ابن رجب رحمه الله :

أحدهما : أن يكون مراده الأمر بالأسباب التي توجب حسن الخلق من الكرم والسخاء والحلم والأناة والحياء والتواضع والاحتمال وكف الأذى عن الناس ، ونحو ذلك ، فإن النفس متى ألفت هذه الأخلاق

الفاضلة ، وصارت عادة لها ، أوجب ذلك دفع الغضب عند وجود أسبابه.

والمعنى الثاني : أن المراد بقوله : «لا تغضب» : أي لا تعمل بمقتضى غضبك إذا حصل لك ، بل جاهد نفسك على ترك تنفيذه ، والعمل بما يأمر به ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » رواه البخاري ومسلم .

وقال مجاهد : قال إبليس : ما أعجزني بنو آدم ، فلن يعجزوني في ثلاث: إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته ، فقدناه حيث شئنا ، وعمل لنا بما أحببنا ، وإذا غضب ، قال بما لا يعلم ، وعمل بما يندم ، والثالثة نبخله بما في يده ، ونمنيه بما لا يقدر عليه . رواه ابن أبي الدنيا .

وقيل لحكيم : ما أملك فلانا لنفسه قال : إذًا لا تذله الشهوة ، ولا يصرعه الهوى ، ولا يغلبه الغضب .

وقال بعضهم : إياك والغضب ، فإنه يصيرك إلى ذل الاعتذار .

وقال الحسن : من علامات المسلم قوة في دين ، وحزم في لين، وإيمان في يقين ، وعلم في حلم ، وكيس في رفق ، وإعطاء في حق، وقصد في غنى ، وتجمل في فاقة ، وإحسان في قدرة ، وصبر في شدة لا يغلبه الغضب ، ولا تجمح به الحمية ، ولا تغلبه شهوة ، ولا تفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرص،

ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ، ويرحم الضعيف ، لا يبخل ، ولا يبذر، ولا يسرف ، ولا يقتر ، يغفر إذا ظلم ، ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه في عناء ، والناس منه في رخاء .

ولقد مدح الله جل شأنه عباده المؤمنين ، ووصفهم بالمغفرة لمن أساء إليهم ، وعدم تنفيذ غضبهم ، فقال سبحانه:﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى:٣٧] ، وقال سبحانه في وصف الكفار ، وأنهم لا يستطيعون كبح جماح نفوسهم ، بل يغضبون ، ويظهرون الحمية ، حمية الجاهلية ، التي لا تعرف معروفًا ، ولا تنكر منكرًا ، فقال سبحانه : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح:٢٦] ، وقال عن المؤمنين وصفهم بما أنزل في قلوبهم من السكينة والوقار ، فقال سبحانه : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح:٢٦] . فذم الكافرين بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب والتهور بالباطل ، ومدح رسوله والمؤمنين ، وأثنى عليهم بما أنزل عليهم من السكينة والوقار والثبات .

فعلى المسلم أن يتخلق بالأخلاق الفاضلة التي تبعده عما يشينه ، ويوقعه في الورطات .

ومن المعلوم أن الغضب في الغالب يكون جبلة ، وطبيعة للإنسان ، ولا يسلم منه أحد ، ولكن مستقل ، ومستكثر ، ومن ملك نفسه ، ولم يعمل

بمقتضى غضبه فهو كمن لم يغضب، لأن الغضب ينمو ويزيد مع عدم كبته، ومع إرخاء العنان للنفس ، وعدم كبحها ، كما أنه مع محاولة كتمه وعدم إظهاره يخف . وربما كثر غضب المرء بالمخالطة ، سيما مخالطة أهل الجهل والحمق ، الذين لا يفكرون في العواقب ، وما يجنيه عليهم غضبهم وتسرعهم ، فكم شخص نفذ غضبه بطلاقه لزوجته ، وتفريق شمله ، فتكدر بذلك عيشه ، وساءت حاله ، وتفرق أولاده ، وشمت به عدوه ، ورحمه صديقه ، ورق له جاره ، وكم من شخص ، نفذ غضبه ، وتكلم بكلام يؤاخذ عليه ، فناله من العقوبة ، والتوبيخ ، وسوء السمعة ، ما لم يحسب له حسابًا ، وإذا صبر المرء على بعض ما يكره ، ولم ينتقم ، ولم ينفذ غضبه كان أسلم له غالبًا ، وأهدأ لباله ، وأنعم لعيشه ، فقد يسمع الإنسان ما يكره ، ثم يريد أن ينتصر ، فيزداد عليه الأمر ، وتشتد عليه الوطأة ، وكلما حاول تفادي ما يكره ، ويرده تضاعف عليه ، فإذا صبر للقليل ، سلم من الكثير ، كما قيل في المعنى :

فاصبر لواحدة تأمن عواقبـــها فربما كانت الصغرى من الأول

وقد روى عن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما جرع عبد جرعة أعظم أجرًا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله » رواه البيهقي في شعب الإيمان.

وقال عمر رضي الله عنه : « من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف

الله ، لم يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون » .

وقال محمد بن كعب القرظي : «ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله: إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له » .

وقال لقمان لابنه : « يا بني لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ، ولا تشف غيظك بفضحتك ، واعرف قدرك ، تنفعك معيشتك » .

فلا شك أن الغضب نتائجه وخيمة ، وعاقبته أليمة ، وأن على العاقل أن يحاول الابتعاد عنه مهما أمكنه ، فإن من اتصف به يخرج عن حالته الطبيعية ، ويكون في حالة لا يرضاها لنفسه ، ولا لغيره عند زوال الغضب، ورجوعه إلى حالته الطبيعية .

فينبغي للمسلم الابتعاد عن أسباب الغضب ، وإذا وقع فيه فإنه يحرص كل الحرص على كظم ما استطاع ، وعدم التنفيذ لما يحمله عليه غضبه، فإن هذا الفعل يدل على قوة المرء ، وشدة احتماله ، ورجاحة عقله، وسعة حلمه ، فهو إذا أغضبه أحد لا يستثيره ، ولا يخرج عن طوره ، بل يجيبه، وهو في حالة العقل والحلم غير مكترث بما يلقى عليه من الكلمات النابية ، ويترك إجابته مع قدرته على الإجابة ، ومعرفة عيوب مغاضبه ، فيتركه ترفعًا عن مجاراته ، لئلا يتصف بوصف ذلك السفيه ، فإنه إن جاراه على سفهه ، وأجابه على جهله ، فقد صار مثله كما قيل :

إذا جاريت في خلق دنيء فأنت ومن تجاريه سواء

بل يحلم عليه ، ويصفح عنه ؛ ليتصف بصفات ذوي الألباب ، وأهل الحلم والنهي ، وقد قيل في هذا في المعنى :

وذي خطل في القول يحسب أنه مصيب فما يلمم به فهو قائله

خبأت له حلمًا وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله

ولذلك لما قيل للأحنف بن قيس : ما أحلمك !! قال : إني أجد ما تجدون ، ولكني أصبر .

فهو يجد ما يجده الناس من شدة الغضب لمن أغضبه ، لكنه يملك غضبه ، ويغلب عقله هواه ، وليس ممن يغلب هواه عقله ، ويقول ابن دريد في هذا المعنى :

لست إذا ما بهضتني غمرة ممن يقول بلغ السيل الزبى

وإن ثوت بين ضلوعي زفرة تملأ ما بين الرجا إلى الرجا

نهنهتها مكظومة حتى يُرى مخضوضعًا منها الذي كان طغى

ولقد أرشدنا ﷺ إلى الأسباب التي تذهب الغضب ، فقد روى أحمد وأبو داود عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع » .

وقد قال بعض العلماء رحمهم الله : إن المعنى في هذا أن القائم متهيء للانتقام ، والجالس دونه في ذلك ، والمضطجع أبعد منه ، فأمره بالتباعد عنه حال الانتقام ، ويشهد لهذا ما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم تتوقد ، ألم تروا إلى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ، فإذا وجد أحدكم ذلك فليجلس ، أو قال : فليلصق بالأرض» رواه أحمد والترمذي وصححه، والمراد أنه يحبسه بنفسه، ولا يعديه إلى غيره ، بالأذى والفعل ، ولهذا قال النبي ﷺ في الفتن : «ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيرًا من الجالس ، والجالس فيها خيرًا من القائم ، والقائم خيرًا من الماشي ، والماشي خيرًا من الساعي » رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه ، وإن كان هذا على وجه ضرب المثال في الإسراع في الفتن .

وفي مسند أحمد رحمه الله من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إذا غضب أحدكم فليسكت » قالها ثلاثاً .

ومن علاج الغضب أيضًا ما روي عنه ﷺ أنه قال : «إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » رواه الإمام أحمد وأبو داود.

وقد ورد في فضائل ترك الغضب ، ومحاولة ضبط النفس أحاديث منها ، ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

« ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن معاذ بن أنس الجهني عن النبي ﷺ قال : « من كظم غيظًا وهو يستطيع أن ينفذه ، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، حتى يخيره في أي الحور شاء » .

وقال الحسن رحمه الله : أربع من كن فيه عصمه الله من الشيطان ، وحرمه على النار : من ملك نفسه عند الرغبة والرهبة والشهوة والغضب .

والغضب هو غليان دم القلب ؛ طلبًا لدفع المؤذى عنه خشية وقوعه، أو طلبًا للانتقام ممن حصل له منه الأذى بعد وقوعه ، وينشأ من ذلك كثير من الأفعال المحرمة ، وأن يكون غضبه دفعًا للأذى في الدين له ، أو لغيره ، وانتقامًا ، وغضبًا لله ، كما قال عز وجل: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٤] .

وهذه حالة أكمل الخلق ﷺ ، فإنه لا ينتقم لنفسه ، ولم يضرب ﷺ بيده خادمًا ، ولا امرأة ، خلا أن يجاهد في سبيل الله .

وجاء عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان خلقه القرآن ، يرضى لرضاه ، ويسخط لسخطه» رواه البيهقي في شعب الإيمان . ولقد قيل في كظم الغيظ :

وكظمي الغيظ أولى من محاولتي غيـظ العـــدو باضـرار بإيـماني

لا خـير في الأمـر ترديني مغبتـه يوم الحساب إذا ما نص ميزاني

اللهم اجعلنا للغيظ كاظمين . وألحقنا بالصالحين ، وصـلى الله وسـلم على محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الحادي والعشرون

روى البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

هذا الحديث الشريف اشتمل على جملة من الآداب الشرعية التي تدل على حسن إيمان من اتصف بها ، وأن الاتصاف بها من كمال الإيمان ، وذلك أن الإيمان يزيد وينقص ، فيزيد بالطاعة وكثرة العبادات ، وينقص بالمعصية وكثرة السيئات ، وقد ورد في بيان زيادة الإيمان بالأعمال الصالحة عدة آيات وجملة من الأحاديث الشريفة .

ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ [البقرة:١٤٣] أي صلاتكم ، فسمى الله الصلاة من الإيمان ، وقد قال الإمام البخاري في صحيحه رحمه الله : باب الصلاة من الإيمان ، وقول الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ يعني: صلاتكم عند البيت ، ثم ساق رحمه الله بسنده عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة ، نزل

على أجداده ، أو قال على أخواله من الأنصار ، وأنه صلى قِبَل بيت المقدس ستة عشر شهرًا ، أو سبعة عشر شهرًا ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن صلى معه ، فمر على أهل مسجد ، وهم راكعون ، فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت ، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس وأهل الكتاب ، فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك ، قال زهير : حدثنا أبو إسحاق عن البراء في حديثه هذا أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجالٌ ، وقتلوا ، فلم ندر ما نقول فيهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ ﴾ فهذا يدل على أن الصلاة من الإيمان ، وقد قال البخاري رحمه الله: باب قيام ليلة القدر من الإيمان ، باب الجهاد من الإيمان ، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان ، فكل الأعمال الصالحة داخلة في مسمى الإيمان ، وأبلغ من هذا وأصرح قوله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » أخرجه البخاري ومسلم . وقد تقدم شرحه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال لوفد عبد القيس: « آمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع : الإيمان بالله ، وهل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم

رمضان ، وأن تعطوا من المغانم الخمس » رواه البخاري ومسلم في صحيحهما ، واللفظ للبخاري .

ولهذا عرَّف السلف رحمهم الله الإيمان ، فقالوا : هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان ، وعمل بالأركان . ولذلك كان الإيمان يزيد وينقص ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال:٤٢]، وقال عز وجل:﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح:٤]، وقال السفاريني رحمه الله في نظمه لعقيدة أهل السنة والجماعة :

إيماننا قـــول وقصـــد وعمـل   تزيـــده التقوى وينقص بالزلل

وقال في نظم العقيدة الشيبانية :

وإيمـاننا قــول وفعــل ونيـــة   ويزداد بالتقوى وينقص بالردى

وقد قال الإمام البخاري رحمه الله : باب زيادة الإيمان ونقصانه . وقول الله عز وجل : ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف:١٣] . ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر :٣١]،وقال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة:٣]، فإذا ترك شيئًا من الكمال فهو ناقص ، ثم ساق بسنده عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة

من خير » ، وفي رواية : «من إيمان» ، بدل : «من خير» .

وقد قيل لسفيان بن عيينة : إن قومًا يقولون : الإيمان كلام ، فقال : كان هذا قبل أن تنزل الأحكام ، فأمر الناس أن يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها ، عصموا دماءهم وأموالهم ، فلما علم صدقهم أمرهم بالصلاة ، ففعلوا ، ولو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار ، فذكر الأركان إلى أن قال : فلما علم ما تتابع عليهم من الفرائض وقبولهم ، قال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة:٣] ، فمن ترك شيئًا من ذلك كسلاً ، أو مجونًا ، أدبناه عليه ، وكان ناقص الإيمان ، ومن تركها جاحدًا ، كان كافرًا . انتهى ملخصًا .

واعلم أخي المسلم أن أعمال الإيمان تارة تتعلق بحقوق الله ، كأداء الواجبات ، وترك المحرمات ، ومن ذلك قول الخير والصمت عن غيره .

وتارة يتعلق بحقوق عباده ، كإكرام الضيف ، وإكرام الجار ، والكف عن أذاه . فهذه ثلاثة أشياء يؤمر بها المؤمن أحدها قول الخير والصمت عما سواه .

وقد روى الطبراني من حديث أسود بن أصرم المحاربي قال : «قلت : يا رسول الله ، أوصني ، قال : هل تملك لسانك ؟ قلت : ما أملك إذا لم أملك لساني ، قال : فهل تملك يدك ؟ قلت : فما أملك إذا لم أملك يدي ، قال : فلا تقل بلسانك إلا معروفًا ، ولا تبسط يدك إلا إلى خير» .

وقد ورد أن استقامة اللسان من خصال الإيمان كما في مسند الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » .

وجاء في صحيح البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، لا يلقى لها بالاً ، يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، لا يلقى بها بالاً ، يهوي بها في جهنم » .

فهذه الأحاديث وغيرها كثير عن النبي ﷺ تدل على وجوب حفظ اللسان ، وعدم إطلاقه في كثرة الكلام ، فإن الرجل قد يتكلم بالكلام السيء ، وهو لا يحسب له حسابًا ، وتتكاثر عليه السيئات والذنوب ، وهو لا يشعر ، ولا يظن أنه عمل بهذا معصية ، فعلى المسلم الناصح لنفسه أن يلقي باله من كل ما يتكلم به ، فإن علم أنه خير تكلم ، وإن علم أنه ليس فيه خير أمسك ، وإذا شك فيه فتركه أولى ؛ لقوله عليه الصلاة السلام : «فليقل خيرًا أو ليصمت» . فإذا لم يعلم أنه خير فليصمت امتثالاً لأمره ﷺ.

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : «إياكم وفضول الكلام ، حسب امرئ ما بلغ حاجته» .

وعن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا إلى النبي ﷺ : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس

عن الله القلب القاسي » رواه الترمذي وحسنه.

وكان أبو بكر رضي الله عنه من شدة خوفه من لسانه ، ومراقبته لربه، يأخذ بلسانه ، ويقول : «هذا أوردني الموارد» .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « والله الذي لا إله إلا هو ما على الأرض أحق بطول سجن من اللسان » .

وقد أكثر العلماء والحكماء والأدباء في الحث على قلة الكلام ، والأمر بحفظ اللسان .

قال الشاعر :

أقلل كلامك واستعذ من شره   إن البلاء ببعضه مقرون

واحفظ لسانك واحتفظ من غيه   حتى يكون كأنه مسجون

وَكِّل فؤادك باللسان وقل له   إن الكلام عليكما موزون

فزناه وليك محكمًا ذا قلة   إن البلاغة في القليل تكون

أما قوله عليه الصلاة والسلام : « فليكرم جاره » : فاعلم أن إكرام الجار ، وكف الأذى عنه قد ورد فيه جملة من الأحاديث الصحيحة ، منها ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وأخرج الطبراني وأبو يعلى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع» .

وأخرج البخاري رحمه الله في كتاب الأدب عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة ، فيقول: يارب ، هذا أغلق بابه دوني ، يمنع معروفه » .

وكما أنه ﷺ أمر بإكرام الجار ، وعده من صفات المؤمن ، فإنه أيضًا حذر من أذيته ، وشدد في ذلك .

ففي صحيح البخاري عن أبي شريح عن النبي ﷺ قال : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . قيل : من يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه » .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » .

وروى الإمام أحمد والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قيل: يا رسول الله ، إن فلانة تصلي بالليل ، وتصوم النهار ، وفي لسانها شيء، يؤذي جيرانها سليطة ، قال : لا خير فيها ، هي في النار . وقيل له : إن فلانة تصلي المكتوبة، وتصوم رمضان، وتتصدق بالأثوار من الأقط، وليس لها شيء غيره ، ولا تؤذي أحدًا ، قال : هي في الجنة » .

فهذه أيها المسلم جملة من أحاديث المصطفى تبين هديه ﷺ في حقوق الجيران ، والإحسان إليهم ، والنهي عن أذيتهم ، والإساءة إليهم ، فينبغي لنا الإحسان إلى الجيران ، وتفقد أحوالهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، فإن ذلك من الشفقة عليهم ، والنصح لهم ، ويكون ذلك برفق ولين ؛ ليكون أدعى إلى القبول وحصول المقصود ، والسلامة من عدم قبول النصيحة ، فإنه إذا لم يقبل النصيحة ، ربما كانت سببًا في زيادة ما نهى عنه مراغمة لمن أمره أو نهاه .

وقد قال الله عز وجل في الحث على إكرامه والإحسان إليه : ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦] ، فجمع الله تعالى في هذه الآية حقه على العباد ، وحقوق العباد بعضهم على بعض ، وذكر منهم سبحانه الجار ذي القربى ، أي : الجار القريب منك نسبًا ، والجار الجنب ، أي : الجار الذي ليس بينك وبينه قرابة. وفي ذكر الجار في الآية تأكيد على عظم حقهما كما ورد في الحديث .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

فاعلم أن إكرام الضيف مما أمر به الشارع ، وحث عليه ﷺ ، وجعله من علامات الإيمان ، والمراد بإكرامه الإحسان إليه بضيافته ، فقد جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم رحمهما الله من حديث أبي شريح رضي الله عنه قال : سمعت أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم النبي ﷺ فقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه جائزته ، قال : وما جائزته يا رسول الله ؟ فقال : يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة أيام ، وما كان بعد ، فهو صدقة» . وفي رواية لمسلم «ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه ، قالوا : يا رسول الله كيف يؤثمه ؟ قال : يقيم عنده ، ولا شيء له يقريه به» .

وقد ورد عن النبي ﷺ عدة أحاديث تدل على وجوب قرى الضيف ، وأن من نزل بفنائك واستضافك وجب عليك ضيافته ، تأثم بتركه ، وعدم القيام به ، وتثاب عليه إذا قمت به ، ومن ذلك ما رواه أبو داود عن المقدام ابن معدي كرب عن النبي ﷺ قال : «ليلة الضيف حق على كل مسلم، فمن أصبح بفنائه ، فهو عليه دين ، إن شاء اقتضى ، وإن شاء ترك» .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قلنا: يا رسول الله إنك تبعثنا ، فننزل بقوم لا يقروننا ، فما ترى ؟ فقال لنا رسول الله ﷺ : « إن نزلتم بقوم ، فأمروا لكم بما ينبغي للضيف ، فاقبلوا ، فإن لم يفعلوا ، فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم» .

وروى الإمام أحمد والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أيما ضيف نزل بقوم ، فأصبح الضيف محرومًا ، فله أن يأخذ بقدر قراه ، ولا حرج عليه» .

فهذه النصوص تدل على وجوب الضيافة يومًا وليلة ، كما قال بذلك من الأئمة رحمهم الإمام أحمد بن حنبل ، والليث بن سعد ، إمام أهل مصر في زمانه ، وقال الإمام أحمد : له المطالبة بذلك إذا منعه ؛ لأنه حق له واجب.

وقد وردت أحاديث تدل على فضيلة إطعام الطعام ، سواء كان لضيف أو غيره ، فقد روي عنه ﷺ أنه قال : « أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » رواه الترمذي وصححه ، والحاكم في مستدركه .

وقد كان العرب يعتبرون بذل الطعام من السؤدد ، وقد قال أبو حاتم: كل من ساد في الجاهلية والإسلام حتى عرف بالسؤدد ، وانقاد له قومه ، ورحل إليه القريب والقاصي ، لم يكن كمال سؤدده إلا بإطعام الطعام ، وإكرام الضيف . والعرب لم تكن تعد الجود إلا قرى الضيف، وإطعام الطعام ، ولا تعد السخي من لم يكن فيه ذلك ، حتى أن أحدهم ربما سار في طلب الضيف الميل والميلين ، وقد قيل في ذلك :

إذا ما أتاك الضيف فابدأ بحقه قبل العيال فإن ذلك أصوب

وعظم حقوق الضيف واعلم بأنه عليك بما توليــه مثن وذاهـــب

كما ينبغي ملاطفة الضيف ، وإدخال السرور عليه ؛ ليشعر منك بالفرح به ، والاستبشار بقدومه ، وقد قيل في هذا المعنى :

وإني لطلق الوجـــه للمبتغي القـرى

وإن فنـــائي للقـرى لرحيـــب

أضاحك ضيفي عند إنزال رحـــله

فيخصب عندي والمحل جديـــب

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى

ولكنما وجـه الكريـــم خصـيب

نسألك اللهم أن تهدينا لأحسن الأخلاق ، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الثاني والعشرون

روى البخاري ومسلم عن عمران بن حصين رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال :

« خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ، ولا يستشهدون ، ويخونون ، ولا يؤتمنون ، وينذرون ، ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن» .

هذا الحديث فيه دلالة واضحة على تفاضل هذه الأمة ، وأن بعضهم أفضل من بعض ، وفيه إخباره ﷺ بفضيلة هذه القرون الثلاثة ، أو الأربعة، كما جاء ذلك مصرحًا به في بعض روايات الحديث ، وأنها تتفاوت بالفضل.

فالقرن الأول هو أفضلها ؛ لأنه امتاز عن غيره بصحبته ﷺ ونزول الوحي عليه وهو فضل لا يمكن من فاته تداركه أو ما يماثله ، كما امتازوا عن غيرهم بفضيلة السابقة في العلم ، والإيمان ، والأعمال الصالحة ، التي يتنافس فيها المتنافسون ، ويتفاضل فيها المتفاضلون ، فغلب فيهم الخير ، وكثر أهله ، وقل فيهم الشر وأهله ، واعتز فيهم الإسلام ، والإيمان ، وصفت سرائرهم، وطهرت قلوبهم ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، وأخذوا العلم مشافهة عنه ﷺ ، وفهموا مقاصده ، وعلموا أسراره ، وبذلوا

أموالهم ، ونفوسهم في سبيل الله ، وقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى، يقاتلون بين يديه ﷺ، وعن يمينه ، وعن شماله، ومن خلفه، أشداء على أعداء الدين ، رحماء بالمؤمنين ، رهبان بالليل، وأسود بالنهار ، إن انتهكت محارم الله انتقموا انتقام الأسد ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصدهم عن دينهم قطع الرقاب ، والجماجم .

ومع هذا كله فهم في تواضع ، وذلة لبعضهم من المؤمنين ، يحاسب نفسه عن الكلمة ، ويخوفها عن النظرة .

يقضي ليله في ركوع ، وسجود ، وقيام ، وقعود ، وتلاوة ، وخشوع ، وخوف ، وخضوع ، ويختم سحره بالتوبة والاستغفار، والتذلل والانكسار بين يدي إلهه وبارئه ، ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف .

أثنى عليهم القرآن بآيات تتلى ، وفضائل تجلى ، فخذ وصفهم من عند خالقهم، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٨-٩] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ

قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان:٦٣-٦٦] إلى آخر الآيات .

ويخبر سبحانه عن رضاه عنهم بقوله جل وعلا : ﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح:١٨].

فهذه حالة أصحاب رسول الله ، أو هذا وصف لبعض حالتهم رضي الله عنهم ، فلذلك أخبر ﷺ أنهم خير قرون هذه الأمة ، وناهيك بهذه الفضيلة ، وهذه الشهادة منه ﷺ .

وقد بين النبي ﷺ في هذا الحديث وغيره فضلهم على من سواهم ، وفَضَّل منهم الخلفاء الراشدين ، وأوصى أمته بالتمسك بسنته ، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ، وبين ﷺ فضل أهل بدر، وبشر عشرة من الصحابة بالجنة، وبشر آحادًا منهم كذلك، وأفضل الصحابة على الإطلاق: أبو بكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وعن سائر صحابة رسول الله أجمعين .

ثم حصلت الفضيلة لمن بعدهم ، وفازوا بقصب السبق على كل أحد، سوى من تقدمهم من الصحابة ، فازداد في وقتهم ظهور الإسلام ، وكثر الداعي إليه ، والراغب فيه ، والقائم به ، ولم تكثر في زمنهم البدع التي

انتشرت بعدهم ؛ لأنه متى ظهر شيء منها استنكروه ، واستعظموه ، وسارعوا إلى إزالته ، وإحباطه ، واحتقروا محدثها، وأهانوه ، فأهل البدع فيهم على قلتهم في غاية من الذل ، والمقت ، والهوان ، وأوقعوا القتل فيمن عاند ، وكابر ، ولم يرجع عن غيه ، ويتب إلى ربه .

ثم يلي هؤلاء في الفضيلة القرن الثالث ، وهم الذين أثنى عليهم ﷺ ، ووصفهم بالخيرية على من بعدهم ، ظهر بينهم شيء من البدع والمنكرات ، لكن العلماء فيهم متوافرون ، والإسلام فيهم ظاهر ، وعزيز ، والجهاد فيهم قائم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معزز .

ثم لما انقضت القرون المفضلة وقع ما وقع ، وحدث ما حدث ، مما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ ، فكثر الجفاء في الدين ، وتشعبت الآراء ، وتكاثرت الأهواء ، وتنوعت البدع ، ووجد لها أنصارًا ، ودعاة ، وأعوانًا ، وكثرت المعاصي ، واستخف بالأمانة ، ووقعت شهادة الزور ، وما زال الوازع الديني يضعف ، والشهوات تتغلب ، وحب الدنيا يتقوى ، والهوى يستولي ، كما قال الله عز وجل : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم:٥٩].

وفي كل عام يزيد أهل هذا الوصف ، ويكثرون ، كما جاء في الحديث «لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم» رواه البخاري ، فظهرت الخلافات الدينية ، والسياسية ، وتكاثرت الأهواء ،

وتعددت المذاهب ، والأحزاب، والطرق ، وتباينت النزعات ، والمشارب ، قد رغب أكثرهم عن الآخرة، ورضوا بالحياة الدنيا ، واطمأنوا بها ، وزهدوا فيما عند الله ، وبحبهم الدنيا والرئاسة عموا وصموا ، فأهلكتهم الأنانية ، وحب الذات ، وقلة الورع ، فما وقع في اليد ، وأمكن الاستيلاء عليه ، فهو الحلال عند الأكثرين .

ما اسـطاع أن يحو به فهو مراده ذاك الحلال فما بــه من عـــار

المعاملات الربوية فشت، وانتشرت عند كثيرين، بل وبعض المنتسبين للعلم ، بتأويل غير سائغ ، أو بدون تأويل ، من أجل عرض زائل.

نرقــع دنيانــا بتمزيــق ديننــا فلا ديننــا يبــقى ولا ما نـرقع

فشت وكثرت شهادة الزور ، فلذلك يقول ﷺ في هذا الحديث : « ثم يأتي قوم يشهدون ، ولا يستشهدون ، ويخونون ، ولا يؤتمنون ، وينذرون ، ولا يوفون » ، يشهد شهادة بأدنى عرض من الدنيا ، بل ربما تبرع بشهادة الزور ؛ لقلة دينه، إما نصرة لصاحبه ، أو إغاظة لعدوه ، أو رجاء نفع لنفسه ، أو كف شر عنها ، يرمي نفسه في الزور والبهتان ، كما يرمي الفَرَاش نفسه على النار ، غير مكترث بتهديد القرآن ، وزجره الشديد ، حيث يقول سبحانه: ﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج:٣٠] وقول النبي ﷺ :« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قالوا : بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ثم جلس وكان متكئًا ، فقال : ألا وقول

الزور ، فما زال يكررها ، حتى قلنا : ليته سكت » رواه البخاري ومسلم .

وأخبر ﷺ بكثرة الخيانة في آخر الزمان ، والخيانة تكون في المال ، وهو الأكثر ، وتكون في غيره ، تكون في ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر، تكون في الوقوع بالكذب والبهتان ، تكون في إساءة الظن بأخيه المسلم ، يحقق ظنه السيء بدون دليل أو برهان .

وذكر ﷺ الذين ينذرون ولا يوفون ، وقد عابهم ﷺ بذلك ؛ لأن الوفاء بالنذر واجب ، وقد مدح الله الموفين بالنذر في قوله سبحانه : ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان:٧]، ولكن الذين لا يوفون بالنذر هم الذين ضعفت عزائمهم ، واتصفوا بالبخل .

ثم أخبر ﷺ أنه يظهر فيهم السمن ، أي في آخر الزمان ، وهو يدل على الإغراق في السرف ، والاشتغال بتنمية الأجسام عن تنمية العقول والإيمان ، واشتغلوا بتتبع الشهوات، فهمهم الطعام والشراب ، والتفنن والتلذذ بأصناف المأكولات ، واطمأنت نفوسهم بهذا ، وقد قيل :

لا تحش بطنك بالطعام تسمنًا فجسوم أهل العلم غير سمان

ومن المأثور أن الله يبغض الحبر السمين ؛ لأن الأحبار الذين هم العلماء ، يليق أن يكون أحدهم قليل اللحم ؛ لكثرة الصيام ، والقيام ، وكثرة الهم ، والخوف من الله ؛ لما عندهم من العلم الذي يحملهم على هذا ،

فالمسلم إذا هم لآخرته ، وتذكر ما أمامه ، وعرف أنه لا يدري ، ما الله صانع فيه ، أوجب له الهم والغم ، فأوجب ذلك نحافة الجسم ، كما قيل :

والهم يخترم الجسيم نحافـــــة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الثالث والعشرون

روى مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

« عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظافر ، وغسل البراجم ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء -يعني الاستنجاء- قال الراوي : ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة » .

هذا الحديث من محاسن الدين ، التي جاءت بها هذه الشريعة الكاملة الشاملة ، المشتملة على ما يصلح القلوب والأبدان، وما يهذب النفوس والأجسام ، فالإسلام يحث على النظافة ، ويأمر بها ، ويجعلها من الدين ، ولهذا الحديث شواهد كثيرة من السنة حيث يأمر ﷺ بالتنظف ، والتطهر ، والتطيب ليوم الجمعة ، والعيدين ، وينهى عن أكل الثوم والبصل من أجل حضور الجماعة ، والله عز وجل يقول : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ [المائدة:٦]، ويقول جل شأنه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وهذا الحديث اشتمل على الحث على تنظيف البدن ، وإزالة الشعور

التي محل لاجتماع الأوساخ ، وتنظيف مغابن الجسد المنتشرة .

قوله ﷺ: «من الفطرة»: الفطرة هي الخلقة التي خلق الله عليها عباده، وفطرهم عليها، كما قال سبحانه : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠] وفي الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة » فهو مفطور على التوحيد والحنيفية ومحبة الخير وأهله ، والبعد عن الشر وأتباعه .

وقد جعل الله سبحانه وتعالى شرائع الفطرة على نوعين :

أحدهما : ما يعود إلى تطهير الباطن ، فيطهر القلوب والأرواح ، وهو الإيمان بالله ، وعبادته ، ومحبته ، ورجائه ، والإنابة إليه ، وخشيته ، والخوف منه ، كما قال عز وجل : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم:٣٠-٣١] ، واختلف العلماء رحمهم الله في معنى الفطرة في هذه الآية الكريمة ، فمنهم من قال : هي الإسلام ، كما هو مروي عن أبي هريرة وابن شهاب وغيرهما ، ومنهم من قال : إن الفطرة هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها ، ومنهم من قال : الفطرة هي الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه .

قال القرطبي رحمه الله : قال ابن عطية : والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة ، أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل ، التي هي معدة ،

ومهيئة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه ، ويعرف شرائعه ويؤمن به ، فكأنه تعالى قال : أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فطر البشر ، لكن تعرضهم العوارض . ومنه قوله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه » رواه البخاري ومسلم .

فذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض الكثيرة التي تعرضهم ، قال : وقال شيخنا في عبارته إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم ، مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول ، وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام ، وهو الدين الحق ، وقد دل على صحة هذا المعنى قوله ﷺ : « كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» رواه البخاري ومسلم . يعني : أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة، سليمًا من الآفات ، فلو ترك على أصل تلك الخلقة ، لبقي كاملاً بريئًا من العيوب ، لكن يتصرف فيه ، فيجدع أذنه ، ويوسم وجهه ، فتطرأ عليه الآفات والنقائص ، فيخرج عن الأصل ، وكذلك الإنسان ، وهو تشبيه واقع ، ووجهه واضح . اهـ

فهذه الفطرة التي خلق الله عليها عباده ، لا تبديل لها بوجه من الوجوه ، كما قال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة» أي على معرفة الله والإيمان به ، حتى يكون هناك من يكون سببًا في إغوائه ، وابتعاده عن دين

الله ، سواء الأبوان أو غيرهما ، وإنما ذكر الأبوين ؛ لأن ذلك هو الغالب ، فهذا النوع الأول من أنواع الفطرة ، وهو ما يتعلق بتطهير القلوب والأرواح من الإيمان وتوابعه .

والنوع الثاني من أنواع الفطرة : هو ما جاء في هذا الحديث الشريف وهو ما يعود على تطهير الظاهر ، وهو الطهارة الحسية ، فيعتنى بطهارة البدن ؛ لأن النظافة من أسباب الصحة ، وتنشيط الجسم ، واستكمال قوته وعدمها يسبب له الأمراض ، وتحصل به الأذية للآخرين ، ولذلك منع ﷺ من أكل بصلاً أو ثومًا من قربان المسجد ؛ لما يحصل فيه من الأذية للملائكة وللآدميين .

فأما ما أشار إليه في الحديث من المضمضة والاستنشاق فإنهما مشروعان في الطهارة من الأحداث ، سواء الأصغر منها ، أو الأكبر، ومشروعيتها باتفاق العلماء.

والصحيح أنهما واجبان ، لابد منهما ، فقد كان ﷺ يداوم عليهما ، وكان ﷺ يحث على السواك ؛ لأنه كما قال ﷺ : « مطهرة للفم مرضاة للرب»رواه أحمد والنسائي وابن ماجة . ويقول ﷺ : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» رواه البخاري ، ولهذا يشرع السواك كل وقت، ويتأكد عند الصلاة، والوضوء، وتغير رائحة الفم ، ونحو ذلك .

وأما قص الشارب ، ففيه من النظافة ما هو معلوم لكل أحد ، فيطيب

مطعمه ومشربه ، ولا يكون منظره مستكرهًا عند أحد ، كما أن طول الشارب مستقبح عند العقلاء ، ولذا جاء الأمر النبوي بإكرام اللحية وحف الشارب ، كما قال ﷺ : « حفوا الشوارب ، وأكرموا اللحى » وإن استحسن بعض الناس توفيره ، فهم كما قيل :

يقضى على المــرء في أيــام محنته حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

ثم إن فيه تشبهًا بالمجوس، وفي الحديث: «من تشبه بقوم فهو منهم» رواه أبو داود وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح .

وهذا بخلاف اللحية ، فإن النبي ﷺ أمر بإعفائها ، وإكرامها ، فهي جمال للرجال ، ووقار لهم ، وحسبك أنها سنة المصطفى ﷺ .

ومن النظافة المذكورة في هذا الحديث قص الأظافر ، ونتف الإبط، وغسل البراجم ، وهي مطاوي البدن التي هي مظنة اجتماع الأوساخ ، فينبغي العناية بنظافتها ، وإزالة ما قد يجتمع فيها ، وكذلك فإن من النظافة والطهارة حلق العانة، والاستنجاء، وهو إزالة أثر الخارج من السبيلين بماء، أو حجر ، من النظافة المأمور بها ، كما هي شرط لصحة الوضوء .

فلله ما أحسن هذه الشريعة وأكملها ، وملاءمتها للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، لا خير إلا دلت الأمة عليه ، ولا شر إلا حذرتها منه .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

الحديث الرابع والعشرون

روى الإمام أحمد عن أبي أيوب رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله عظني ، وأوجز ، فقال :

« إذا قمت في صلاتك ؛ فصل صلاة مودع ، ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدًا ، وأجمع اليأس مما في أيدي الناس » .

هذه وصايا جامعة نافعة منه ﷺ وهو الناصح الأمين لأمته ﷺ.

أولها : الاهتمام بالصلاة ، ومراقبة الله فيها ، واستحضار الخشوع ، والخشية ، والذل ، والإطراق لله رب العالمين ، الذي فرضها علينا ، وجعلها عماد الدين ، وقرنها بأول واجب على العبد ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، فهي ثاني أركان الإسلام ، وأول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة ، فإن صلحت نظر في سائر عمله ، وإن لم تصلح صلاته ، لم ينظر في بقية عمله ، وهي الصلة بين العبد وبين ربه ، وهي قرة عين الرسول الكريم ﷺ ، يقول عليه الصلاة والسلام : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » .

وهي في هذا الحديث أولى وصاياه ﷺ ، فقد قال فيه : « إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع» . ما أجمع هذه الجملة ، وما أغزر معناها ، وما

أسعد من اتصف بها ، فإن المرء إذا صلى صلاة مودع ، صلاة من يعلم أن هذه آخر فريضة يؤديها ، ماذا يكون شعوره فيها من الخوف من ربه ، والإجلال ، والتعظيم ، والرجاء ، والذل ، والمحبة ، ونسيان كل شيء سوى الله سبحانه وتعالى ، ماذا تشتمل عليه صلاته من تكميل ركوعها ، وسجودها وخشوعها ، ماذا تشتمل عليه من الرغبة، والرهبة ، وقرة العين، بمناجاة من يناجيه ، ويستحضر في كل صلاة أنها آخر ما يصلي ، فهو يودع هذه العبادة العظيمة ، التي هي أعلا أنواع العبادات البدنية .

والصلاة إذا أديت على هذا الوجه ، وهذه الكيفية ، فإنها تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، وتنمي في نفسه فعل الخير ، ومحبته له ، واغتباطه بما مَنَّ الله عليه به ، من هذا الإحساس الروحي الديني ، فيظهر عليه الفرح ، والاستبشار ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨] .

وأما الوصية الثانية منه ﷺ فهي قوله : « ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدًا» : فهذا فيه حفظ اللسان ، وصونه عن الباطل ، وقول الزور ، فمن حفظه وصانه ، فقد حفظ دينه ، ومن ضيعه ولم يصنه ، فقد ضيع نفسه ، ولذلك يقول ﷺ: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فليقل خيرًا أو ليسكت»، ويروى في حكمة لقمان : إن من الحكمة الصمت ، وقليل فاعله.

وقال الشاعر في هذا المعنى :

أقلل كلامك واستعذ من شره   إن البلاء ببعضه مقرون

واحفظ لسانك واحتفظ من غيه   حتى يكون كأنه مسجون

وكل فؤادك باللسان وقل له   إن الكلام عليكما موزون

فزناه وليك محكمًا ذا قلة   إن البلاغة في القليل تكون

وأبلغ من هذا كله قوله ﷺ لمعاذ : « أمسك عليك هذا »وأخذ بلسانه، فقال معاذ رضي الله عنه : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله ؟ قال : «ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم ، أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» .

واعلم أيها المسلم أنه متى ملك العبد لسانه فقد ملك جميع جوارحه ، ومتى ضيعه ولم يملكه فإنه يورده المهالك .

وقد قيل في هذا المعنى :

حتف امرئ لسانه   في جده أو لعبه

بين اللهاة مقتله   ركب في مركبه

يروى عن الأحنف بن قيس رحمه الله قال : قال عمر رضي الله عنه : يا أحنف ؛ من كثر كلامه ؛ كثر سقطه ، ومن كثر سقطه ؛ قل حياؤه ، ومن قل حياؤه ؛ قل ورعه ، ومن قل ورعه ؛ مات قلبه.

ويروى عن الأحنف أنه قال : الصمت أمان من تحريف اللفظ ، وعصمة من زيغ المنطق ، وسلامة من فضول القول ، وهيبة لصاحبه .

وقيل أيضًا :

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من صريع لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

الوصية الثالثة من وصاياه ﷺ في هذا الحديث قوله : « وأجمع اليأس مما في أيدي الناس» : وهذا المراد منه أن يصدق العبد في توكله على الله عز وجل ، فلا يتعلق إلا بربه جل وعلا ، فهو نعم المولى ونعم النصير ، إليه يفزع العبد ، ومنه يطلب الحاجات ، وهو جل شأنه مفرج الكربات ، أما العبد المخلوق فلا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ، وقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن ، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر : «إذا استعنت فاستعن بالله ، وإذا سألت فاسأل الله» ، فكما أن المؤمن لا يسأل بلسانه إلا الله ، فكذلك ينبغي ألا يعلق قلبه إلا بالله ، حتى يحقق مقام العبودية ، ويتصف بها حقيقة ، فيبقى عبدًا لله ، ينكسر بين يدي ربه ، يرجو رحمته ، ويخشى عذابه ، ويعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء كتبه الله عليه .

وقد وردت عدة أحاديث عنه ﷺ في النهي عن سؤال الناس ، والحث على الاستغناء بالله عن كل أحد ، ولما طلب أحد الصحابة منه ﷺ أن يدله على عمل يحبه الله ، ويحبه الناس ، فقال : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد عما في أيدي الناس يحبك الناس» .

اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك . اللهم لا تكلنا إلى أحد سواك ، واجعل عملنا في رضاك ، يا رب العالمين .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الخامس والعشرون

روى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه عن النواس بن سمعان رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال :

« البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

هذا الحديث يدل على فضل البر ، والاتصاف به ، وبيان الإثم ، والحذر منه .

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في معنى البر ، وتفسيره ، وقد فسره ﷺ في عبائر مختلفة .

ففي هذا الحديث قال ﷺ : «البر حسن الخلق» .

وفسره عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر بقوله : «البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب» رواه أحمد .

فيؤخذ من تفسيره ﷺ له مرة بحسن الخلق ، ومرة بما اطمأن إليه القلب والنفس ، ومرة بغيرهما ، أنه يشمل عدة معان ، وأن هذه الكلمة شاملة عامة لأكثر أبواب الخير ، مما يقرب إلى الله من الإحسان ، ومراعاة

الحقوق، والقيام بالواجبات ، وأعظم ما يدخل في ذلك البر بالوالدين ، والأقارب، وغيرهم ممن له عليك حق ، فإن لم يكن له حق واجب ، فإن برَّكَ به من باب التفضل والإحسان ، كما قال بعضهم في هذا المعنى :

عليك ببر الوالديـن كليهما   وبر ذوي القربى وبر الأباعد

ويدخل في البر والإحسان أيضًا : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر بالتي هي أحسن ، ومقابلة الناس بالبشر ، وطلاقة الوجه ، ولين الكلام لهم، والتواضع ، والاحتمال ، فإن هذا كله من البر ، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : البر شيء هين : وجه طليق ، وكلام لين .

وهذا الحديث الشريف له شواهد كثيرة من القرآن الكريم ، ومن الأحاديث الواردة عنه ﷺ ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٧] ، وقال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [البقرة:١٨٩] .

وأما الأحاديث فقد ورد عن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال :

«أتيت رسول الله ﷺ فقال : جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت : نعم . قال: البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك» رواه الإمام أحمد والدارمي واللفظ له .

وجاء في بعض طرق هذا الحديث قال : « أتيت رسول الله ﷺ ، وأنا أريد أن لا أدع شيئًا من البر والإثم إلا سألته عنه، فقال لي : ادن يا وابصة، فدنوت منه ، حتى مست ركبتي ركبته ، فقال : يا وابصة ، أخبرك ما جئت تسأل عنه ، أو تسألني ، قلت : يا رسول الله أخبرني ، قال : جئتَ تسألني عن البر والإثم . قلت : نعم ، فجمع أصابعه الثلاث ، فجعل ينكث بها في صدري ، ويقول : يا وابصة استفت نفسك ، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في القلب ، وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك» رواه أحمد .

وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قيل له : « أرأيت شيئًا يحيك في صدورنا ، لا ندري حلال هو أم حرام ؟ فقال : إياكم والحكاكات فإنهن الإثم» . والمراد بالحكاكات : ما أثر في القلب حرجًا ، وكراهية .

وتقدم لنا تفسير البر عنه ﷺ كما في حديث النواس وكما في حديث وابصة بن معبد ، وقد فسره أيضًا ﷺ ببر الوالدين وغيرهما من الأقارب ، فيما سأله الرجل ، فقال : «يا رسول الله من أَبَرُّ ؟ قال : أمك ، قال : ثم من؟

قال : أبوك ، قال : ثم من ؟ قال : الأقرب فالأقرب » رواه أبو داود والترمذي.

وقد جاء عنه ﷺ تفسيره بالحج ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الحج بر ، والبر ليس له جزاء إلا الجنة» .

وقال ﷺ : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» رواه أحمد والطبراني في الأوسط.

وسئل ﷺ عن بر الحج ، فقال : « إطعام الطعام وإفشاء السلام» . وفي رواية : «وطيب الكلام» رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

وأما تفسير الإثم وهو ما ورد بيانه في هذا الحديث ، وغيره من الأحاديث ، وورد الأمر باجتنابه فيراد به المعاصي ، وكل ما هو محرم ، كالزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، وغير ذلك مما فيه ارتكاب لمحذور ، أو مخالفة لمأمور .

وقد ورد النهي عن الإثم في عدة آيات من القرآن الكريم ، كما قال عز وجل : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾ [المائدة:٣] ، وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾[الأحزاب:٥٨] .

ويدخل في الإثم ما يراه المؤمنون قبيحًا ، كما قال ﷺ : « الإثم ما حاك

في النفس ، وتردد في الصدر ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

ولذلك يروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « ما رآه المؤمنون حسنًا ، فهو عند الله حسنًا ، وما رآه المؤمنون قبيحًا ، فهو عند الله قبيح» رواه أحمد والبزار والطيالسي .

قال ابن رجب رحمه الله على قوله ﷺ : «وإن أفتاك الناس وأفتوك» : «يعني أن ما حاك في صدر الإنسان فهو إثم ، وإن أفتاه غيره بأنه ليس بإثم ، فهذه مرتبة ثانية ، وهو أن يكون الشيء مستنكرًا عند فاعله دون غيره ، وقد جعله أيضًا إثمًا ، وهذا إنما يكون إذا كان صاحبه ممن شرح الله صدره للإيمان ، وكان المفتي يفتي له بمجرد الظن ، أو ميل إلى الهوى ، من غير دليل شرعي ، فأما ما كان مع المفتي به دليل شرعي ، فالواجب على المفتَى له الرجوع إليه ، وإن لم ينشرح له صدره ، وهذا كالرخصة الشرعية ، مثل الفطر في السفر ، والمرض ، وقصر الصلاة في السفر ، ونحو ذلك مما لا ينشرح به صدور كثير من الجهال ، فهذا لا عبرة به .

وقد كان النبي ﷺ أحيانًا يأمر أصحابه رضوان الله عليهم بما لا تنشرح به صدور نفر منهم ، فيغضب من ذلك ، كما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة ، فكرهه من كرهه منهم ، وكما أمرهم ﷺ بنحر هديهم ، والتحلل من العمرة في صلح الحديبية ، فكرهوه ، وكرهوا مفاوضته لقريش ، على أن يرجع من عامه ، وقصة عمر مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر مشهورة »

انتهى بتصرف.

وملخص ذلك أن البر كلمة جامعة شاملة ، يدخل فيها الإحسان إلى الأقارب ، وأخصهم بذلك الوالدان ، ويشمل الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، ويدخل فيه الإحسان إلى الفقراء والمساكين، وكل من هو محتاج إلى برك وإحسانك ، ويدخل فيه حسن الخلق ، كما فسره بذلك النبي ﷺ ، ويدخل فيه الصبر والتحمل ؛ لما قد يصدر من الأذية عليك ، سواء من الأقارب والجيران أو غيرهم .

وأما معرفة الإثم ما هو؟ فإنه يراد به الذنوب ، والمعاصي ، وجميع ما يترتب عليه عقوبة من الله . وقد يطلق اسم الإثم على الشيء المحرم نفسه ، إذ مآل مرتكبه ومتعاطيه إلى الإثم ، كما قيل في الخمر :

شربت الإثم حتى زال عقلي كذاك الإثم تفعل بالعقـول

فسمى الخمر إثمًا ، وذلك أن متعاطيها يأثم بشربها ، فسميت إثما توسعًا وتجوزًا في التسمية .

فهذه الجملة ، وهي قوله : «والإثم ما حاك في نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » ، هي كقوله عليه الصلاة والسلام : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» رواه أحمد والترمذي والنسائي.

ويشبه قوله ﷺ : « إن الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور

مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات ، فقد استبرأ لدينه ، وعرضه ، ومن وقع في الشبهات ، وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمي ، يوشك أن يرتع فيه » رواه البخاري ومسلم .

وفي هذا دليل على أن من ارتكب الشبهات فقد عرض نفسه للقدح فيه ، والطعن ، كما قال بعض السلف : من عرض نفسه للتهم ، فلا يلومن من أساء الظن به .

وقد جاء في بعض روايات الترمذي : « فمن تركها ، استبراءً لدينه وعرضه ، فقد سلم » .

وفيه دليل على أن طلب البراءة للعرض ممدوح ، كطلب البراءة للدين ، ولهذا قد ورد كل ما وقى به المرء عرضه فهو صدقة .

وبالجملة : فهذا الحديث يدل على أنه ينبغي للمسلم أن يتجنب كل ما يقع في نفسه شك فيه ، هل هو حلال أو حرام؟ فإنه بذلك يحصل له الطمأنينة ، وراحة الضمير ، والسلامة من ألسن الناس ، والطعن في عرضه، وإذا عمل المرء ذلك ، فإنه يدل على ورعه ، وخوفه من الله ، واحتياطه لدينه ، ومن فعل ذلك فهو لاجتناب ما حرم الله أولى وأحرى ، ومن لا يتورع عن الشيء المشتبه ، فقد لا يتورع عن الشيء البين ، الواضح تحريمه . وقد روي عنه ﷺ أنه قال : « ومن تهاون بالمحقرات ، يوشك أن يخالط الكبائر» .

اللهم احمنا من المخالفة والعصيان ، ووفقنا لطاعتك يا رحمن ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث السادس والعشرون

روى الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

« ثلاثة حق على الله عونهم : المكاتب الذي يريد الأداء ، والمتزوج يريد العفاف ، والمجاهد في سبيل الله » .

في هذا الحديث يبين المصطفى ﷺ أن الله سبحانه وتعالى يريد لعباده اليسر ، والخير ، والصلاح الديني، والدنيوي ، ويحب منهم أن يفعلوا الأسباب بنية صالحة ، وعقيدة سليمة ، فإذا فعلوا ما أمرهم به ، وأحبه لهم، فإنه يعينهم ، ويسددهم ، ويوفقهم لما فيه صلاحهم ورشدهم .

فالنبي ﷺ يخبر أن الله سبحانه وعد هؤلاء الثلاثة الإعانة ، والخلف ، وهم : المكاتب بشرط قصد أداء الحق الذي عليه لسيده ، فإن كان قصده المماطلة ، وعدم الوفاء ، فليس كذلك . وكذلك المتزوج ، قيده بطلب العفاف ؛ ليعف نفسه ؛ وليصونها من الوقوع في المحرم . وكذلك المجاهد ، بشرط أن يكون جهاده في سبيل الله .

فذكر ﷺ في الحديث : «المكاتب يريد الأداء» وهو العبد المملوك يشتري نفسه من سيده ، بدين في ذمته ، منجمًا عليه ، يدفع كل سنة شيئًا

معلومًا منه ، والله سبحانه قد أمر بمكاتبتهم في قوله سبحانه : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور:٣٣] ، فالمكاتب إذا صلحت نيته ، وقصد منه التفرغ لطاعة ربه وعمل الخير والطاعات ، ولم يقصد بطلب المكاتبة التخلص من سيده، وعدم الوفاء بما التزم به من دين الكتابة ، فهو معان من الله جل وعلا ، ولذا أمر الله جل وعلا بعونهم بقوله سبحانه : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [النور:٣٣] ، فهو أمر لسيده ، ولغيره من المسلمين ، في مساعدته في أداء ما وجب عليه من الدين، ولذلك جعل الله له نصيبًا في الزكاة ، كما في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ [التوبة:٦٠] فهو المراد بقوله سبحانه : ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ ؛ لأنه يحاول تخليص رقبته من الرق ، فيدفع له من الزكاة ما يسدد به ما عليه من دين الكتابة ، وهذا من محاسن هذه الشريعة ، ومن التعاون ، والتكافل بين المسلمين ، فيما يعود على الأفراد ، والمجتمع بالخير .

وذكر ﷺ أيضًا أحد الثلاثة الذين حق على الله عونهم : « المتزوج الذي يريد العفاف» : وقد ورد في النكاح آيات كثيرة ، وحث عليه ﷺ في عدة أحاديث ، فقال سبحانه : ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء:٣].

وقال عليه الصلاة والسلام : « تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » رواه أبو داود والنسائي.

وقال ﷺ : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ، فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع ، فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء» رواه البخاري ومسلم .

والأحاديث في فضل النكاح ، والأمر به كثيرة جدًا ، وفيه من الفوائد شيء كثير .فهو اتباع لسنة المصطفى وامتثال لأمره عليه الصلاة والسلام ، وهو سبب في تكثير هذه الأمة ، وتحصين شبابها ، وصرفهم عن أوجه الشر والعصيان ، كما أن في النكاح الكثير من أوجه الخير والبر ، فمن صلحت نيته وكان قصده إعفاف نفسه وصرفها عن الحرام ، فإن عونه حق على الله تعالى .

وفي الزواج يحصل السكون لكل من الزوجين، والطمأنينة ، والإلفة، والرحمة ، والتذكر لنعم الله ، والتفرغ للعبادة ، والتعاون على مصالح كل منهما في دينه ودنياه ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١] .

وكذلك ذكر ﷺ المجاهد ، بشرط أن يكون جهاده في سبيل الله ، ومن المعلوم أن الجهاد في سبيل الله من أفضل أنواع العبادة ، وهو ذروة سنام الدين ، كما بين ذلك المصطفى ﷺ ، ويشمل الجهاد في سبيل الله الجهاد بالنفس والمال والقلم، وقد ورد في فضل الجهاد في سبيل الله عدة آيات

وأحاديث كثيرة فمنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:٩٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة:١٢١]، والآيات في فضل الجهاد كثيرة جدًا.

وأما الأحاديث: فمنها ما رواه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها ».

ومن حديث رواه البخاري قال فيه رسول الله ﷺ: «طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة »، أي أنه إن كان في الحراسة، كان فيها حقيقة مجد ومجتهد فيها، غير مقصر بما أنيط به من عمل، وإن كان في الساقة، أي: إن كان يحمي ساقة الجيش من عدو، يأتيه من خلفه، فهو فيها حقيقة مجد، ومجتهد فيها لا يحصل منه خلل ولا تقصير،

فأخبر ﷺ أن من كان هذا وصفه ؛ حصلت له طوبى ، وهي الجنة ، أو شجرة في الجنة .

ويقول ﷺ : «لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » رواه البخاري ومسلم .

ففي الحديث بيان فضل الجهاد في سبيل الله ، وأنه من أفضل الأعمال، فإذا كان الغدوة أو الروحة فيه خير من الدنيا وما فيها ، فما يترتب على من أمضى فيه الليالي والأيام والشهور والأعوام ، ولكن هذا لا بد فيه من شرط مهم جدًا ، وهو أن يكون جاهد لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ؛ لأن هذا هو المجاهد حقيقة ، هو المجاهد في سبيل الله ؛ لقوله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » رواه البخاري ومسلم .

أما من كان هدفه السيطرة على الناس ، أو التغلب عليهم ، أو للوطن فقط ، أو للعروبة فقط ، فمن أين يحصل له هذا الثواب العظيم بعد ما صرح نبي الله ﷺ ، حينما سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، أو يقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله فقال ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

فعلى المسلم أن يحرص غاية الحرص على تصحيح نيته ، وينوي في قتاله طاعة ربه ، ينوي بقتاله إعزاز الدين ، ونصرة الحق ، ورفع راية

الإسلام ، وإخماد الشرك ، وإهانة الكفر وأهله ، حتى يحوز الأجر الأوفر من الله .

وقد تكاثرت الأحاديث في فضل الجهاد فقال ﷺ : «انتدب الله لمن خرج في سبيله ، لا يخرجه إلا إيمان بي ، وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر، أو غنيمة ، أو أدخله الجنة ، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل» رواه البخاري.

وقال : « مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صيام ، ولا صلاة حتى يرجع» رواه مسلم.

وقال : « الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ، ينجي الله به من الهم والغم » رواه أحمد .

وقال : « أنا زعيم – أي كفيل – لمن آمن بي ، وأسلم ، وجاهد في سبيل الله ببيت في ربض الجنة ، وببيت في وسط الجنة ، وببيت في أعلى الجنة، من فعل ذلك لم يدع للخير مطلبًا ، ولا من الشر مهربًا ، يموت حيث يشاء أن يموت » رواه النسائي .

وقال : « من قاتل في سبيل الله من رجل مسلم ، فواق ناقة ، وجبت له الجنة » رواه أحمد وأبو داود والترمذي واللفظ له .

وقال ﷺ : « إن في الجنة مائة درجة ، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، أراه فوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » رواه البخاري .

وقال ﷺ : «من أعان مجاهدًا في سبيل الله ، أو غارمًا في عسرته ، أو مكاتبًا في رقبته أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » رواه أحمد .

وقال عليه الصلاة والسلام : «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار» رواه البخاري .

وقال ﷺ : « لا يجتمع شح وإيمان في قلب رجل ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في وجه عبد » رواه النسائي ، وأحمد واللفظ له .

وقال ﷺ : «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله ، وأُجري عليه رزقه وأمن الفتان » رواه مسلم .

وروى أبو داود عن رسول الله ﷺ قال : « من لم يغز ، ولم يجهز غازيًا ، أو يخلف غازيًا في أهله بخير ، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة » .

وفسر أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه الإلقاء باليد إلى التهلكة بترك الجهاد .

أيها المسلم : إن في هذه الآيات والأحاديث الثابتة عنه ﷺ في فضل الجهاد ، وبيان علو مرتبة المجاهدين في سبيله ، وما أعده له من الأجر العظيم ، والفوز المبين ، والسعادة الأبدية في الدنيا وفي الآخرة ؛ أقوى حافز للنفوس المؤمنة ، للنفوس المصدقة بوعده ووعيده ، المتبعة لهدي نبيه ﷺ ، لقد حركت هذه النصوص الشرعية همم المؤمنين ، وقوت عزائمهم ، وأرخصت نفوسهم في جانب الله ، والجهاد في سبيله ، وكيف لا يرخصوا النفوس ، والأموال ، والأوطان في هذا السبيل ، الذي نوه الله عنه في الكتب السماوية المنزلة على المرسلين في التوراة ، والإنجيل ، والقرآن العظيم ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١١١] .

يا لها من بشارة عظيمة ، يا له من وعد صادق ، يا له من فوز عظيم، لقد حرك الداعي إلى الله ، وإلى دار السلام ، النفوس الأبية، والهمم العالية، وأسمع منادي الإيمان من كانت له أذن واعية ، وأسمع الله من كان حيًا ، فهزه السماع ، إلى منازل الأبرار ، وحدا به السير في طريقه إلى رفقة الأخيار، وأحله في دار القرار .

فحيهلا إن كنـــت ذا همـــة فقـــــد

حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا

ولا تنتـــظر بالســـير رفقة قاعـــد

ودعه فإن الشـــوق يكفيك حامـــلا

وحي على جنـات عـــدن فإنهـــا

منازلك الأولى بهـــا كنــــت نازلا

ولكن ســـباك الكاشــحون لأجل ذا

وقفت على الأطلال تبـــكي المنــازلا

وحي على يوم المزيـــد بجنة الــــ

خلود فجـــد بالنفس إن كنــت باذلا

فدعها رســـومًا دارســات فما بهـــا

مقيـــل وجاوزها فليســـــت منازلا

وخـــذ يمنة عنـــها على المنهج الـذي

عليه ســـرى وفد الأحبة آهـــــلا

وقل ساعدي يا نفس بالصبر ســـاعة

فعنـــد اللقا ذا الكد يصبـــح زائلا

فما هي إلا ســـــاعة ثـــم تنقضـي

ويصبـــح ذو الأحزان فرحان جاذلا

أيها المسلم كيف تتوانى عن الجهاد في سبيله ، بعدما سمعنا التشويق إليه ، والترغيب فيه ، وعظيم ثوابه ، لكن يجب علينا أولاً أن نجاهد نفوسنا بالصبر على طاعة الله، والتزام فرائضه، وأداء حقوقه، والصدق في معاملته ، وامتثال أوامره ، واتباع هدي نبيه ﷺ في كل شيء مما هو في مقدورنا .

والرسول ﷺ أخبر أن المجاهد في سبيل الله حق على الله عونه ، فتحصل له الإعانة الدينية والدنيوية ، فيعان على طاعة الله ، ويعان على أعداء الله ، ويعان في سفره وذهابه ، ومجيئه ، وفي كل شؤونه .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث السابع والعشرون

روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض كلها مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة ، فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يُبْعث إلى قومه خاصة ، وبُعثت إلى الناس عامة » .

لقد من الله على هذا النبي الكريم محمد ﷺ بفضائل وخصائص لم تكن لأحد قبله ، ولقد نوه الله عز وجل بشرف وفضل نبيه محمد ﷺ في عدة آيات من كتابه الكريم ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح:١-٣] .

وقال سبحانه في وصفه ﷺ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٣٨]، وقال سبحانه في مخاطبته لنبيه بألطف خطاب: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة:٤٣] ،

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب:٢٤] .

ومن هذه الآيات وغيرها يتبين لك عظيم مكانته ﷺ عند ربه ، وفضله عنده ، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣] ، فمن فضله سبحانه عليه ، أن أعطاه فضائل فاق بها جميع الأنبياء والمرسلين، فكل الخصال الحميدة التي نالها الأنبياء من قبله أعطاه الله أكملها ، ومَنَّ الله عليه بفضائل لم تحصل لمن قبله ، ولذلك خصه الله بخصائص ، لم يشركه فيها أحد من الأنبياء ، وقد بسطنا القول فيها في رسالة مستقلة عن دعوته ﷺ وخصائصه ، وهي كثيرة ، ومنها ما ذكره ﷺ في هذا الحديث الشريف .

وهي : أنه ﷺ نصر بالرعب مسيرة شهر ، وهو نصر إلهي يعين الله به رسوله وعباده المؤمنين المتبعين لنبيه ، فيقذف الله الرعب في قلوب أعداء نبيه ﷺ ، كما قال سبحانه وتعالى :﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾[آل عمران:١٥١] .

وهو سبحانه كما جعل الرعب في قلوب أعداء المؤمنين ، فإنه يقوي قلوب أوليائه ، ويزيدهم ثباتًا ، وشجاعة، وكل ذلك من أسباب النصر ، كما قال تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾

[الأنفال:١١] ، وكما قال سبحانه ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣] ؛ ولأنه سبحانه وعد نبيه وأمته بالنصر العظيم، إذا اتبعوا أمره ، وسلكوا سبيل نبيه ، واهتدوا بهديه في جميع المجالات، كما نبههم إلى الاجتماع والائتلاف ، وعدم التنازع، والصبر ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾ [الأنفال:٤٦] ، كما أمرهم بالاستعداد للأعداء بكل مستطاع من القوة فقال سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال:٦٠] إلى غير ذلك من الإرشادات الحكيمة . وهو سبحانه يمدهم بعونه ، ونصره ، وتأييده ، كما حصل لنبينا محمد ﷺ في غزوة بدر والأحزاب وغيرها .

ومن خصائص هذا النبي الكريم ﷺ قوله : « وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا» . ووضحه ﷺ بقوله:«فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة، فليصل» . فجميع الأرض مسجد ، يصلى فيها إلا ما استثناه الشارع ﷺ ونهى عنه .

وقد ثبت النهي عن الصلاة في المقبرة ، والحمام ، وأعطان الإبل ، وكذلك المكان المغصوب ، والموضع النجس .

وجاء في حديث عبد الله بن عمر في الزيادة على هذه الأشياء وهي

قوله : «نهى رسول الله ﷺ أن يصلى في سبعة مواطن: المزبلة ، والمجزرة، والمقبرة ، وقارعة الطريق ، وفي الحمام ، وفي معاطن الإبل ، وفوق ظهر بيت الله » رواه الترمذي ، وضعفه .

ومن رحمة الله بهذه الأمة جعل الأرض طهورًا ، كما قال ﷺ : « فإن عنده مسجده وطهوره» فيكون التيمم لعادم الماء ، أو الخائف باستعماله ضررًا ، فإنه يعدل عن الماء إلى التيمم ، كما قال سبحانه : ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ [النساء:٤٣] ، والصعيد : هو ما تصاعد على وجه الأرض من جميع أجزائها ، وإذا تيمم العادم للماء ، أو العاجز عن استعماله حسًا أو حكمًا ، فإنه يقوم مقام طهارة الماء ، ويفعل به من الصلاة ، والطواف ، ومس المصحف ، وغير ذلك ما يفعل بطهارة الماء، وحكمه حكم الماء في حال تعذر استعماله .

ومن خصائصه ﷺ قوله : « وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي » وذلك من جملة خصائصه ﷺ وخصائص أمته ، وكما قال سبحانه : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [الأنفال:٦٩] هذا مع ما أعد الله لهم من الأجر العظيم، ولا يؤثر أكل الغنائم على أجرهم ، فحصل لهم بذلك ثواب الدنيا والآخرة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، ولهذا يقول ﷺ : « وجعل رزقي تحت ظل رمحي» رواه أحمد .

والله سبحانه وتعالى امتن على هذه الأمة بالإيمان القوي ،

والإخلاص في العمل والعقيدة الراسخة ، فلذلك لا يؤثر عليها ما تأخذه من الغنائم ، ولا يستولي على مشاعرهم محبة المال ، وحصوله ، ولكن همهم الأسمى ، وهدفهم الأساس ، هو الجهاد في سبيل الله ، وما يحصل من التبعية لذلك من الغنيمة ، فهو من إكرام الله لهم ، وليتقووا به على الجهاد ، وقد أباحه الله لهم فضلاً منه وإحسانًا .

أما غيرهم من الأمم السابقة فلم تحل لهم الغنائم ، والله سبحانه وتعالى حكيم في شرعه، عليم بما يصلح عباده، ففيه معنى الحديث القدسي: « إن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك» رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول .

ولذلك كان في هذه الأمة خصوصًا في صحابته ﷺ من يبذل الشيء الكثير من المال في سبيل الله ، وفي طاعته ومرضاته بالمجلس الواحد ، ما يعجز عن مثله الملوك ، فهذا أبو بكر رضي الله عنه يتصدق بجميع ما يملك، وهذا عمر رضي الله عنه يتصدق بنصف ما يملك ، وهذا أبو طلحة يتصدق بأحب مال عنده ، وهي بيرحاء ، فيها الماء العذب ، والكثير ، وفيها ما يقرب من ستمائة نخلة ، وهذا عثمان رضي الله عنه يتصدق بأربعة آلاف دينار وثلاثمائة بعير ، مكملة بأحلاسها ، وأقتابها ، كل منهم يفعل ذلك في مجلس واحد ، فما الذي دفعهم إلى ذلك ؟ إنما هو الإخلاص ، وقوة الإيمان،

واليقين بما أعد الله لأوليائه في الآخرة .

أما هو ﷺ فمعلوم أنه أكرم الخلق أجمعين ، من الأولين والآخرين ، وكما قال الشاعر :

فلو لم يكن في كفه غير روحه　　　لجـاد بها فليتق الله سـائله

وهذا الوصف لا يصلح لأحد إلا أن يكون الرسول ﷺ ، ولقد ربى رسول الله ﷺ أصحابه على تلك الخصال ، فاتصفوا بالكرم ، واتصفوا بالإيثار على أنفسهم ، كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك ، ووصفهم به في قوله سبحانه : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩] . فإذا كان هذا الوصف وهذا الثناء من الله سبحانه على الأنصار ، فكيف بحال المهاجرين ، الذين هجروا أوطانهم ، وأموالهم ، وآثروا صحبة رسول الله ﷺ على ذلك كله ، واتصفوا بالإيمان الصادق ، ووصفهم الله بالصدق ، وأمر المؤمنين أن يكونوا في معيتهم ، فقال عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩] . جعلنا الله وإياكم جميعًا من المؤمنين الصادقين في أقوالهم وأفعالهم .

أما قوله ﷺ: « وأعطيت الشفاعة » : المراد بها هنا الشفاعة العظمى التي يعتذر عنها ، أولو العزم من المرسلين ، سوى خاتمهم وسيدهم وسيد الأولين والآخرين محمد ﷺ ، فهو الذي ينتدب لها ، فيشفعه الله في الخلق ،

وهذه الشفاعة هي المقام المحمود ، الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٦٩] . وهي التي قال الإمام ابن جرير رحمه الله فيها : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام ، الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس؛ ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه ، من شدة ذلك اليوم . ثم ساق رحمه الله بسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال : « يجمع الله الناس في صعيد واحد، يسمعهم الواعي ، وينفذهم البصر، حفاة عراة ، كما خلقوا قيامًا ، لا تكلم نفس إلا بإذنه ، ينادى : يا محمد ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير بيديك، والشر ليس إليك ، والمهدي من هديت ، وعبدك بين يديك، ومنك وإليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت ، فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله عز وجل» رواه النسائي وعبد الرزاق في مصنفه والطبراني في معجمه .

وقد تكلم الإمام ابن القيم رحمه الله على أنواع الشفاعات التي أعطى الله نبيه ، وخليله ، وحبيبه محمدًا ﷺ ، ثم لخصها بقوله :

واعلم أن شفاعته ﷺ في القيامة ستة أنواع :

الأولى : الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام ، حتى تنتهي إليه ، فيقول : أنا لها ، وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ؛ ليشفعوا لهم إلى ربهم ، حتى يريحهم من مقامهم في الموقف ، وهذه

شفاعة يختص بها ، لا يشركه فيها أحد .

الثانية : شفاعته ﷺ لأهل الجنة في دخولها ، وقد ذكرها أبو هريرة رضي الله عنه في حديثه الطويل المتفق عليه .

الثالثة : شفاعته ﷺ لقوم من العصاة من أمته ، قد استوجبوا النار، فيشفع لهم أن لا يدخلوها .

الرابعة : شفاعته ﷺ في العصاة من الموحدين الذين دخلوا النار بذنوبهم ، فيخرجون منها إلى الجنة . والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ ، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة ، وبدعوا من أنكرها ، وصاحوا به من كل جانب ، ونادوا عليه بالضلال .

الخامسة : شفاعته ﷺ لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ، ورفع درجتهم ، وهذه مما لم ينازع فيها أحد .

السادسة : شفاعته ﷺ في بعض الكفار من أهل النار ، حتى يخفف عذابه ، وهذه خاصة بعمه أبي طالب وحده .

وقوله ﷺ : « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة»: فهذه ميزة امتاز بها على سائر الأنبياء والمرسلين ، فشريعته ﷺ ناسخة لكل الشرائع قبلها ، وهي خاتمة الشرائع والرسائل ، صالحة لكل زمان وكل مكان ، لا خير إلا دلت الأمة عليه ، ولا شر إلا حذرتها منه ، ولا

يزيغ عنها إلا هالك ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨] ، أي : أن الله أرسله إلى جميع الخلائق من المكلفين .

قال عكرمة : سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقول : إن الله تعالى فضل محمدًا ﷺ على أهل السماء ، وعلى الأنبياء ، قالوا : يا ابن عباس فيم فضله على الأنبياء ؟ قال رضي الله عنه : إن الله تعالى قال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤] وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ:٢٨] ، فأرسله الله إلى الجن والإنس .

وعند أحمد والدارمي أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأحمر والأسود» قال قتادة : يعني : إلى الجن والإنس .

وقال غيره : يعني العرب والعجم .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: والكل صحيح ، ولهذه الآية نظائر في كتاب الله عز وجل ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أي : أرسلناك رحمة لهم كلهم ، فمن قبل هذه الرحمة ، وشكر هذه النعمة ، سعد في الدنيا والآخرة ، ومن ردها ، وجحدها خسر الدنيا والآخرة ، وجاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة

رضي الله عنه قال : قيل : يا رسول الله ادع على المشركين ، قال : «إني لم أبعث لعانًا ، وإنما بعثت رحمة».

وفي حديث للدارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إنما أنا رحمة مهداة » .

فهذه الآيات ، وهذه الأحاديث ، وغيرها مما هو في معناها تدل على أن الله أرسله إلى الناس كافة ، وهذه مما اختصه الله بها على سائر أنبيائه ورسله ، ولذلك يقول ﷺ لعمر بن الخطاب ، حينما جاء إليه ، ومعه شيء من التوراة ، فغضب ﷺ وقال : « لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، والله لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني » رواه أحمد .

وجاء عن علي وابن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث الله محمدًا وهو حي ، ليؤمنن به، ولينصرنه ، أخذًا من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران:٨١-٨٢] .

وقال ابن كثير على هذه الآية : يخبر الله أنه أخذ ميثاق كل نبي ، بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام ، أنه ما آتى الله أحدهم من

كتاب ، وحكمة ، وبلغ أي مبلغ ، ثم جاء رسول من بعده ، ليؤمنن به ، ولينصرنه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده، ونصرته . وجاء عنه ﷺ أنه قال : « لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي» .

وقال رحمه الله : فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه ، دائمًا إلى يوم الدين ، هو الإمام الأعظم ، الذي لو وجد في أي عصر وجد ، لكان هو الواجب الطاعة ، المقدم على الأنبياء كلهم ، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس ، وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب جل جلاله ، لفصل القضاء بين عباده ، وهو المقام المحمود ، الذي لا يليق إلا له ، والذي يحيد عنه أولوا العزم من الأنبياء والمرسلين ، حتى تنتهي النوبة إليه ، فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه والتابعين .

* * *

الحديث الثامن والعشرون

روى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه :

« أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ، إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة ، قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام ، أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال ، كان له أجر » .

هذا الحديث عنه ﷺ يدل على فضيلة ذكر الله عز وجل ، وعظم ثواب الذاكرين ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٢] ، وأي فضل يدركه المسلم مثل هذا الفضل العظيم ، وهو أن الله يذكره إله الخلق أجمعين ، قيوم السماوات والأرضين ، يذكر عبده حينما يذكره العبد ، وفي الحديث القدسي الذي يقول الله عز وجل فيه : « وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ،

وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منه » رواه البخاري ومسلم واللفظ له . والله عز وجل يحب من عبده أن يذكره ، وينهاه عن الغفلة عن ذكره ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:٢٠٥].

وورد في القرآن الكريم عدة آيات ، تدل على فضل الذكر ، وأنه من أفضل الأعمال ، كما قال سبحانه ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [القصص:٤٥] .

ومما ورد فيه من الأحاديث عن سيد البشر عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم ، ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن أقول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس» .

وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزًا من الشيطان ، يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه» رواه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري .

وقال ﷺ: « من قال سبحان وبحمده في يوم ، مائة مرة ، حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر » رواه البخاري ومسلم .

ورويا عنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » .

وفي حديث معاذ رضي الله عنه : « ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل » رواه مالك وأحمد والترمذي .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم : قالوا : بلى ؟ قال : ذكر الله عز وجل» رواه أحمد والترمذي وابن ماجة ، والحاكم وصححه .

والآيات والأحاديث في فضل الذكر كثيرة جدًا .

وقد ورد أذكار وأدعية تقال في مواضع مخصوصة ، كالصباح والمساء، وفي الصلوات وأدبارها ، وغير ذلك نذكر هنا طرفًا منها : يقول الله عز وجل ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ [ق:٣٩].

وروى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ « إذا أصبح أحدكم فليقل: اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا ، وبك

نموت ، وإليك النشور . وإذا أمسى قال : اللهم بك أمسينا ، وبك أصبحنا، وبك نحيا ، وبك نموت ، وإليك المصير» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : « يا رسول الله : مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت ، قال : قل : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي ، وشر الشيطان وشركه . قال : قلها إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك» . رواه أبو داود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «كان النبي ﷺ إذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، رب أسألك خير ما في هذه الليلة ، وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها ، رب أعوذ بك من الكسل ، وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر . وإذا أصبح قال ذلك أيضًا : أصبحنا وأصبح الملك لله».

وعن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ، ثلاث مرات ، إلا لم

يضره شيء » . رواه الترمذي وغيره ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وقد جاء عنه ﷺ أذكار مخصوصة عند النوم ، كما جاء في صحيح البخاري رحمه الله عن حذيفة رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: باسمك اللهم أموت وأحيا » .

وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له ولفاطمة : « إذا أخذتما مضاجعكما ، فكبرا الله أربعًا وثلاثين ، واحمدا ثلاثًا وثلاثين وسبحا ثلاثًا وثلاثين » . رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال : «الحمد لله الذي أطعمنا ، وسقانا ، وكفانا ، وآوانا ، فكم ممن لا كافي له ولا مُؤْوِي» رواه مسلم .

وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن ينام ، وضع يده تحت رأسه ، ثم يقول : « اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك» رواه الترمذي وصححه .

وحديث أبي ذر الذي سقناه في أول الكلام فيه دليل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على فعل الخير ، وتنافسهم ، وتسابقهم في ذلك، امتثالاً لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣]، ولقوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين:٢٦] ، ولقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الواقعة:١٠-١٢]، ولقوله سبحانه : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد:٢١].

فكانوا رضي الله عنهم وأرضاهم يتسابقون إلى فعل الخير ، والأعمال الصالحة ، ويتنافسون في ذلك ، ويبذلون جهدهم وطاقتهم ابتغاء رضوان الله ، وطلبًا لما أعده سبحانه للعاملين من عباده المؤمنين ، تصديقًا لقوله سبحانه:﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢].

وفي الحديث دليل على أن صحابته رضي الله عنهم كان يشق عليهم، ويحزنهم فوات بعض الأعمال الصالحة ، التي تتعلق بالمال إذ لم يكن لديهم من المال ما يساعدهم على فعل هذه الطاعات ، التي عمل بها غيرهم ، فكان الفقراء منهم يحزنون على فوات الصدقة بالأموال التي يقدر عليها الأغنياء ، ولا يقدرون هم عليها ، كما يحزنون على التخلف عن الخروج في الجهاد في سبيل الله ؛ لعدم القدرة على الزاد والراحلة. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بذلك في كتابه العزيز ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة:٩٢] .

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه ، فيهم عبد الله بن مغفل ابن مغوي المازني ، فقالوا : يا رسول الله احملنا ، فقال : والله لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا ، وهم يبكون ، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ، ولا محملاً ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ، ومحبة رسوله ، أنزل عذرهم في كتابه » .

فإذا تأمل المؤمن حالتهم ، هذه الحالة العجيبة ، والرغبة الصادقة الصحيحة في الجهاد في سبيل الله ، عرف فضلهم وحرصهم على الخيرات ، وإلا فإن أكثر الناس يكرهون القتال ، كما قال سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦]، لكن هؤلاء لعلمهم بما يترتب عليه من الفضل العظيم، والثواب الجسيم ، يتحسرون، ويبكون على فوت ذلك، ويحسون بالألم الصادق للحرمان من هذه النعمة .

وفي هذا الحديث بيان منه ﷺ إلى أن كل أعمال المعروف والخير تكون صدقة لصاحبها ، إذ ليست الصدقة قاصرة على إخراج المال ، بل إن ذكر الله جل وعلا ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإتيان الرجل أهله، كله من الصدقات التي يمتن الله بها على عبده .

روى النسائي من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : «ما

من امرئ تكون له صلاة بليل ، فغلب عليها نوم ، إلا كتب الله له أجر صلاته ، وكان نومه صدقة عليه » .

وقال خالد بن معدان : « إن الله يتصدق كل يوم بصدقة ، وما تصدق الله على أحد من خلقه بشيء خير من أن يتصدق عليه بذكره» .

وأعظم من هذا قول الله جل وعلا : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ [البقرة:٢٦٣] .

وبين ﷺ أن كف الشر عن الناس صدقة ، ولما سئل ﷺ : كيف يكون لي أجر في شهوتي ؟ فقال رسول الله ﷺ : أرأيت لو كان لك ولد ، فأدرك ، ورجوت خيره، فمات ، أكنت تحتسب به؟ قلت : نعم ، قال : فأنت خلقته؟ قال : بل الله خلقه ، قال : فأنت هديته ؟ قال : بل الله هداه . قال : فأنت كنت ترزقه ؟ قال : بل الله كان يرزقه ، قال : كذلك فضعه في حلاله وجنبه حرامه ، فإن شاء الله أحياه ، وإن شاء أماته ، ولك أجر » رواه أحمد .

وقال ﷺ : « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في فم امرأتك »رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري .

وروى الإمام أحمد عن المقدام رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة ، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة ، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة » .

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة » .

فهذه الأحاديث تدل على سعة رحمة الله جل وعلا وعظيم ثوابه ، وأن أبواب الخير كثيرة ، فمن عجز أو قصرت همته عن بعضها ، فغيرها من أبواب الخير كثير ، ولا يحقرن المسلم من المعروف شيئًا ، فإنه يؤجر على كل خير .

اللهم وفقنا لهداك ، واجعل عملنا في رضاك ، وافتح لنا أبواب رحمتك وفضلك ، وصلى الله وسلم على محمد ، وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث التاسع والعشرون

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« الظلم ظلمات يوم القيامة » .

لقد كان النبي ﷺ أحرص الناس ، وأشفقهم على أمته ، فلا يزال يحثهم على فعل ما ينفعهم ، ويقربهم إلى ربهم ، ويحذرهم أشد التحذير عن كل ما يعود عليهم بالضرر ، فلا خير إلا دل أمته عليه ، ولا شر إلا حذرها منه .

وفي هذا الحديث يقول عليه الصلاة والسلام : « الظلم ظلمات يوم القيامة» ، ففيه التحذير لنا من الظلم ، والوعيد لمن وقع فيه ، وقد وردت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة محذرة من الظلم وآمرة بالعدل .

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل:٩٠]، ويقول تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ [النساء:٥٨] ،ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ [الأعراف:٢٩]، ويقول جل شأنه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام:٨٢] ، فلا يحصل الأمن التام يوم القيامة إلا

لمن سلم من الظلم ، قليله وكثيره ، ويحصل عليه من عدم الأمن بقدر ما لديه من الظلم ، فلهذا يحذرنا ﷺ من الظلم غاية التحذير .

وأعظم أنواع الظلم على الإطلاق هو الشرك بالله ، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] ، وقال عز وجل : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

ومن الظلم ترك الصلاة والتهاون في أدائها ، ومنع الزكاة ، وترك إخراجها ، وترك الصيام مع القدرة ، وترك الحج مع الاستطاعة .

ومن الظلم وأعظمه : ترك التحاكم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، واستبدالها بقوانين وضعية مخالفة لشريعة الإسلام ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [المائدة:٤٥].

ومن أنواع الظلم عقوق الوالدين ، وعدم برهما ، وترك الإحسان إليهما ، وكذلك قطيعة الرحم التي أمر الله أن توصل ، وقد توعد الله على ذلك أشد الوعيد ، كما قال عز وجل: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ [محمد:٢٢] .

ومن أنواع الظلم عدم الوفاء بما وجب ، كالتقصير بحقوق الزوجات

والأصدقاء، والأصحاب،وكل من له عليك حق، إما من باب المعاوضات، أو من باب المكافآت ، أو الديون الواجبة ، فلا يجوز المماطلة بشيء من ذلك، لقوله ﷺ : « مطل الغني ظلم » رواه البخاري ومسلم .

ويدخل في الظلم الذي حذرنا منه ﷺ في هذا الحديث ظلم الناس بالقدح بهم ، والكلام في أعراضهم ، والطعن عليهم ، والاستهزاء بهم ، والتنقص لهم ، كما قال عليه الصلاة والسلام في خطبة حجة الوداع : « إن دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا » رواه مسلم.

فالظلم كله ظلمات يوم القيامة ، يعاقب فاعله يوم القيامة على قدر ظلمه ، فقد بين المصطفى ﷺ أنه يؤخذ من حسنات الظالم فتعطى للمظلوم ، فإن لم يكن لهم حسنات أو فنيت حسناتهم ، أخذ من سيئات المظلومين ، فطرحت على الظالمين ، وَلَا ﴿ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩] . وما أحسن قول القائل :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا فالظلم يرجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

ولآخر :

أما والله إن الظلم شوم وما زال المسيء هو الظلوم

إلى الديان يوم العرض نمضي وعنـد الله تجتمـع الخصوم

وقد حرم الله الظلم علـى نفسـه ، وجعلـه محرمًـا بـين عبـاده ، كـما في الحديث القدسي : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلتـه بيـنكم محرمًا ، فلا تظالموا » رواه مسلم .

واعلم أن الظلم على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : نوع لا يغفره الله ، وهو الشرك بالله، فإن الله لا يغفر لمن أشرك به ، ومات على شركه ، يقول الله سـبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

النوع الثاني : نوع لا يترك الله منه شيئًا ، وهـو ظلـم العبـاد بعضـهم لبعض ، فإن حقوق العباد مبنية على المشاحة ، وقـد قـال ﷺ: « أتـدرون مـا المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال ﷺ : إن المفلـس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويـأتي قـد شـتم هـذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطـى هـذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليـه ، أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح في النار» رواه مسلم .

النوع الثالث : نوع تحت مشيئة الله جل وعلا إن شـاء عاقـب عليـه ، وإن شاء عفا عنه ، وهي الذنوب التي بين العبد وربه ، فيما هو دون الشرك.

واعلم أن الواجب على من ظلم نفسه ، أو قصر في حق ربه جل وعلا، أو ظلم عباد الله أن يبادر إلى التوبة النصوح ، فإن الله يغفر الذنوب جميعًا ، إذا تاب العبد منها توبة نصوحًا ، والتوبة النصوح هي ما اشتملت الشروط التالية :

١ – الإقلاع عن الذنب .

٢ – الندم على ما فات .

٣ – أن يعزم على أن لا يعود لمثل فعله .

فإن كان لأحد من الخلق حق عليه ، فيشترط أيضًا أن يرد الحق لصاحبه ، ولا بد أن يكون هذا قبل أن تطلع الشمس من مغربها ، وقبل أن تبلغ الروح الحلقوم .

فالواجب على كل مسلم أن يبتعد عن الظلم ، فإن حصل منه شيء من ذلك بادر إلى التوبة،وعليه أن يتبع أوامر الله،وأوامر نبيه ﷺ، وأن يعامل الناس بما يجب أن يعاملوه به ، فإنه متى فعل ذلك سلم من ظلم الناس .

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت . اللهم إنا نعوذ بك أن نظلم أو نظلم ، أو نجهل أو يجهل علينا . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الثلاثون

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

إن هذه الدنيا مزرعة للآخرة ، وما خلق هذا الخلق إلا لأجل عبادة ربهم، وهذه العبادة هي السبب الموصل إلى حقيقة الحياة ، فإن الحياة الطيبة في الدنيا للمؤمن ، والعاقبة الحسنة له في الآخرة ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] ويحث سبحانه عباده على التزود من العمل الصالح للآخرة ؛ ليفوزوا بسعادة الدارين ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة:١٩٧] فدار الدنيا جعلها الله دار عمل ، والعبد فيها لابد له من عمل ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، فمن تزود فيها من الخير وجد خيرًا ، ومن تزود شرًا وجد جزاءه ، جزاء وفاقًا .

وإذا مات العبد انقطع عمله بموته ، فلا يبقى له إلا هذه الأعمال الثلاث التي بينها النبي ﷺ ، وهذه أيضًا نعمة من نعم الله ، حيث امتن بها

على عباده ، فجعل لهم من الأعمال ما يبقى ثوابه لهم حتى بعد وفاتهم ، فأول هذه الخصال الثلاث : (الصدقة الجارية) ، أي المستمر نفعها، وذلك كالوقف وغيره من الصدقة الجارية ، فأجرها جار مستمر للعبد ، ما دام الانتفاع بها باق ، ويتفاوت أجرها بحسب جهة صرفها ، فكلما كان أنفع وأشمل فائدة ، يكون أجره أكثر، وكل ما كان معينًا على أمور الدين ، كالعلم ، والتفرغ له ، والجهاد ، وما يعين عليه ، وعلى القيام به ، وكذلك التفرغ للعبادة ، سيما العبادات التي يتعدى نفعها إلى العباد ، أو تكون سببًا لتوجيههم التوجيه الصالح ، الذي يقربهم إلى الله ، ويبعدهم من سخطه.

ولهذا كان من شروط صحة الوقف أن يكون على جهة بر وطاعة لله ، أو معينًا عليها ، أما إذا كان بعكس ذلك بأن كان على جهة معصية، أو اشتمل على قطيعة رحم ، أو كان وسيلة لشيء من ذلك ، فإنه لا يصح هذا الوقف .

أما الخصلة الثانية وهي قوله ﷺ : « أو علم ينتفع به» : فالعلم الذي يحصل له به النفع بعد موته ، هو ما يعلمه الناس في حال حياته ، يعلمه لمن ينتفع به ، ويعمل به ، والعلم الذي ينشره بين الناس بوعظه ، وإرشاده ، وخطبه ، ونصائحه ، وكذلك ما يهدي الله على يديه من الناس بسبب ذلك ، فكل هذا تجري له حسناته يوم القيامة ، وإن كان ميتًا ، وكذلك أيضًا الكتب التي يؤلفها في فنون العلم النافع من أصناف العلوم الدينية ، أو

المعينة على فهم الكتاب والسنة ، وهكذا كل ما حصل الانتفاع به ، فكم من علماء ما ورثوا دينارًا ولا درهمًا ولا ذرية ، لكنهم ورثوا علمًا نافعًا ، أبقى الله ذكرهم ، وكتب لهم أجرهم ، فكتبهم منتشرة ، ونفعها مستمر ، والاهتداء بسببها موجود ، والانتفاع بها حاصل ، وكم نجد لهم من التلاميذ أضعاف أضعاف تلاميذهم الذين أخذوا عنهم مباشرة ، بل حصل لهم من التلاميذ ما لا يحصيهم العدد ، ولا يزال هذا العدد يتزايد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

فعش بالعلم لا تبغي به بدلاً الناس موتى وأهل العلم أحياء

وأما الخصلة الثالثة وهي قوله ﷺ : « أو ولد صالح يدعو له» : عبر ﷺ بالولد ، وذلك أن الولد يشمل الذكر والأنثى ، ويشمل ولد الصلب ، أو ولد الولد ذكرًا كان أو أنثى ، كما قال تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ [النساء:١١] ، ينتفع والده بصلاحه ، ودعائه ، وصدقته عنه وحجه ، فهو يدعو لوالديه بالمغفرة ، والرحمة ، وتكفير السيئات ، ورفع الدرجات ، وحصول المثوبات ، وهذا مدلول قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ ﴾ [يس:١٢] أي نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم،وآثارهم التي تركوها من بعدهم، كقوله ﷺ : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها

من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ، ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» رواه مسلم . فما قدموه من الأعمال الصالحة مما باشروه بأنفسهم من الأعمال الحسنة ، أو السيئة ، وآثارهم ، ما ترتب على أعمالهم مما عمله غيرهم أو انتفع به غيرهم.

وهذا الحديث فيه دلالة على الترغيب في النكاح الذي من ثمراته حصول الأولاد الصالحين ، وأولادهم الذين يحصل له دعاؤهم له ، وترحمهم عليه ما بقوا ، سيما إذا جعل الله من بينهم من فيه نفع عام للمسلمين ، يعم نفعه ، ويتعدى ، فالوالد يناله من الأجر بحسب ذلك ؛ لكونه هو السبب في حصول هذا النفع العام .

ويدخل في الثواب الذي يصل للميت ما يهدى له من القرب والطاعات من أهله وأقاربه وغيرهم من الدعاء له ، والاستغفار ، والحج عنه ، وتلاوة القرآن ، وغير ذلك من القرب والطاعة ، فكل قربة فعلها حي، وأهدى ثوابها لميت ، فإن ذلك ينفعه ، ويصل له بإذن الله تعالى . والله أعلم .

ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين يا أرحم الراحمين ، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الحادي والثلاثون

روى أبو داود والحاكم وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« يقول الله تعالى : أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإن خانه خرجت من بينهما » .

هذا الحديث يدل على فضل الشركة ، وأنه مرغب فيها شرعًا ، ومن أسباب حصول البركة وسعة الرزق ، وهو يدل أيضًا بعمومه على جواز أنواع الشركات التي بينها العلماء رحمهم الله ، وكلها جائزة إذا لم تشتمل على شيء مما نهى الله عنه ورسوله ﷺ ، فالأصل في المعاملات الحل والإباحة ، والشركات أنواع :

النوع الأول : شركة العنان ، سميت بذلك ؛ لأن الشريكين يتساويان في المال ، وفي التصرف فيها ، كالفارسين المستويين في السير ، فإن عنان فرسيهما يكونان سواء ، هذا وجه التسمية ، وإلا فهي : أن يحضر كل واحد منهما من ماله نقدًا معينًا ؛ ليعمل كل منهما فيه ، فهما شريكان في المال والعمل ، على أن لكل منهما ربحًا معلومًا مشاعًا .

النوع الثاني : شركة المضاربة ، سميت بذلك ؛ لأن الغالب على من

يأخذ المال ، أنه يذهب إلى بلاد أخرى ، ويأتي بأصناف المال التي لا توجد في بلده ، حتى يبيعها ، ويتحصل على الربح ، مأخوذة من قوله سبحانه : ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٣٠] .

وتعريفها شرعًا : هي أن يدفع شخص مالاً معينًا معلومًا لشخص آخر ، يتجر به ، بجزء معلوم ، مشاع من الربح ، فإن كان بجزء معلوم غير مشاع ، كأن يقول : اتجر بهذا المال ، واضمن لي في كل مائة عشرة ربحًا ، أو أقل أو أكثر ، فهذا لا يجوز ، كما هي معاملة كثير من البنوك اليوم .

النوع الثالث : شركة الوجوه : وهي أن يشتركا في ربح ما يشتريان في ذمتهما بجاهيهما ، ويكون كل منهما وكيل للآخر ، وكفيل في تصرفه .

النوع الرابع: شركة الأبدان: وهي أن يشتركان فيما يتملكان بأبدانهما، أي في عمل أبدانهما ، نحو احتطاب ، أو صيادة سمك ، أو استخراج ما ينتفع به من رؤوس الجبال ، أو قرار البحار ، ونحو ذلك ، وكذلك فيما يعملان من صناعة ، كخياطة ، أو حدادة ، أو نجارة ، أو بناء ، أو إصلاح سيارات ، وما يشبه ذلك .

النوع الخامس : شركة المفاوضة ، وهي أعم من كل ما تقدم من أنواع الشركات ، وهي أن يفوض كل منهما إلى صاحبه كل تصرف مالي، ويشتركا في كل ما يثبت لهما ، وعليهما ، فهما شريكان فيما يعملان ، وفي أموالهما ، وفي جاهيهما ، وفي كل ما يحصل لهما ، لكن بشرط أن لا يدخلا فيها الشيء

النادر، كالميراث ، أو لقطة ، أو ركاز ، ونحو ذلك مما يندر وقوعه .

فهذه أنواع الشركات التي حررها العلماء رحمهم الله . والشريعة الإسلامية تحث ، وترغب في الشركات ؛ لما يترتب عليها من المصلحة ، والفائدة ، والتعاون ، والله سبحانه وتعالى رغب فيها بقوله ، كما في هذا الحديث القدسي الذي نحن بصدد الكلام عليه : « أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه » .

ومن كان الله معه ، نجح في عمله ، وبورك له فيه ، وتيسرت له أسباب الرزق ، وتفتحت له أنواع طرق الخير ، وتسهل أمره ، وحصلت له الإعانة ، والتسديد ، والتوفيق في العمل .

ومن المعلوم أن الشركاء يحصل بينهم التعاون في عملهم، وفي رأيهم ، ويدركون ما لا يدركه الواحد منفردًا ؛ ولأن الشركات يتمكن أصحابها من توسيعها في أمكنة متعددة ، وفي أنواع وأصناف من المال ، وتستمر ، ولو حصل لأحد الشريكين ما يحصل من العوارض ، التي قد تعوقه عن استمراره في عمله ، كالأسفار ، أو الأمراض ، أو غير ذلك مما يعتري سائر الناس ، ولكن كل هذه الفوائد إنما تحصل إذا وجدت الأمانة ، والصدق بين الشريكين ، أو الشركاء ، والنصح ، والإخلاص في العمل ، وعدم الخيانة ، فإن حصلت الخيانة ، خرج الله من بينهما ، وذهبت بركة سعيهما ، وتعسرت أمورهما ، ومن وكله الله إلى نفسه ، فقد خسر خسرانًا مبينًا .

وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث «ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خان أحدهما صاحبه ، رفعت البركة عنهما » .

والمؤمن يكون إيمانه حاجزًا له، ورادعًا عن أن يعمل شيئًا ، يضر بصاحبه وشريكه ، أو أن يتصف بالحسد والبغضاء لإخوانه المؤمنين ؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩] ، ووجود الحاجة هو الحسد ، ومن صفات هؤلاء أنهم مهما ارتفعت منازلهم في الدنيا ، لا يتغيرون على أقاربهم ، ولا أصحابهم ، وأصدقائهم ، بل هم في تواضعهم ، وفي خفض الجناح على ما كانوا عليه ، لا يغيره اتساع ولايته ، ولا عظم جاهه ، فالترفع على الناس بسبب الولاية لؤم وحمق ، بل الكريم يتذكر أقربائه وأصحابه وأصدقائه ، كما قيل في المعنى :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشن

وقد أوصى بعض السلف ابنه فقال : يا بني ؛ لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قربك ، وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك ، وإن عملت عنده لم يترفع عليك .

ومن أنواع الوفاء بين الأصدقاء والشركاء أن لا يسمع ما يبلغه الناس على صديقه ، وليحذر كل الحذر من بعض الناس الذين يحبون التفرقة بين

المتصافين ، سواء كانوا شركاء ، أو أصدقاء ، أو أقارب ، وإن الناس لهم طرق في كيفية الإفساد ، فعلى العاقل أن لا ينخدع ، ومن لا يأخذ حذره من هذا الصنف ، فإنه حري أن لا يدوم له صديق .

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه ، وجنبنا ما يسخطك يا ذا الجلال والإكرام.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الثاني والثلاثون

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يقول عند الكرب :

« لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم » .

قد تضمن هذا الحديث نوعًا من أنواع العلاجات القلبية من الأمراض التي تستولي على القلب ، وتدخل عليه الحزن ، وتشتت أفكاره وحواسه ، ويضطرب من أجلها صفاء عقله ، وسلامة فكره ، ولما كانت الدنيا مزرعة للآخرة ، وليست لحي دار استقرار وموطن إقامة ، وإنما هي ممر ومعبر والدنيا من أولها إلى آخرها متاع قليل ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨] .

وقد قال ﷺ : «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه – يعني التي تلي الإبهام – في اليم ، فلينظر بم ترجع» رواه مسلم ، وقد قال ﷺ : « مالي وما للدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

فإذا علم الإنسان أن هذه حالة الدنيا ، وكل يعلم ذلك ، فينبغي أن يوطن نفسه على الصبر ، والتحمل لما يحصل فيها من المشاق والمتاعب ، لعلمه أنها زائلة ، وذاهبة ، هي ومن فيها ، وأن جميع ما فيها من متاع عارية مردودة كما قيل :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بـد يومًا أن تـرد الودائع

بل المال والولد والأهل فتنة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال:٢٨] .

فهذه الأمور من الفتن والأسباب التي تعوق المؤمن في سيره إلى ربه ، ولكن من لطفه سبحانه بعباده ، ورحمته لهم ؛ جعل لهم ما يكفر هذه الأمور التي توجب الغفلة ، والكسل ، والميول إلى هذه الدنيا ، وزهرتها ، والذهول عن الدار الآخرة ، وما أعد الله فيها لمن أطاعه من النعيم المقيم ، وما أعد بها لمن عصاه من النكال والجحيم ، ففرض سبحانه الفرائض من الصلوات ، والزكوات ، والصيام ، والحج ، والعمرة ، والتسبيح ، والتهليل ، وجميع أعمال الطاعات ، وجعلها مكفرات لما يحصل من الغفلة والنسيان لأمور الآخرة ، ويحصل فيها الانتباه والتذكر ، كما قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عندما سأله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « فتنة الرجل في أهله وماله وجاره ؛ تكفرها الصلاة ، والصيام ، والصدقة» رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري . وهذا فضل

منه سبحانه ، وإحسان على عباده المؤمنين .

فإذا علمت أيها المسلم أن الدنيا دار كدر ، وهموم ، وغموم ، وفتن ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد:٤] ، وقد قيل في المعنى :

طُبعت على كدرٍ وأنت تريدها   صفوًا من الأقذار والأكدار

ومُكَلِّف الأيام ضدَّ طباعها   متطلبٌ في الماء جَذْوة نار

إذا علمت هذا ؛ فاعلم أن نبينا محمدًا ﷺ الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وهو بأمته رؤوف رحيم ، قد وصف لنا علاجًا نافعًا ، يعالج به المؤمن الصادق في إيمانه ، ما يصيبه من الكرب ، والهم ، والحزن ، فقال صلى الله عليه وسلم كما في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «من كثرت همومه وغمومه ؛ فليكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله » .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : «كان رسول الله ﷺ إذا أهمه الأمر ؛ رفع طرفه إلى السماء ، وقال : سبحان الله العظيم ، وإذا اجتهد في الدعاء قال : يا حي يا قيوم » رواه الترمذي .

وتقدم لنا في الحديث قوله ﷺ يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب

السموات ، ورب الأرض ، ورب العرش الكريم » .

وعن أنس رضي الله عنه قال : «كان رسول الله ﷺ إذا كربه أمر قال : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث » رواه الترمذي .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه مرفوعًا إلى النبي ﷺ : « دعوات المكروب : اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت » رواه أحمد وأبو داود.

وعن أسماء بنت عميس قالت : قال لي رسول الله ﷺ : «ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب : الله الله ربي ، لا أشرك به شيئًا » رواه أبو داود وابن ماجة . وفي رواية : «سبع مرات» .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما أصاب عبدًا همٌّ ، ولا حزنٌ ، فقال : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاءك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله همه ، وحزنه ، وأبدله مكانه فرحًا » رواه أحمد .

وقال ﷺ : «دعوة ذي النون ، إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت: لا إله

إلا أنت سبحانك ، إني كنت من الظالمين . لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط ؛ إلا استجيب له » رواه الترمذي .

وفي رواية : «إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه ؛ كلمة أخي يونس » .

وقال ﷺ لأبي أمامة رضي الله عنه : « ألا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك ، وقضى دينك ، قال : قلت : بلى قال : قل إذا أصبحت ، وإذا أمسيت : اللهم إني أعوذ بك من الهم ، والحزن ، وأعوذ بك من العجز ، والكسل ، وأعوذ بك من الجبن ، والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين ، وقهر الرجال ، قال : ففعلت ، فأذهب الله عز وجل همي ، وقضى عني ديني » رواه أبو داود .

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا ، ورزقه من حيث لا يحتسب» رواه أبو داود وابن ماجة .

وقال ﷺ : «عليكم بالجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى ، فإنه باب من أبواب الجنة ، يدفع الله به عن النفوس الهم والغم » رواه أحمد .

وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، فعلى المؤمن أن يقتدي بهدي نبيه ﷺ في أقواله ، وأفعاله ، ويتقبل إرشاداته ، وأن يلح على ربه في الدعاء ،

فإن الله يحب الملحين في الدعاء ، ويملأ قلبه رغبة ، ورهبة إلى ربه ، ويتوسل إليه بأسمائه الحسنى . ومن أجمعها : يا حي يا قيوم ، ويستعين بربه وحده ، ولا يستعين بأحد سواه ، ويفوض أمره إليه ، ويعترف بأن ناصيته بيد ربه ، يصرفه كيف شاء ، وأنه ماض فيه حكمه ، عدل فيه قضاؤه .

وينبغي أن يحرص على ذكر الله ، ويكثر منه ، سيما تلاوة القرآن الكريم ، بتدبر وتفهم لمعانيه ، وأن يتسلى بتلاوة القرآن عن كل فائت ، ويتعزى به عن كل مصيبة ، ويستشفي به من أمراض الصدور ، ووسواس النفوس ، وسائر الأمراض ، فيكون جلاء حزنه ، وشفاء همه وغمه ، ويحرص غاية الحرص على العمل بما يأمره به القرآن ، وينتهي عما ينهاه ؛ لأن هذا هو المقصود منه، ، وقد كان خلقه ﷺ القرآن ، يأتمر بأمره ، وينتهي عن نهيه ، وقد وصف الله خلق نبيه ، فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤] . وثبت من حديث عائشة رضي الله عنها قولها : « كان خلقه القرآن » رواه مسلم .

فالقرآن الكريم يهذب الأخلاق ، ويرقق القلوب ، ويصفيها ، ويذهب همومها ، وغمومها .

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وجلاء أحزاننا ، وذهاب همومنا وغمومنا ، آمين .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

الحديث الثالث والثلاثون

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

« قيل: يا رسول الله: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ، ويحمده الناس عليه ، - وفي رواية : و يحبه الناس عليه - قال ﷺ : تلك عاجل بشرى المؤمن » .

إن الصحابة رضي الله عنهم من أحرص الناس على الخير ، وعلى ما يقربهم إلى الله ، وأبعد الناس عن الرياء وعن الشر ، وعن كل ما يكون سببًا للبعد عن الله ، فلذلك لما عرض لهم هذا الأمر ؛ وهو ما يجده المؤمن، وما يحصل له من الثناء ، ومحبة الناس له ، حصل لهم نوع شك في ذلك ، وخشوا أن يكون ذلك من الرياء ، الذي حذر منه ﷺ ، فلما قال أحدهم : يا رسول الله ؛ أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ، يحمده الناس عليه ، ويحبوه من أجله ، قال ﷺ : « تلك عاجل بشرى المؤمن» .

فبذلك اطمأنت نفوسهم ، وازدادوا بذلك سرورًا وفرحًا ،﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨] .

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على أن آثار الأعمال الصالحة التي يحمد المؤمن عليها ؛ أنها من عاجل البشرى ، فإن الله سبحانه وعد أولياءه ،

وهم المؤمنون المتقون بالبشرى في هذه الحياة الدنيا ، وفي الآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[يونس:٦٢-٦٤].

والبشرى والبشارة هو الخبر السار ، أو الأمر الذي يحصل لك به ما يسرك ، مما تعرف به حسن عاقبتك ، وأنك من أهل السعادة ، وأن عملك من الأعمال المقبولة عند الله ، فبهذا يحصل للمؤمن انشراح الصدر ، وموالاة الأعمال ، والنشاط فيهما في هذه الدنيا ، ويسأل الله سبحانه وتعالى التسديد والتوفيق ، وأن لا يزيغ قلبه بعد إذ هداه ، فهذه البشارة التي تحصل للمؤمنين مما يعجلها الله لهم في توفيقه جل وعلا لهم للخير ، وعصمته لهم من الشر ، كما قال ﷺ : « أما أهل السعادة ؛ فييسرون لعمل أهل السعادة » رواه البخاري ومسلم .

وهناك أيضًا بشرى أخرى ؛ وهي الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن ، أو ترى له ، فإنها من المبشرات ، كما روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾ [يونس:٦٤] قال : « الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له » رواه أحمد .

ورواه ابن جرير رحمه الله قال : « سأل رجل أبا الدرداء عن هذه الآية

فقال : لقد سألت عن شيء ما سمعت أحدًا سأل عنه ، بعد رجل سأل عنه رسول الله ﷺ ، فقال : الرؤيا الصالحة يراها المسلم ، أو ترى له ، بشراه في الحياة الدنيا ، وبشراه في الآخرة الجنة» رواه الإمام أحمد وسعيد بن منصور في سننه .

فهذه الأمور التي تحصل للعبد المؤمن ، مما ينشطه على فعل الخير والاستمرار به ، فإن الله أكرم الأكرمين ، وأجود الأجودين ، وإذا ابتدأ عبده بالإحسان أتمه ، ما لم يغير العبد حالته، ويعرض عن ربه ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١].

فإذا عمل العبد المؤمن أعمال الخير ؛ خصوصًا الآثار الصالحة ، والمشاريع الخيرية العامة النفع ؛ فإن الناس مجبولون على محبة من أحسن إليهم ، فهم يلهجون بالثناء والدعاء له ، كما قيل :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

ومن البشرى التي تحصل للمؤمن في الدنيا ما يجعل الله في قلوب العباد له من المحبة ، والمودة ، ولو لم ينلهم منه إحسان ، ولا معروف ، بل إذا أحسن العمل لله سبحانه ، وامتثل أوامر الله ، جعل الله في قلوب العباد له المودة والمحبة ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم:٩٦] أي حبًا في قلوب عباده.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله إذا أحب عبدًا ؛ دعا جبريل ، فقال : إني أحب فلانًا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء ، فيقول : إن الله يحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض عبدًا ؛ دعا جبريل عليه السلام ، فيقول : إني أبغض فلانًا فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، قال: فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

وقد روي معنى هذا الحديث عند البخاري وغيره : وقال : هرم بن حيان : ما أقبل أحد على الله بقلبه ؛ إلا أقبل الله بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم ، وقيل في قوله تعالى : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم:٩٦] ، أي : يجعل لهم الله مودة في قلوب المؤمنين والملائكة يوم القيامة .

وقال القرطبي رحمه الله : « إذا كان العبد محبوبًا في الدنيا فهو كذلك في الآخرة » .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « إن الله أعطى المؤمن الإلفة ، والملاحة ، والمحبة في صدور الصالحين ، والملائكة المقربين» .

ومن عاجل بشرى المؤمن ما يحصل له من ثناء المؤمنين عليه ، فإن المؤمنين شهداء الله في أرضه .

ومن عاجل بشرى المؤمن ما يقدره الله له من الأمور التي تكون وسيلة إلى إصلاح دينه ، وسلامته من الشرور ، سواء أكانت مما يحبها ، أم مما يكرهها العبد ؛ لأن الله عز وجل قد يبتلي عبده ببعض الأمور التي يكون فيها صلاحه الديني ، ولكن العبد قد لا يشعر بذلك لأول وهلة ، بسبب ما يفوت عليه من أمور الدنيا ، والله سبحانه أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، كما جاء في الأثر : « إن الله عز وجل يحمي عبده المؤمن في الدنيا وهو يحبه ، كما تحمون مريضكم من الطعام والشراب تخافون عليه » رواه أحمد ، وهذا ليس لكل مؤمن ، كما جاء في الحديث الآخر : « إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك » .

فهذا طرف مما تحصل فيه للمؤمن البشارة التي أشار إليه الحديث في قوله ﷺ : « تلك عاجل بشرى المؤمن» .

وأما البشارة الأخرى التي تحصل للعبد عند انقطاعه من الدنيا ، والتحاقه في عالم الآخرة ، فهي البشارة برضى الله عنه ، وثوابه له ، والنجاة من غضبه ، وعقابه عند الموت، وفي القبر ، وعند القيام إلى البعث والنشور، يبعث الله لعبده المؤمن في تلك المواضع بالبشرى على يدي الملائكة ، كما جاءت بذلك الآيات والأحاديث الصحيحة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت :٣٠] .

قال مجاهد : تتنزل عليهم الملائكة عند الموت ، قائلين أن لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ، ولا تحزنوا على ما خلفتموه من أمر الدنيا ، من ولد ، وأهل ، ومال .

وروى البراء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب ، كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان» .

اللهم اجعلنا من عبادك المؤمنين ، الذين لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الرابع والثلاثون

روى البخاري ومسلم عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا ، وبينا ، بورك لهما في بيعهما ، وإن كذبا ، وكتما ، محقت بركة بيعهما » .

هذا الحديث الشريف أصل عظيم في بيان المعاملات ، التي يحصل بها البركة ، والخير الكثير ، بسبب التزام الصدق فيها ، وعدم الخيانة ، والغش ، والخداع ، والتدليس .

وتضمن بيان المعاملات التي يحصل بها الضرر ، وتكون عاقبتها الندامة ، وعدم البركة ، وهي ما اشتملت على كتمان العيب ، والغش ، والمخادعة ، ولذلك جعل ﷺ الخيار بين البائع والمشتري ، مدة جلوسهما ، وعدم تفرقهما بأبدانهما عن محل البيع ، وهذا ما يسميه العلماء خيار المجلس، وهو أن لكل واحد من المتبايعين الخيار ، بين إمضاء البيع أو فسخه ، ما داما في مجلس العقد ، فإذا تفرقا ، ثبت البيع ، ولزم لكل منهما ، وليس لأحدهما فسخ العقد بعد ذلك إلا بسبب يوجب ذلك ، كخيار مشروط ، أو يجد عيبًا في السلعة ، قد أخفاه عليه صاحبه ، أو غير ذلك مما يوجب الفسخ .

وخيار المجلس جعله الشارع لما فيه من المصلحة الراجحة لكل من المتعاقدين ، وذلك أنه يقع من كثير من الناس العجلة ، سيما في البيع والشراء ؛ لكثرتهما ، فلذا جعل ﷺ خيار المجلس لكل منهما ، وكثير من الناس يحرص على وجود الصفقة ، ويسارع إليها ، فإذا وقعت وتم البيع ، أخذ يفكر في السلعة ، وفي ثمنها ، وهو في مجلسه ، فربما بدا له عدم الرغبة ، فجعل له الشارع ﷺ الخيار في مجلسهما .

وفي هذا الحديث دلالة على تحريم الغش ، والخداع ، والتدليس ، فإن هذا كله داخل في قوله ﷺ : « فإن كذبا ، وكتما ، محقت بركة بيعهما » ، وهذا عقوبة من العقوبات العاجلة ، وهي عدم وجود البركة في بيعه وشرائه إذا اتصف بالكتمان للعيوب ، والكذب في السلعة ، في جودتها ، أو زيادة ثمنها، أو شيء من أوصافها ، وقد حذر ﷺ عن اليمين الكاذبة في البيع ، وأخبر أنه منفقة للسلعة ، ممحقة للبركة ، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للبركة» . رواه البخاري .

والمعنى : أنه إذا حلف على سلعة ، أنه أعطى فيها كذا وكذا ، أو أنه اشتراها بكذا وكذا ، فيظنه المشتري صادقًا فيما حلف عليه ، فيأخذها بزيادة على قيمتها ، والبائع كاذب ، وحلف طمعًا في الزيادة ، فيكون البائع قد عصى الله ، وخان هذا المسلم ، وخدعه بهذه اليمين الكاذبة ، فيعاقب بمحق

البركة ، فإذا ذهبت بركة كسبه ، دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه ، بسبب حلفه ، وربما عوقب بذهاب ثمن تلك السلعة رأسًا ، فإنه قد علم من الشريعة الإسلامية أن الذنوب والمعاصي سبب من أسباب حرمان الرزق ، كما جاء في الحديث : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» رواه أحمد وابن ماجة ، ومن المعلوم أن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته ، وإن تزخرفت الدنيا للعاصي ، فعاقبتها اضمحلال ، وزوال في الدنيا ، وحساب وعقاب في الآخرة .

وروى مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إياكم وكثرة الحلف في البيع ، فإنه ينفق ، ثم يمحق» .

وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا» . رواه مسلم .

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : مر رسول الله ﷺ بطعام ، وقد حسنه صاحبه ، فأدخل يده فيه ، فإذا طعام رديء ، فقال : « بع هذا على حدة، وهذا على حدة ، فمن غشنا فليس منا ».

وعن أنس رضي الله عنه قال : «خرج رسول الله ﷺ إلى السوق ، فرأى طعامًا مصبرًا ، فأدخل يده ، فأخرج طعامًا رطبًا ، قد أصابته السماء ، فقال لصاحبه: ما حملك على هذا ؟ قال : والذي بعثك بالحق ، إنه لطعام واحد ، قال : أفلا عزلت الرطب على حدة ، واليابس على حدة ، فيبتاعون

ما يعرفون ، من غشنا فليس منا» . رواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد .

فإذا تأملت هذه الأحاديث الشريفة ؛ وجدتها تحذر غاية التحذير من أي نوع من أنواع الخداع، والغش بين المسلمين في جميع معاملاتهم، من بيع، وشراء ، وإجارة ، وتزويج ، وغير ذلك ، وإذا أضفت إلى هذا قوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ، تبين لك عظم حق المسلم على أخيه المسلم .

ثم إذا تأملت ما يحدث من الشقاق ، والنزاع ، والعداوات بسبب الغش ، والخداع ، وعدم النصح ، وجدت أنه يترتب عليه شر عظيم ، وخطر جسيم ، قد يؤدي بالمرء إلى ذهاب دينه ، أو إزهاق نفسه ، أو حبسه ، أو ضربه .

فليتق الله المؤمن ، ويحرص على أن يلقى الله سبحانه ، وهو خال القلب من الغش ، والحقد ، والحسد ، وأن يحرص غاية الحرص على الصدق ، وتبيين الواقع في سلعته ، عملاً بقوله ﷺ في هذا الحديث : « فإن صدقا ، وبينا ، بورك في بيعهما » .

فالخير كل الخير بامتثال أوامر الله ، وأوامر نبيه ﷺ ، وباتباع الطريقة الشرعية ، يحصل للمؤمن السلامة من الإثم ، والعقوبة . والسلامة من الوقوع في المنهيات ، فيسلم له دينه ودنياه ، ويتصف بما أمر النبي ﷺ به أمته، من النصح لكل مسلم ، كما جاء في حديث جرير بن عبد الله رضي الله

عنه قال : « بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، وأن أنصح لكل مسلم» رواه أبو داود .

وكان إذا باع الشيء ، أو اشترى قال : أما إن الذي أخذنا منك أحب إلينا مما أعطيناك ، فاختر .

وفي حديث الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « قال الله عز وجل : أحب ما تعبدني به عبدي إلي ؛ النصح لي » .

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، ومن لم يصبح ، ويمسي ناصحًا لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولإمامه ، ولعامة المسلمين ؛ فليس منهم» رواه الطبراني في الأوسط .

وروي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمنون بعضهم لبعض نصحة ، وادون ، وإن بعدت منازلهم وأبدانهم ، والفجرة بعضهم لبعض غششة ، متخاونون ، وإن اقتربت منازلهم وأبدانهم» رواه البيهقي في شعب الإيمان .

وجاء عنه ﷺ أنه قال : « لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان ؛ حتى يحب للناس ما يحب لنفسه » رواه ابن حبان في صحيحه وأبو يعلى في مسنده .

فهذا خلق المؤمن ، وهذه صفته ، أنه يحب لأخيه المؤمن ما يحب

لنفسه ، ويكره لأخيه المؤمن ما يكره لنفسه ، وقد وصف النبي الكريم ﷺ المؤمن بقوله : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه مسلم .

فتجد المؤمن القوي في الإيمان متصف بهذا الوصف ، عند معاملاته في بيعه ، وشرائه ، وإجاراته ، وسائر المعاملات المتعلقة بتبادل المصالح ، إن باع فيربح بمعروف ، وإن اشترى فمساومته في حدود الواقع ، لا يستغل حاجة أخيه إلى ما بيده ، ولا يعطي سلعته من الأوصاف والمدح فوق ما تستحقه ؛ لأنه يعلم أن هذا نوع من الخداع ، والغش . وإيمانه يمنعه من فعل ذلك .

وتجد المؤمن القوي في الإيمان ، قد امتلأ قلبه من العطف ، والشفقة ، على إخوانه ، فهذا يأمره بالمعروف ، وذاك ينهاه عن المنكر ، وهذا يساعده بالنصيحة ، والتحذير مما يخاف عليه في أمر دينه ودنياه ، وهذا يحسن عليه بجاهه ، وذاك يمده بالعون المادي ، فهذه صفة المؤمن .

اللهم اجعلنا من عبادك المؤمنين وحزبك المفلحين . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الخامس والثلاثون

روى الإمام البخاري رحمه الله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:

« لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال » .

دل هذا الحديث على تحريم تشبه الرجال بالنساء ، وتشبه النساء بالرجال ، وقد رتب ﷺ على كل ذلك اللعن ، وأي عقوبة أشد من اللعن ، واللعن هو الطرد ، والإبعاد عن رحمة الله .

وهذا التشبه ليس خاصًا باللباس فقط ، بل هو عام في اللباس ، والكلام ، وجميع الأحوال ، التي هي من خصائص الرجال عن النساء والعكس ، ولا يقال : إن هذه أمور عادية ، لا دخل للتحريم فيها ، فإن هذه وإن كانت عادية ، والأصل فيها الإباحة ، ولكن ما ورد فيه نص عن الشارع فإنه يجب العمل به ، وما نهى عنه فيجب اجتنابه ، وقد ورد عنه ﷺ في هذا المعنى المشتمل على النهي عن التشبه عدة أحاديث نسوق منها ما يتيسر .

فمنها ما رواه الإمام أحمد رحمه الله عن رجل من هذيل وقد قال :

رأيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، ومنزله في الحل ، ومسجده في الحرم ، قال : فبينا أنا عنده ، رأى أم سعيد بنت أبي جهل متقلدة قوسًا ، وهي تمشي مشية الرجل ، فقال عبد الله : من هذه ؟ فقلت : هذه أم سعيد بنت أبي جهل ، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس منا من تشبه بالرجال من النساء ، ولا من تشبه بالنساء من الرجال » .

وروى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « أربعة لعنوا في الدنيا والآخرة ، وأمنت الملائكة : رجل جعله الله ذكرًا ، فأَنَّثَ نفسه، وتشبه بالنساء ، وامرأة جعلها الله أنثى ، فتذكرت ، وتشبهت بالرجال ، والذي يضل الأعمى ، ورجل حصور ولم يجعل الله حصورًا إلا يحيى بن زكريا » .

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أُتي رسول الله ﷺ بمخنث قد خضب يديه ورجليه بالحناء ، فقال رسول الله ﷺ : ما بال هذا ؟ قالوا يتشبه بالنساء، فأمر به، فنفي إلى النقيع، فقيل يا رسول الله ؛ ألا نقتله؟ فقال : إني نهيت عن قتل المصلين » والنقيع : هي ناحية من نواحي المدينة .

وروى الحاكم وغيره وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل» .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لعن رسول

الله ﷺ مخنثي الرجال الذين يتشبهون بالنساء ، والمترجلات من النساء المتشبهات بالرجال ، وراكب الفلاة وحده » .

فهذه الأحاديث تدل على تحريم تشبه الرجال بالنساء ، وتحريم تشبه النساء بالرجال ، وهذا عام في اللباس وغيره من الكلام ونحوه .

ومن الحكمة في النهي عن التشبه ، أن الله خص الرجل بخصائص ، وخص الأنثى كذلك ، وجعل لكل منهما من الأمور والصفات ما يميزه ، وجعل للرجال عليهن درجة ، وجعل القوامة للرجال ، فهم القائمون عليهن بالنفقة ، والكسوة ، والمسكن ، قوامين عليهن بإصلاح أحوالهن، وتعليمهن ما ينفعهن ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة:٢٢٨] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران:٣٦]، وقال جل شأنه : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٣٤] .

والعجب من أناس في هذا الزمان ، راق لهم التشبه بالنساء في لباسهم، وفي هيئتهم ، وحديثهم ، وهذه الفتنة دخلت على البلاد الإسلامية من البلاد الأجنبية .

فاجتمع محذوران محظوران ، التشبه بالنساء، وقد لعن رسول الله ﷺ

من تشبه بهن ، والتشبه بالكفار فيما يختصون به ، وقد قال رسول الله ﷺ : «من تشبه بقوم فهو منهم» رواه أبو داود ، والتشبه بهم في الظاهر يدعو إلى التشبه بهم في الباطن ، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره من العلماء.

وهذا التشبه إن دل على شيء ، فإنما يدل على مهانة هذا المتشبه ، وضعف عقله ، وأخلاقه ، وهمته ، كيف يجعل نفسه في عداد النساء ، وقد جعله الله في عداد الذكور ، كيف يتصف بهذا الوصف الذي يكسبه المقت بين الناس ، من رجال ، ونساء ، وأطفال .

وأما تشبه النساء بالرجال فهذا أيضًا مغاير للخلقة التي خلقها الله عليها، ويدل على نقصان العقل ، والدين . وتشبهها بالرجال لا يعطيها ، ولا يكسبها رفعة ، بل بالعكس يكسبها هبوطًا في معنويتها بين الرجال والنساء، وفي المجتمع كله. كما أن الرجل الذي يتشبه بالنساء يضعف قدره، ويهبط في مستواه الاجتماعي عند الرجال والنساء ، ويكره الرجال مجالسته ، ويبعدونه عن مجتمعاتهم الشريفة ، ولا يميل إليه إلا السفهاء ، والصبيان ، كما تكرهه النساء العاقلات ، فيبقى مكروهًا عند عقلاء الرجال ، والعاقلات من النساء .

وقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن كمال كل نوع من الذكور والإناث بكمال صفات نوعه فيه ، فكمال الرجل باكتماله صفات الرجولية

فيه ، وكمال المرأة باكتمال صفات الأنوثية فيها ، ومتى اكتسب الرجل شيئًا من صفات النساء فهو نقص فيه : كسرعة الغضب ، وقلة الصبر ، وكثرة النسيان ، ونحو هذه الصفات التي تكثر غالبًا في النساء ، وتقل في الرجال ، كما أخبر ﷺ أن النساء ناقصات عقل ودين كما في البخاري ومسلم ، ولما سألته إحدى النساء عن ذلك قال : « أليست شهادة المرأتين بشهادة رجل ، فهذا نقصان عقولهن» .

وإذا أردت أن تعرف آثار التشبه ومفاسده ، وعظيم خطره على الفرد والمجتمع ، فتأمل حال كثير من المجتمعات التي فشا فيها التقليد ، فإنك تجد كثيرًا من رجالها لا يبالي بمن دخل على أهله ، أو نظر إليها ، أو اجتمع بها ، فتجد كثيرًا من هؤلاء يدع زوجته ، أو أخته ، أو بنته ، تذهب إلى الأسواق وحدها ، كاشفة لمفاتنها ، تزاحم الرجال في الطرقات ، وفي الأسواق ، ويزعم وليها أن هذا من التقدم والرقي ، وعدم الجمود ، ويتهم غيره من أهل الاستقامة والمروءة ، بأنه متحجر ، ونظره قاصر ، وليس عنده مرونة ، والرجل المرن عندهم : هو الذي يتطور بالتطورات الجديدة ، ولو كانت على حساب ذهاب دينه ، والقدح في عرضه ، ونقصان مروءته .

يقضى على المـــرء في أيام محنته   حتى يرى حسـنًا ما ليس بالحسن

وإن الواجب على كل مسلم عمومًا ، وعلى أهل الحسبة خصوصًا ردع هؤلاء ، وكف شرهم عن المجتمع ، والسعي في إصلاحهم ،

وتوجيههم إلى ما فيه الخير .

اللهم اهدنا لأحسن الأقوال والأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث السادس والثلاثون

روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن أبي موسى رضي الله عنه قال ، كان رسول الله ﷺ إذا أتاه السائل ، أو طلبت إليه حاجة قال :

« اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » .

هذا الحديث فيه الحث على فعل الخير ، واستحباب قضاء حاجة المسلم ، والسعي وراء تحقيقها ، وأن من سعى في حاجة أخيه المسلم ، وشفع له بجاهه ، ومكانته في مجتمعه ، أنه يحصل له الأجر الكبير ، سواء حصل ما سعى فيه ، أو لم يحصل ، وسواء تم المراد على الوجه المطلوب ، أو تم بعضه ، أو لم يتم ، كما قيل :

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده   وليس عليه أن تتم المقاصد

فإذا علم المؤمن أن الأجر في السعي لحاجة أخيه المسلم حاصل ، قضيت ، أو لم تقض ، فلا ينبغي أن يفوت على نفسه هذه الفضيلة ، وهذا الأجر الذي رتبه ﷺ على الشفاعة .

والمرد بهذه الشفاعات التوسط لذوي الحاجات عند من تعلقت حاجات الناس بهم ، مما يكون فيه خير للمشفوع له ، وليس فيه تحصيل أمر محرم ، أو أمر لا يستحقه المشفوع له ، فهذه الشفاعة الحسنة المرغب فيها .

ولا ينبغي أن يمنعه من الشفاعة عدم قبولها ، فإن الأجر حاصل له سواء نفعت الشفاعة أم لم تؤت ثمارها ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء:٨٥].

كما أنه ينبغي لمن شفع عنده أحد أن لا يتبرم من شفاعته ، ولا يضيق صدره بذلك ، ويوطن نفسه على الحرص على قضائها، إذا أمكنه ذلك ، ولم يكن عليه به ضرر ، ولا على غيره ، فإذا لم يتمكن ، فينبغي أن يرد ردًا حسنًا لطيفًا ، فبه جبر لخاطر الشافع ، والمشفوع له ، فإنه يدخل في عموم قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٨] يقول الشاعر في هذا المعنى :

إن لا يكن ورق يومًا أجود به

للسائلين فإني لين العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقي

إما نوال وإما حسن مردود

ومن فوائد هذا الحديث استحباب السعي في سبيل الخير ، وفعل كل ما يزيل اليأس عن النفوس ، فإن وجود اليأس في النفس سبب لكثرة الهم ، والغم ، والانقباض ، وضيق الصدر ، وإذا حصل شيء من هذه الأمور تشتت الذهن ، وتبلد الفهم ، وضعف التفكير ، واستولى على النفس

الكسل ، والخمول . وأما إذا واصل السعي في طلب الحاجات ، وبذل جهده ، واستعان بمن يظن أنه يحصل بسببه المقصود ، واتكل على الله في نجاح أموره ، فإن هذا عنوان على وجود الرجاء ، والأمل في حصول المراد، وهذا مأمور به شرعًا حيث يقول ﷺ : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » رواه مسلم.

وفي قوله ﷺ : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان رسوله ما يشاء » أن الشفاعة لا يجب على المشفوع عنده قبولها، إلا أن يشفع في إيصال شيء من الحقوق الواجبة ، فإن الحق الواجب يلزم أداؤه ، وإيصاله إلى مستحقه ، ولو لم تحصل فيه شفاعة ، فإذا وجدت الشفاعة تأكد أداؤه أيضًا، ويدل الحديث على شدة شفقته ﷺ ، ورحمته ، ورأفته بأمته ، حيث وجههم ﷺ إلى الشفاعة في الخير ومن حاجات الناس وتحقيقها ، وهذا من كريم خلقه ﷺ ، كما وصفه الله بذلك في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

اللهم وفقنا لفعل الخيرات ، وأصلح لنا النيات ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث السابع والثلاثون

روى البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : قال الله تعالى :

« **يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب الليل والنهار** » .

وفي رواية عند مالك : « لا تسبوا الدهر ، فإن الدهر هو الله » .

في هذا الحديث توجيه نبوي كريم للمسلم ، وما ينبغي أن يحفظ به لسانه ، تأدبًا مع ربه جل وعلا .

قال الإمام الشافعي في تأويل هذا الحديث والله أعلم : إن العرب كان من شأنها أن تذم الدهر ، وتسبه عند المصائب ، التي تنزل بهم من موت ، أو هرم ، أو تلف ، أو غير ذلك ، فيقولون : إنما يهلكنا الدهر ، وهو الليل والنهار ، ويقولون : أصابتهم قوارع الدهر ، وأبادهم الدهر ، فيجعلون الليل والنهار يفعلان الأشياء ، فيذمون الدهر بأنه هو الذي يغنيهم ، ويفعل بهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا الدهر» على أنه الذي يغنيكم ، والذي يفعل بكم هذه الأشياء ، فإنكم إذا سببتم فاعل هذه الأشياء ؛ فإنما تسبون الله تبارك وتعالى ، فإنه فاعل هذه الأشياء .

وقال الشيخ سليمان بن علي رحمه الله : والظاهر أن المشركين نوعان :

أحدهما : من يعتقد أن الدهر هو الفاعل ، فيسبه لذلك ، فهؤلاء هم الدهرية .

الثاني : من يعتقد أن المدبر للأمور هو الله وحده لا شريك له ، ولكن يسبون الدهر ؛ لما يجري عليهم فيه من المصائب ، والحوادث ، فيضيفون ذلك إليه ، من إضافة الشيء إلى محله ، لا لأنه فاعل لذلك ، والحديث صريح في النهي عن سب الدهر مطلقًا ، سواء اعتقد أنه فاعل ، أو لم يعتقد ذلك ، كما يقع كثيرًا ممن يعتقد الإسلام ، كقول ابن المعتز :

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحدًا وأنت والد سوء تأكل الولدا

وقول المتنبي :

قبحًا لوجهك يا زمان كأنه وجه له من كل قبح برقع

فقوله ﷺ عن الله تبارك وتعالى : « يؤذيني ابن آدم » الأذية في لغة العرب : هو لما خف ضرره ، وضعف أثره ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [آل عمران:١١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «والأذى بخلاف الضرر ، فقد أخبر سبحانه وتعالى أن العباد لا يضرونه ، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، فبين سبحانه أن الخلق لا يضرونه ، لكن يؤذونه إذا سبوا الدهر ؛ لأن

الدهر عمل له ، وإنما مقلب الأمور هو الله سبحانه ، وقد أنكر سبحانه على الدهريين المشركين وغيره ، بقوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوٓاْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية:٢٤].

قال ابن كثير رحمه الله على هذه الآية : يخبر تعالى عن قول الدهريين من الكفار ، ومن وافقهم من مشركي العرب ، في إنكار المعاد ، وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا .

قال ابن جرير : أي ما حياة إلا حياتنا ، التي نحن فيها ، ولا حياة سواها ، تكذيبًا منهم بالبعث بعد الموت .

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ : قال ابن كثير : أي يموت قوم ، ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركوا العرب المنكرون للمعاد ، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البدأة والرجعة .

وقوله : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴾ أي : ما يغنينا إلا مر الليالي ، والأيام ، وطول العمر ، إنكارًا منهم أن يكون لهم رب يفنيهم ، ويهلكهم .

وقد روى ابن جرير بإسناد على شرط الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا ، ويميتنا ، ويحيينا ، فقال الله في كتابه : ﴿ وَقَالُوٓاْ مَا هِىَ

إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ قال : فيسبون الدهر ، فقال الله سبحانه وتعالى: « يؤذيني ابن آدم بسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب الليل والنهار » .

فقد تضمن هذا الحديث والحديث المذكور أولاً النهي عن سب الدهر ، والمعنى في الحديثين ظاهر وواضح ، وهو أن الدهر عبارة عن الليل والنهار ، وليس لهما أي فعل ، إنما هما مسخران ، يتعاقبان ، كما سخرهما الله لعباده ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل:١٢].

فإذا علم المسلم أنهما مسخران ، بتسخيرالله سبحانه وتعالى ، فعلام يشابه بقوله قول الجاهلية ، الذين يزعمون أن الدهر هو المتصرف ، وأنه لا رب ، ولا إله ، ولا قيامة ، ولا جنة ، ولا نارًا .

فينبغي للمسلم أن يبتعد عن مشابهة المشركين ، ولو خالف اعتقاده اعتقادهم ، فالمسلم ولو قال بلسانه : عضنا الدهر بنابه ، أو أكلتنا السنون ، أو أصابتنا قوارع الدهر من سائر الأمثال المشابهة لهذا ، فإنه لا يعتقد أن الدهر هو صاحب الأفعال ؛ لأن المسلم يعلم أن الله سبحانه وتعالى هو المصرف لهذه الأمور ، وأنه لا يجري شيء إلا بقضائه وقدره ، ولكن مع هذا كله ، لا ينبغي له أن يجري على لسانه هذه الألفاظ ، التي كانت من عادة أهل الجاهلية ، فلا ينبغي له أن يشابههم ، ولو خالفهم في الاعتقاد .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله على هذا الحديث : في هذا ثلاث مفاسد عظيمة :

أحدها : سبه من ليس أهلاً للسب ، فإن الدهر مسخر ، من خلق الله، منقاد لأمره ، متذلل لتسخيره ، فسابه أولى بالذم ، والسب منه .

والثانية : أن سبه متضمن للشرك ، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع ، وأنه مع ذلك ظالم ؛ لأنه قد ضر من لا يستحق الإضرار ، ورفع من لا يستحق الرفعة ، وحرم من لا يستحق الحرمان ، وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة . وأشعارهم بذلك كثيرة جدًا ، وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه .

الثالثة : أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال ، التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم ، لفسدت السماوات والأرض ، وإذا وافقت أهواءهم ، حمدوا الدهر ، وأثنوا عليه ، وفي حقيقة الأمر أن رب الدهر هو المعطي ، المانع ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل . والدهر ليس له من الأمر شيء ، فسبتهم الدهر سبة الله عز وجل. ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى .

فساب الدهر دائر بين أمرين ، لا بد له من أحدهما ، إما مسبة الله ، أو الشرك به ، فإنه إن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله ، فهو مشرك ، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك ، وهو يسب من فعله ، فهو يسب الله تعالى .

وقوله سبحانه في هذا الحديث القدسي : « وأنا الدهر» : معناه أنا صاحب الدهر ، ومدبره ، ومدبر الأمور كلها ، فكل ما يضيفونه إلى الدهر، وينسبونه إليه ، فإنما هو في الحقيقة من تدبيري ، وقضائي ، وقدري ، فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور ، فقد نسبه إلى ربه ، والذي هو فاعلها ، وإنما الدهر زمان ، جعل ظرفًا لمواقع الأمور ، ولهذا جاء في الحديث الآخر : « وأنا الدهر بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار» رواه البخاري .

وفي رواية عند الإمام أحمد رحمه الله : « بيدي الليل والنهار ، أجدده ، وأبليه ، وأذهب بالملوك» .

وفي رواية أخرى لأحمد : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله قال : أنا الدهر ، الأيام والليالي لي أجددها وأبليها ، وآتي بملوك بعد ملوك» . قال ابن حجر: وسنده صحيح .

قال بعض أهل العلم : وبهذا يتبين خطأ ابن حزم عفا الله عنه في عده الدهر من أسماء الله الحسنى ، وهذا غلط فاحش ، ولو كان الأمر كذلك، لكان الذين قالوا : وما يهلكنا إلا الدهر مصيبين في قولهم ، مع أن القرآن رد عليهم بقوله : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية:٢٤].

وإنه ينبغي للمؤمن امتثالاً لأمره ﷺ أن يجتنب ، ويبتعد كل البعد عن هذه الأمور، التي تجري على ألسنة كثير من الناس، من سبه بعض الليالي ،

أو الأيام ، أو الساعات ، ذلك لأنه من مسبة الدهر . وتقدم لك من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية بما يكفي في النهي عنه واجتنابه . والله أعلم .

وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الثامن والثلاثون

روى البخاري ومسلم - واللفظ للبخاري - عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ:

« لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه ، فإن كان لا بد فاعلاً ، فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي » .

هذا الحديث يدل على نصحه ﷺ لأمته ، وشفقته عليها ، فقد نهاهم ﷺ أن يتمنى أحد منهم الموت ؛ لأمر من الأمور نزل به ، ضرر بدني أصابه ، أو حالة نفسية وقع فيها ، أو حصل له غلبة من بعض الناس ، فنهى ﷺ عن تمني الموت ، وذلك لما يشتمل عليه من المضار الدينية والدنيوية ؛ لأن تمني الموت يدل على التسخط بقضاء الله وقدره، ويدل على شدة الجزع ، والخور، وعدم مقاومة ما يصيبه ، وهذا يدل على قلة الإيمان ، والعاقل يعرف أنه لا يخلو أحد في الدنيا من المكدرات ، والمنغصات ، مهما كان ومهما أوتي من المال ، والجاه ، والرئاسة ، والسيطرة، والله سبحانه يقول ، وهو أصدق القائلين : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد:٤] ، ويقول الشاعر في هذا المعنى :

طبعت على كدر وأنت تريدها صفوًا من الأقذار والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

ثم إن من آتاه الله إيمانًا ، يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، ويعلم أن الله سبحانه وعد الصابرين الأجر الأوفر على صبرهم ؛ لما يصيبهم من محن الدنيا ، ومكدراتها ، ومنغصاتها ، فيقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠].

فإذا علم العبد أنه يثاب على الصبر ، حصل له بذلك تسلية ، وسعة صدر لما ينتظره من ثواب الله ، وهانت عليه مصيبته ، وخفت عنه آلامه ، ولم يزل في حالته هذه في عبادة ، لتلبسه بالصبر ، وانتظاره الفرج من الله ، ويتذكر قوله سبحانه ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح:٥-٦] ، وكم حصل على بعض المؤمنين من مصائب ، وابتلاء ، وامتحان ، وتسددت أمامه الأبواب التي يأمل ، أو يرجو أن يأتيه الفرج من قبلها ، ثم فتح الله له أبوابًا لم تكن له في حساب ، ولم تمر له على بال ، ففرج الله عنه ، وأبدله السرور والغبطة ، سيما إذا انطرح بين يدي ربه ، أرحم الراحمين ، وقطع الرجاء من جميع المخلوقين ، وتأمل قوله سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢] ، وقد قيل في هذا المعنى :

وكم لله من لطف خفي يدق خفاه عن فهم الذكي

وكم يسر أتى من بعد عسر ففــرج كربة القلب الشـجي

ثم إن تمنى الموت مع نهيه ﷺ عنه يورث الإنسان الكسل ، والخمول ، وضعف النفس ، ويوقعه في اليأس ، والقنوط ، والله سبحانه وتعالى نهى عن هذا كله ، بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧] ، ويقول سبحانه :﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦]. ويقول جل وعلا : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح:٥-٦]، ويقول ﷺ: «لن يغلب عسر يسرين» قال الحاكم : أخرجه عبد بن حميد عن ابن مسعود بإسناد جيد .

والمطلوب من العبد المؤمن مقاومة هذه الأشياء ، والسعي في إضعافها من نفسه ، وتخفيفها مهما أمكن ، ويكون معه من قوة القلب ، وقوة الرجاء في زوالها ، بحسب اقتداره ، وإذا سعى العبد في مقاومة هذه الأمور ، واستعان بربه ، وعمل بعض الأسباب ، فإن الله يلطف به ، ويهيء له من أمره رشدًا ، ويفتح له فتوحات لم تكن بباله ، والله سبحانه يحب من عبده مجاهدة نفسه ، فيما يعود عليه بالمصالح الدينية ، والدنيوية ، يقول سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

وإن تمني الموت أيضًا يدل على الجهل ، وقلة العلم ؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن الناس يفتنون في قبورهم، ويعذبون فيها ، أو ينعمون ، كما قيل :

والقبر إما روضـــــة للمتقي أو حفرة النـــار تصيب الظالمـا

فالمتمني للموت هل عنده علم ويقين من أنه إذا مات استراح من نصب الدنيا ، وهمومها ، وغمومها ، أو إنه يكون في أشد مما هو فيه من العذاب !! فربما كان هذا المستعجل لنفسه بالموت ؛ كالمستجير من الرمضاء بالنار . فإن النبي ﷺ أخبر أن الناس يعذبون في قبورهم ، وأمرنا أن نستعيذ من عذاب القبر في أدبار الصلوات ، فقال ﷺ : « إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع : من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال» رواه مسلم .

ثم إنه بتمنيه الموت نسي أنه إذا مات انقطع عمله ، وقيام العبد بالأعمال الصالحة لا يعدلها شيء ، فإن بقية عمر المؤمن لا قيمة له ، ولذا جاء في الحديث «أن أعرابيًا قال : يا رسول الله من خير الناس؟ قال : من طال عمره ، وحسن عمله » رواه الترمذي وحسنه.

ثم إنه يضاعف الأجر للصابرين ، على ما يصيبهم من الضر ، والبلوى ، والشدة ، واللأواء ، والله سبحانه وعد الصابرين الأجر والمثوبة، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد:٣١] ، وقد قيل في الحث على الصبر وانتظار الفرج:

عسى فــرج يأتي بــه الله إنــه
له كل يــوم في خليقتــه أمــر
عسى ما ترى أن لا يدوم وأن ترى
له فرجًا مما ألــح بــه العســر
إذا اشــتد عسر فارْج يسرًا فإنــه
قضى الله أن العسـر يتبعــه يســر

وقال آخر :

أتاك الروح والفــرج القريـب وســاعــدك القضـاء فلا تخيـب
صـبرت فنلت عقبى كل خــير كــذاك لكل مصطـبر عقيــب

ولغيره في المعنى :

فما شــدة يومًا وإن جـل خطبها
بنازلــة إلا ســيتبعها يســر
وإن عسرت يومًا على المرء حاجة
وضاقت عليه كان مفتاحها الصبر

وقال آخر :

ولرب ضائقة يضيــق بها الفتى ذرعًا وعند الله منها المخـــــرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنـــها لا تفرج

ثم إنه ﷺ لما نهى عن تمني الموت من أجل ضر نزل ، وجه ﷺ توجيهًا حسنًا إلى أمر آخر ، هو أحسن من تمني الموت ، وهو أن يجعل الخيرة فيما يختاره الله له ، ويسلم الأمر لربه ، فهو سبحانه أعلم بمصالح عباده ، وأرحم منهم بأنفسهم ، فلذلك قال ﷺ : «فإن كان لابد فاعلاً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي » .
قال بعض العلماء رحمهم الله : والفرق بين هذا وبين قوله ﷺ في الحديث الآخر الذي رواه البخاري ومسلم : « لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت، وليعزم المسألة ، فإنه لا مكره له » أن المذكور في الحديث الذي فيه التعليق بعلم الله ، وإرادته ، هو في الأمور التي لا يدري العبد عن عاقبتها ، ومصلحتها ، وأما المذكور في الحديث الآخر ، وهو طلب المغفرة والرحمة ، فهي أمور يعلم مصلحتها ، بل ضرورتها ، وحاجة كل أحد إليها ، وهي مغفرته ، ورحمته سبحانه ، فإن العبد يسألها ، ويلح في السؤال ، ويطلبها طلبًا جازمًا لا يعلق بالمشيئة ؛ لأنه مأمور بها ، ومحتم عليه بالسعي فيها .

واستثنى كثير من العلماء من كراهية تمني الموت تمنيه خوفًا على دينه ، وأن يفتن عنه ، وجعلوا من هذا قول مريم رضي الله عنها : ﴿ يَـٰلَيۡتَنِي مِتُّ

قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم:٢٣]. واستثنى بعضهم أيضًا تمني الموت اشتياقًا لله، ومحبة للقائه سبحانه ، وجعلوا منه قول يوسف عليه السلام : ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١]. قال بعض العلماء : وفي هذا نظر فإن يوسف عليه السلام لم يتمن الموت ، وإنما سأل الله الثبات على الإسلام ، حتى يتوفاه مسلمًا ، كما يسأل العبد ربه حسن الخاتمة .

اللهم أحسن خاتمتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث التاسع والثلاثون

روى البخاري ومسلم – واللفظ لمسلم– عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذابًا » .

هذا الحديث عنه ﷺ من الآداب الشرعية ، ومن محاسن هذا الدين الإسلامي ، الذي جاء بكل فضيلة ، ونهى عن كل رذيلة ، وإن من أرقى الخصال الحميدة هو ما جاء في هذا الحديث ، وهو الصدق ، وتحريه ، فالصدق دليل على الإيمان ، دليل على رجاحة العقل، دليل على المروءة، يكسب صاحبه السلامة في الدين ، يكسبه المحبة عند الله وعند عباده المؤمنين ، بل يكسبه الثقة التامة من معاشريه ، ومن يتعاملون معه ، من سائر طبقات الناس ، يكون من أهل البر والإحسان ، يكون محبوبًا مكرمًا موثوقًا به ، إن شهد فشهادته بر ، وإن حكم فحكمه عدل ، معاملته فيها

نفع ، ومجالسته فيها خير .

ولقد حث سبحانه وتعالى على مجالسة الصادقين ، وعلى الركون إليهم، والدخول في معيتهم ، يقول تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩] .

وقد وصف سبحانه المهاجرين الأولين بالصدق في قوله عز وجل ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ [الحشر:٨] ، لقد صدقوا في هجرتهم في إيمانهم ، في أعمالهم ، في صلاتهم ، في زكاتهم ، في صومهم ، في حجهم ، في معاملتهم ، نُطْقهم لله ، وصمتهم لله ، وجميع حركاتهم وسكناتهم ، عملهم كله لله ، لا رياء ولا سمعة ، يقولون الحق ولو على أنفسهم ، ولا يخافون جور جائر ، ولا ظلم ظالم ، فمن تشبه بهم ، وتحرى أن يكون مثلهم ، ولو ببعض صفاتهم بقدر استطاعته ، فإن هذا من أقوى أسباب الهداية ، ومن أقرب الطرق إلى سلوك سبيل البر ، والبر يهدي إلى الجنة .

وإذا اتصف الإنسان بهذا الوصف ؛ اكتسب محبة الله سبحانه ، ومحبة الناس ، فلا يخالطه أحد منهم إلا وثق به ، واطمأن إليه ، وأمنه على نفسه ، وماله ، وأهله ، ورغب الناس في مجاورته ، ومعاشرته ، ومصاهرته ، وقد روي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : « من كانت له عند الناس ثلاث

وجبت له عليهم ثلاث : من إذا حدثهم صدقهم ، وإذا ائتمنوه لم يخنهم، وإذا وعدهم وفّى لهم ، وجب له عليهم : أن تحبه قلوبهم ، وتنطق بالثناء عليه ألسنتهم ، وتظهر له معونتهم» .

وقيل للقمان الحكيم ألست عبد بني فلان؟ قال بلى ، قيل : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : تقوى الله عز وجل ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعنيني . وقد قيل في المعنى :

إذا ما المرء أخطـــأه ثلاث فبعه ولو بكف من رمـــاد

سلامة صدره والصدق منه وكتمان السرائر في الفـــؤاد

قال بعض العلماء رحمهم الله : الصدق يرفع المرء في الدارين ، كما أن الكذب يهوي به في الحالين ، ولو لم يكن للصدق خلة تحمد ، إلا أن المرء إذا عرف به ، قبل كذبه ، وصار صدقًا عند من يسمعه ، لكان على العاقل أن يبلغ مجهوده في رياضة لسانه ، حتى يستقيم له على الصدق ، ومجانبة الكذب، والصمت في بعض الأوقات خير من النطق ؛ لأن كل كلام أخطأ صاحبه فوضعه خير منه .

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لا يجد عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وهو محق ، ويدع الكذب في المزاح ، وهو يرى أنه لو شاء لغلب ، وروى الطبراني في الأوسط عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن

أحببتم أن يحبكم الله ورسوله؛ فأدوا إذا ائتمنتم ، واصدقوا إذا حدثتم ، وأحسنوا جوار من جاوركم» ، وقد قيل في المعنى :

ما أقبح الكذب المذموم صاحبه   وأحسن الصدق عند الله والناس

فهذه بعض فضائل الصدق، وبيان وجوبه ، وحسن عاقبته ، ومنتهاه، ويكفي قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الرجل ليصدق ، ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صديقًا» . ويكفي في الكذب قوله ﷺ : « وإن الرجل ليكذب ، ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذابًا» ، فيصبح كذابًا عند الله ، وعند خلقه ، فلا يقام له وزن ، ولا قيمة لكلامه ، ولا لخبره، ولو كان في نفس الأمر صدقًا ، ولا يأمنه أحد على شيء ، فإن كان عالمًا اتهم في فتواه، وفي قلمه ، ولسانه ، ونقله ، وإن كان ذا صنعة ، اتهم في صناعته ، ولم يؤمن غشه ، وحذر الناس من معاملته ، وإن كان تاجرًا ، اتهم في مكياله ، وميزانه، ولم يصدق خبره ، وإن كان طبيبًا ، اتهم في نصحه ومعرفته ، فالكاذب يجني على نفسه قبل أن يجني على غيره .

وكان عبد الملك بن مروان يقول لمؤدب ولده : علم بني الصدق ، كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم الكذب ، وأن فيه كذا وكذا يعني القتل .

وقد قال بعضهم في الحث على الصدق ، والكلام الحسن :

عود لسانك قول الخير تحظ به   إن اللســـان لما عودت معتـــادا

موكل يتقاضى ما ســـننت له فاختر لنفسك وانظر كيف ترتادا

وينبغي للوالد وللمعلم أن يمرنوا الأولاد على الصدق ، ويحذروهم من الكذب ، فإن الوالد يُقتدى به ، وكذلك المعلم ، ويكون التحذير من الكذب بالقول ، وبالفعل ، فإنه إذا أمرهم بشيء وخالفه ، لم يقبلوا قوله . واقتداؤهم بالأفعال أشد من اقتدائهم بالأقوال ؛ ولأن من نهى عن شيء ، ولم ينه نفسه عنه ، صار مذمومًا ، وممقوتًا عند الله ، وعند خلقه ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٣] ، وقد قيل في المعنى :

يا أيها الرجــل المعلم غـــيره هلا لنفســك كان ذا التعليم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيهــا فإن انتهيت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى بالرأي منك وينفــع التعليم

والكذب مذموم في جميع الأحوال ، إلا ما استثناه الرسول الكريم ﷺ بقوله ، كما في حديث أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها ، قالت : « ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب ، إلا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب ، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها » رواه أحمد .

ومثل ذلك ما وقع من نعيم بن مسعود رضي الله عنه في غزوة الأحزاب ، عندما تمالأت قريش واليهود على النبي ﷺ وأصحابه بالمدينة ، واتفقوا على قتالهم ، ونقضوا عهودهم مع الرسول ﷺ ، فسعى نعيم رضي الله عنه ، وأوقع بينهم الخلاف ، والعداوة ، حتى كان ذلك من أسباب خذلانهم ، وتفرق كلمتهم .

وينبغي للمرء أن يستغني بالمعاريض إذا احتاج عن الكذب ، فإن في المعاريض مندوحة عن الكذب .

وقد قال إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام في سارة زوجته إنها أخته، وأراد بذلك أنها أخته في الإسلام ، وكقول الخليل عليه السلام لما قالوا له: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٢-٦٣] .

نسأل الله سبحانه أن يمن علينا بالصدق في الأقوال والأفعال ، وأن يجنبنا المنكرات ، ويستعملنا في الباقيات الصالحات ، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الأربعون

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا » .

هذا الحديث يدل على استحباب الدعوة إلى الله ، وإلى دينه ، وإلى كل خير ، وأن الأجر في ذلك عظيم ، كما أن الوزر عظيم على من دعى إلى معصية أو ضلالة .

وقد ورد في معناه أحاديث كثيرة : كقوله عليه الصلاة والسلام : «من سن سنة حسنة في الإسلام ، كان له أجرها ، وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها بعد ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا » . رواه مسلم .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ليس من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل »

رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري .

وورد بهذا المعنى عدة آيات في كتاب الله عز وجل : منها قوله تعالى : ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠] ، فأخبر سبحانه وتعالى أن جزاء الإحسان إحسان مثله . وقد قال ﷺ : « من دل على خير ، فله مثل أجر فاعله » رواه مسلم .

ومن أفضل أنواع الإحسان الدعوة إلى الله،وإرشاد الناس، وهدايتهم إلى طريق الحق والخير ، فإن هذه هي طريقة المرسلين ، كما قال عز وجل : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٥٢] ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]، وقال جل شأنه : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥] ، وقال سبحانه وتعالى في عكس ذلك ، وهو الدعاء إلى الضلالة ، والإفساد في الأرض ، بإغواء الناس ، وصدهم عن السبيل ، والطريق الموصلة إلى الله ، وإلى رضوانه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل: ٨٨] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : منعوا الناس عن الإيمان بالله ، وبمحمد ﷺ . والمعنى : أنهم زيد لهم العذاب ، حيث كفروا بأنفسهم ،

وكذبوا بآيات الله ، وحاربوا رسله ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، وصاروا دعاة إلى الضلال ، فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم ، وكما أفسدوا في أرض الله .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « من دعا إلى هدى» ، المراد بالهدى : العلم النافع الموصل إلى الله ، وإلى محبته ، ورضاه ، وهو العلم الموروث عن المصطفى ﷺ، فكل من علم علمًا ، أو أرشد إلى طريقه ، أو وجه المتعلمين إلى سلوك السبيل التي يحصل لهم فيها علم ، وتنوير بصيرة، وفقه في الدين، ومعرفة لصحيح العقيدة ، وراجح الأقوال الفقهية ، والإرشاد إلى الكتب النافعة ، المبينة للهدى بدليله ، الخالية من الانحراف العقائدي ، والجمود المذهبي ، فهذا من الداعين إلى الهدى ، وله من الأجر بقدر نيته ، وحرصه على هداية الناس ، ويستمر أجره ما دام أثر إرشاده باقيًا ، وكذلك كل من دعا إلى عمل صالح ، يتعلق بحق الله ، أو بحقوق عباده ، سواء كانت من الحقوق العامة أو الخاصة، أو أرشد الناس، وأبدى نصيحته لهم ، وخوفهم، وذكرهم بأيام الله ، فحصل له بذلك أثر ، وانتفع السامعون منه ، فهو من الداعين إلى الله ، سيما إذا كان من المتصفين بما يدعو إليه ، والعاملين بما علمهم الله ، فمثل هذا يكون تأثيره أقوى ، وقبول كلامه أحرى ، والذين يقتدون بأفعالهم غالبًا أكثر من الذين يقتدون بأقواله .

وأما من يكون بعكس ذلك ممن يتكلمون بألسنتهم، ويعظون الناس،

ويأمرونهم بفعل الخير ، وهم لا يتصفون به ، فهؤلاء على خطر عظيم ، وقد وردت النصوص في ذمهم ، وعلى شدة عذابهم ، ومن هذه صفته فإنه لا يقبل منه قوله ، ولا ينتفع بوعظه ؛ كما قيل:

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإن انتهيت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى بالرأي منك وينفع التعليم

ويدخل في باب الدعاء إلى الهدى الحث على فعل المشاريع الخيرية ، مما فيه نفع عام ، أو خاص ، سواء كان الحث على هذا العمل بالقول ، أو الفعل ، وربما كان الفعل أقوى تأثيرًا من القول ، كمن يبذل في أي مشروع خيري شيئًا من المال ، فإن الناس يقتدون بفعله ، أكثر من اقتدائهم بقوله ، وذلك كالحث على التبرعات لبناء المساجد ، والأربطة ، أو المدارس الدينية، أو طبع الكتب النافعة ، ونشرها ، وتوزيعها على المنتفعين بها ، فكل هذا داخل في هذا الحديث العظيم .

وبعكس هذا كله من دعا إلى ضلالة ، فإن عليه وزرها ، ووزر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا ، فهؤلاء أئمة وقادة في الشر ، يقتدي بهم ، وبأفعالهم ، وأقوالهم ، أهل الشر ، كما قال عز وجل : ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١].

كما أن الداعين إلى الهدى هم أئمة وقادة في الخير ، كما قال عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤] .

فعلى الناصح لنفسه أن يعرف الفرق بين الفريقين ، ويسلك طريق الحق ، ويبتعد عن طريق الضلال ، امتثالاً لقوله عز وجل : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ ﴾ [المائدة:٣] ، فالدعوة إلى الله والنصح لعباد الله ، وتذكيرهم بآلاء ربهم ، ونعمه عليهم ، وتخويفهم من عقابه ، وإرشادهم إلى سبيل السلامة ، وأمرهم بالتمسك بكتابه ، وسنة نبيه ﷺ ، والابتعاد عما يخالف ذلك من الأمور الشركية ، أو البدعية ، التي تخالف ما جاء عن الله ، وعن رسوله ﷺ ، فهذه الدعوة من أفضل ما يعمله الداعون إلى الهدى .

اللهم ارزقنا العلم النافع ، والعمل الصالح ، واجعلنا هداة مهتدين ، وألحقنا بالصالحين يا حي يا قيوم .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين .

* * *

الحديث الحادي والأربعون

في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة » .

هذا إرشاد منه ﷺ على اختيار الجليس الصالح ، والقرب منه ، وترك جليس السوء ، والبعد عنه ، ولما كان غالب الناس محتاج إلى جليس ، ومؤانس له ، يأنس بقربه، ويألف بالاجتماع به، ويسليه، ويواسيه، كما قيل:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة   يواسيك أو يسليك أو يتوجع

فإن من اللازم لكل عاقل أن يحسن اختيار جليسه ورفيقه ، وقد أخبر النبي الكريم ﷺ أن الجليس على نوعين :

أحدهما : أن يكون رجلاً صالحًا يدعو إلى الخير ، ويحبه ، ويحسنه لصديقه ، ويرغبه فيه ، ويحثه عليه ، ويفعله هو بنفسه ، فيقتدي به صاحبه ، ويتأثر به .

الثاني : أن يكون بعكس ذلك ، وهو من كانت نفسه خبيثة ، تحب السوء ، وتميل إليه ، ويعجبها ، لا يحب فعل المعروف ، ولا يأمر به ، ولا يحسنه لغيره ، بل ينفر عنه ، ويكون له بطانة سوء ، يأمره بالشر ، ويحسنه له، ويحذره من الخير ، ويقبحه له .

فالنبي الكريم والناصح الأمين ﷺ حذرنا غاية التحذير عن هذا وأمثاله ، وضرب لنا الأمثال ، وشبه لنا الجليس الصالح ، وجليس السوء بتشبيه بليغ في معناه ، وفي مبناه ، يفهمه العالم ، والجاهل ، والصغير ، والكبير. شبهه بشيء محسوس ، يعرفه كل أحد ، وقسم الجلساء إلى قسمين: صالحين ، يستفاد من مجالستهم كل خير ، وجلساء سوء يكسبون جليسهم كل مكروه وشر ، فمثل النبي ﷺ بهذين المثالين : حامل المسك ، ونافخ الكير.

مبينًا أن الجليس الصالح خير في كل أحواله ، ينتفع برائحة المسك الذي عنده ، ولو لم يمنحك منه شيء ، ولو لم تشتر منه شيئًا ، فإن الرائحة الزكية نفع ، وخير تجنيه منه ، فتكون منشرح الصدر ، مطمئن النفس ، فكذلك الجليس الصالح يدلك على الخير ، وينهاك عن الشر ، وينصحك بالمعروف ، ويذكرك به ، ويحثك على فعله ، والمبادرة إليه ، فيحثك على أداء الصلاة مع جماعة المسلمين ، وأداء الزكاة ، وحج بيت الله ، والبر بالوالدين، وصلة الأرحام ، ورد الحقوق لأصحابها ، وغير ذلك من

الطاعات .

والإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه والتأثر به ، والتخلق بأخلاقه ؛ لكثرة المجالسة والمخالطة ، والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

وفوائد صحبة الرجل الصالح وأهل الخير كثيرة ، ولو لم يكن فيها إلا أنك تُعرف به ، وتكون على منواله في سلوكه ، لكان ذلك كافيًا في العناية والاهتمام باختياره ، كما ورد في الحديث : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل» رواه أحمد ، وقد قيل :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه　　فكـــل قريـــن بالمقـارن يقتـــدي

فهذه بعض فوائد مجالسة الجليس الصالح .

أما جليس السوء الذي حذر منه رسول الله ﷺ ، وذكر أنه شبيه بنافخ الكير ، الذي لا تعدم منه مضرة ، إما بناره تحرقك ، وإما بكثرة دخانه ، ورائحته المنتنة ، فما يحصل على المرء من اقتراف السيئات ، وتعاطي المنكرات ، والوقوع في الفواحش ، بسبب قرين السوء ، ومصاحبة أهل الشر والفساد ، أعظم بكثير من إحراق النار ، التي تؤلم في تلك اللحظة، ويزول أثرها بعد ذلك ، فإن شؤم الذنوب والمعاصي على صاحبها مستمرة معه ، في دنياه ، وفي أخراه ، إلا إذا أيقظه الله ، ووفقه للتوبة النصوح .

وشبه الرسول ﷺ بما يصيب المجالس لصاحب الكير ، ما يصيب الجليس من جليسه ، إذا كان صاحب سوء ، بنتن رائحة الكير ، وتوسيخ ثيابه ، وذلك أن جليس السوء يشبه صاحبه ، ويدنس عرضه ، فلا يحب الناس مجالسته ، ولا يرغبون به ، ولا بالاجتماع فيه ، فمضرة جليس السوء تتعدى إلى غيره ، وتحصل منه العدوى ، كما حصلت له من جليسه عليه ، وكم هلك بسبب جليس السوء أقوام كانوا قبل ذلك مستقيمين ، وكم قادهم جلساؤهم إلى المهالك ، من حيث يشعرون ، ومن حيث لا يشعرون.

وليعلم المرء أن كثرة المجالسة لأهل السوء تورث محبتهم والرضا بصنيعهم ، ثم يفضي به الأمر إلى التشبه بهم ، وفعل مثل فعلهم ، فيأنس بهم، ويحبهم ، ويبغض أهل الخير ويجتنبهم ، وقد قال ﷺ : « المرء مع من أحب » رواه البخاري ومسلم .

فعلى المسلم أن يحذر من مخالطة أهل السوء ، وأن يجتنب مجالستهم ، ومن ابتلي بشيء من ذلك ، فليعزم على نفسه ، ويقطع الصلة بهم ، ويبادر إلى التوبة ، واللحاق بالصالحين ، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم .

روى أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تصاحب إلا مؤمنًا ، ولا يأكل طعامك إلا تقي » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الرجل على دين

خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وعن أنس رضي الله عنه « أن أعرابيًا قال لرسول الله ﷺ : متى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ : ما أعددت لها ؟ قال : حب الله ورسوله ، قال : أنت مع من أحببت » متفق عليه .

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : وجبت محبتي للمتحابين في ، والمتجالسين في ، والمتزاورين في ، والمتباذلين في » رواه مالك في الموطأ بإسناد صحيح .

اللهم وفقنا لصحبة الأخيار، وارزقنا محبتهم فيك ، وجنبنا صحبة الأشرار، وارزقنا بغضهم فيك ، يا حي يا قيوم.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الثاني والأربعون

روى البخاري ومسلم رحمهما الله عن أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال :

« **إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم** » .

هذا الحديث الشريف يدل على أن الشيطان يدخل في جسم الإنسان ، ويصل إلى قلبه ، ويوسوس إليه بكل ما من شأنه أن يفسد على المسلم دينه ؛ لأنه كما قال عليه الصلاة والسلام : «يجري من ابن آدم مجرى الدم» .

ومعلوم أن الدم يتصل بجميع الجسد ، ولكن أهم ما في ذلك القلب، الذي هو ملك الجوارح ، وبفساده يفسد الجسد ، كما أن بصلاحه صلاح الجسد كله .

وفي هذا حث للمسلم أن يحذر من الشيطان غاية الحذر ، وأن يسعى في الأسباب التي تبعده عنه ، حتى يسلم من شره .

ومن أنفع الأسباب التي تطرد الشيطان الاستعاذة بالله من شره ، فإذا أحس الإنسان بشيء من وساوسه ، بادر إلى ذكر الله ، والاستعاذة من الشيطان، كما أرشدنا ربنا إلى ذلك بقوله عز وجل : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٦] ، وقال

عز وجل : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس:١-٦].

ففي هذه السورة يرشد الله جل وعلا نبيه الكريم ﷺ إلى الاستعاذة به من شر الوسواس ، وهو الشيطان الذي يوسوس للعبد ، ويلقي في قلبه الميل إلى الشهوات ، والمعاصي ، والتثاقل عن الطاعات ، وهو مشتق من الوسوسة ، وأصلها الحركة ، أو الصوت الخفي ، الذي لا يحس به ، فيحترز منه . فالوسواس الإلقاء الخفي في النفس ، إما بغير صوت كما يحصل من الشيطان ، أو بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي عليه ، كما يحصل ذلك من شياطين الإنس ، فكل من اتصف بالشر ، ودعا إليه ، وحبب إليه الباطل ، وحسنه للناس ، وحذر من الحق ، فهو شيطان ، إما من الإنس ، وإما من الجن ، كما قال عز وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام:١١٢] .

فإذا عرفت أيها المسلم أن الشيطان يحرص غاية الحرص على ما يضرك في دينك ودنياك ، كما قال عز وجل حكاية عن قول إبليس : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢-٨٣]. فعليك أن تفعل ما تقدر عليه من رد كيده ، وطرده عنك بجميع الأسباب ،

والوسائل النافعة .

ومن أنفع الأشياء في ذلك ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله ، وهي عشرة أسباب تطرد عنك الشيطان وتعصمك من شره بإذن الله تعالى :

الحرز الأول : الاستعاذة بالله منه ، كما قال عز وجل : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦].

وقد روى البخاري في صحيحه عن عدي بن ثابت عن سلمان بن صرد قال : كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان ، فأحدهما أحمر وجهه، وانتفخت أوداجه ، فقال النبي ﷺ: « إني لأعلم كلمة ، لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ذهب عنه ما يجد » .

الحرز الثاني : قراءة المعوذتين ، فإن لهما تأثيرًا عجيبًا في التحصن من الشيطان ، ودفع شره ، ولهذا قال النبي ﷺ : « يا ابن عباس ، ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ المتعوذون به ، قلت : بلى ، قال رسول الله ﷺ : قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، هاتين السورتين » رواه أحمد . وقد كان النبي ﷺ يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم ، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة، وقال ﷺ : « من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسي وثلاثًا حين يصبح كفته من كل شيء » .

الحرز الثالث : قراءة آية الكرسي ، ففي صحيح البخاري من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتى آت ، فجعل يحثوا من الطعام ، فأخذته، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله .. فذكر الحديث إلى أن قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فقال النبي ﷺ : صدقك وهو كذوب ذاك الشيطان » .

الحرز الرابع : قراءة سورة البقرة ، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، وإن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله شيطان » .

الحرز الخامس : قراءة خاتمة سورة البقرة ، فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » .

الحرز السادس : قراءة أول سورة (حم) المؤمن ، وهي قوله تعالى : ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ [غافر:١-٣] مع قراءة آية الكرسي ، ففي الترمذي من حيث عبد الرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « من قرأ حم المؤمن إلى﴿ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ ، وآية الكرسي ، حين يصبح حفظ

بهما حتى يمسي ، ومن قرأهما حين يمسي ، حفظ بهما حتى يصبح » .

الحرز السابع : مما يتحرز به من الشيطان ومكائده قول : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شي قدير) مائة مرة، فقد جاء في الصحيحين من حديث سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزًا من الشيطان ، يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به ، إلا رجل عمل أكثر من ذلك » . فهذا حرز عظيم النفع ، جليل الفائدة، يسير ، سهل على من يسره الله عليه .

الحرز الثامن : وهو من أنفع الحروز من الشيطان كثرة ذكر الله عز وجل ، ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال : « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، وإنه كاد أن يبطئ بها ، فقال عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم ، وإما أن آمرهم ، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي ، أو أعذب ، فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ ، وتعدوا على الشرف ، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن ، أولهن : أن

تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب ، أو ورق ، فقال : هذه داري ، وهذا عملي فاعمل ، وأد إليّ ، فكان يعمل ، ويؤدي إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ، وإن الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ، ما لم يلتفت . وآمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة ، معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب، أو يعجبه ريحها ، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وآمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فأوثقوا يده على عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم ، وآمركم أن تذكروا الله ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا ، حتى أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله .

قال النبي ﷺ : وأنا آمركم بخمس: الله أمرني بهن: السمع ، والطاعة، والجهاد ، والهجرة ، والجماعة ، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، إلا أن يرجع ، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم، فقال رجل يا رسول الله : وإن صلى وصام ؟ قال : وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله » .

قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح .

فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله ، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة الناس ، فإن الله جل وعلا وصف الشيطان فيها بأنه خناس ، وذلك أن العبد المؤمن إذا ذكر الله جل وعلا انخنس الشيطان ، وتجمع ، وانقبض ، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب ، وألقى إليه الوساوس التي هي مبادئ الشر كله ، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل .

الحرز التاسع : مما يحرز به من كيد الشيطان ، الوضوء والصلاة ، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه ، لا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة ، فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم ، كما جاء في الترمذي من حيث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ، فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض» ، وفي أثر آخر : « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء » رواه أحمد وأبو داود ، فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة ، فإنها نار ، والوضوء يطفئها ، والصلاة إذا وقعت بخشوعها ، والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله ، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه .

الحرز العاشر : إمساك الفضول من النظر ، والكلام ، والطعام ، ومخالطة النساء ، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم ، وينال منه غرضه ،

من هذه الأبواب الأربعة .

ومبدأ الفتنة من فضول النظر ؛ لأن النظر يدعو إلى الاستحسان ، ووقع صورة المنظور إليه في القلب ، والاشتغال به ، والفكرة في الظفر به ، وقد روى الحاكم في مستدركه وصححه ، والطبراني في معجمه عن النبي ﷺ أنه قال : « النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة ، فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانًا يجد حلاوته في قلبه » .

فالحوادث العظام إنما هي من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرة، كما قيل :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر

فعلى العبد المسلم أن يحرص على هذه الآيات والأذكار ، فإنها الحصن الواقي بإذن الله من مصائد الشيطان ومكائده .

اللهم احمنا من المخالفة والعصيان ، وجنبنا أسباب الندم والخسران، وأعذنا من الشيطان .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الثالث والأربعون

روى الإمام مسلم رحمه الله عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » .

هذا الحديث أصل عظيم من أصول الدين ، وقد اشتمل على الإيمان بالقضاء والقدر ، وهو أحد أركان الإيمان الستة ، وهي أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر ، خيره وشره .

فالإيمان بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، عامه وخاصه ، سابقه ولاحقه ، واجب على كل مسلم ، ولا يستقيم إيمانه إلا بذلك ، وهو علم العبد واعترافه بأن علم الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء ، كما قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج:٧٠] ، وكما قال عز وجل : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩] ، وقال سبحانه:﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩] .

ثم إنه سبحانه ينفذ هذه الأقدار في أوقاتها التي قدرها ، بحسب ما تقتضيه حكمته ، ومشيئته ، الشاملتان لكل ما كان وما يكون ، الشاملتان للخلق والأمر﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأعراف: ٥٤].

ثم إنه سبحانه وتعالى مع تقديره لذلك ، أي لجميع ما يجري على العبد من خير أو ضير ، وركب فيهم ما ركب من محبة للخير أو للشر ، أو ما جبلهم عليه من الإحسان إلى الناس أو الإساءة ، فإنه جلت قدرته قد أعطاهم قدرة ، وإرادة ، تقع بها أفعالهم ، بحسب اختيارهم ، ولم يجبرهم عليها ، وهو الذي خلق قدرتهم ، ومشيئتهم ، وركب فيها الميول للشيء ، أو العزوف عنه، وخالق السبب التام خالق للمسبب ، فأفعالهم وأقوالهم تقع بقدرتهم ومشيئتهم ، اللتين خلقهما الله فيهم ، كما خلق بقية قواهم الظاهرة والباطنة ، ولكنه تعالى يسر كلا لما خلق له ، كما جاء في الحديث : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة .

فمن وجه وجهه لله ، وقصده لربه ، وتعرض لذلك ، حبب إليه الإيمان، وزينه في قلبه ، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، وجعله من الراشدين ، فتمت عليه نعم الله من كل وجه ، وصار متجها بعمله ، وقوله إلى ما يحبه الله ويرضاه ، متجنبًا ما يسخطه ويأباه .

أما من وجه وجهه لغير الله ، وفاطره ، وبارئه ، وأعرض عنه ، وتولى غيره ممن خرج عن طاعة الله ، وطاعة رسوله ﷺ ، فإن الشيطان يتولاه ، ويحسن له المعاصي ، ويحببها له ، ويكرِّه له الإيمان ؛ لأنه أعرض عن الله ، وعن ذكره ، وآثر سخطه على رضاه ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه :١٢٤-١٢٦] .

فإذا نسي العبد ربه وتولى غيره ؛ خذله ، وولاه ما تولى ، ولم ييسره لليسرى ، بل وكله إلى نفسه ، فضل وغوى ، وليس له على ربه حجة، فإن الله أعطاه جميع الأسباب التي يقدر بها على الهداية ، ولكنه اختار الضلالة على الهدى ، فلا يلومن إلا نفسه ، كما قال سبحانه: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف:٣٠] ، وقال سبحانه في الآية الأخرى : ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة:١٦].

فإذا تبين للعبد أن الله على كل شيء قدير وأنه خلق كل شيء وقدره تقديرًا ، وأنه لم يخرج شيء ألبتة عن إرادته ومشيئته الكونية ، وأن هذا التقدير يأتي على جميع أحوال العبد وأفعاله وصفاته ؛ اتضح له معنى قوله

ﷺ : « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » .

وهذان الوصفان المتضادان هما اللذان ينال بهما العبد أسباب شقاوته، أو سعادته ، فينال بالعجز الخيبة ، والخسران ، والشقاوة ، والحرمان ، والمراد بالعجز هنا : العجز الذي يلام عليه العبد ، وهو عدم الإرادة ، وهو الكسل ، والتثاقل عن طلب الخير ، وفعله .

أما الوصف الثاني وهو الكيس ، فالمراد به : الجد ، والاجتهاد في طاعة الله ، وعدم الكسل ، والتثاقل عن أداء ما أوجب الله . وكما جاء في الحديث : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله » رواه الترمذي وحسنه ، وابن ماجة .

فعلى المؤمن أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن الله قدر الأشياء قبل أن يخلق السماوات والأرض ، كما روي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عند أبي داود وأحمد والترمذي ، أنه قال لابنه : « يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ، حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فقال : رب ، وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء ، حتى تقوم الساعة ، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من مات على غير هذا فليس مني» رواه أحمد .

وفي رواية لأحمد : « إن أول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم ، ثم قال :

اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» .

وفي رواية لابن وهب في كتاب القدر قال رسول الله ﷺ : « فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله عز وجل بالنار» .

وفي مسند أحمد ، وسنن أبي داود وابن ماجة عن ابن الديلمي قال : «أتيت أبي بن كعب ، فقلت له : إنه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر القدر، فحدثني بشيء لعله يذهب من قلبي ، فقال : لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل جبل أحد ذهبًا في سبيل الله عز وجل ما قبله الله منك ، حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا ، لدخلت النار ، قال : فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة ابن اليمان وزيد بن ثابت ، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ » .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : « من ترك الاختيار والتدبير في رجاء زيادة ، أو خوف نقصان ، أو طلب صحة ، أو فرار من سقم ، وعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير ، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه ، وأنه أعلم بمصلحته من العبد ، وأقدر على جلبها وتحصيلها منه ، وأنصح للعبد منه لنفسه ، وأرحم به منه لنفسه ، وأبر به منه بنفسه ، وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدي تدبيره خطوة

واحدة ، ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة ، فلا متقدم له بين قضائه وقدره ولا متأخر ، فألقى نفسه بين يديه ، وسلم له الأمر كله ، وانطرح بين يديه ، انطراح عبد مملوك ضعيف بين يدي ملك عزيز قاهر ، له التصرف في عبده بكل ما يشاء ، وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه ، فاستراح حينئذ من الهموم ، والغموم ، والأنكاد ، والحسرات ، وحَمَّل كل حوائجه ومصالحه من لا يبالي بحملها ، ولا يثقله ، ولا يكترث بها ، فتولاها دونه، وأراه لطفه ، وبره ، ورحمته ، وإحسانه فيها ، من غير تعب من العبد ، ولا نصب ، ولا اهتمام منه ؛ لأنه قد صرف اهتمامه كله إليه ، وجعله وحده همه، فصرف عنه اهتمامه بحوائجه ، ومصالح دنياه ، وفرغ قلبه منها ، فما أطيب عيشه ، وما أنعم وأعظم سروره وفرحه .

وإن أبى العبد إلا تدبيره لنفسه، واختياره لها ، واهتمامه بحظه دون حق ربه، خلاه ، واختياره ، وولاه ما تولى ، فحضره الهم ، والغم ، والحزن، والنكد ، والخوف ، والتعب ، وكسف البال ، وسوء الحال ، فلا قلب يصفو ، ولا عمل يزكو ، ولا أمل يحصل ، ولا راحة يفوز بها ، ولا لذة يهنأ بها ، بل قد حيل بينه وبين مسرته وفرحه ، وقرة عينه ، فهو يكدح في الدنيا ككدح الوحوش ، ولا يظفر منها بأمل ، ولا يتزود منها لمعاد .

والله سبحانه قد أمر العبد بأمر وضمن له ضمانًا ، فإن قام بأمره بالنصح ، والصدق ، والإخلاص ، والاجتهاد قام الله سبحانه له بما ضمنه

له من الرزق ، والكفاية ، والنصر ، وقضاء الحوائج ، فإنه جل وعلا ضمن الرزق لمن عبده ، والنصر لمن توكل عليه ، واستنصر به ، والكفاية لمن كان هو همه ومراده ، والمغفرة لمن استغفره ، وقضاء الحوائج لمن صدقه في طلبها ووثق به ، وقوي رجاؤه وطمعه في فضله وجوده ، فالفطن الكيس إنما يهتم بأمره ، وإقامته ، وتوفيته لا بضمانه ، فإنه الوفي الصادق ، ومن أوفى بعهده من الله .

فمن علامات السعادة صرف اهتمامه إلى أمر الله دون ضمانه . ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الاهتمام بأمره ، ومحبته ، وخشيته ، والاهتمام بضمانه ، والله المستعان » . اهـ كلامه رحمه الله من كتاب الفوائد .

اللهم ارزقنا إيمانًا كاملاً حتى نعلم أنه ما أصابنا لم يكن ليخطئنا ، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الرابع والأربعون

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ :

« **إذا حكم الحاكم ، فاجتهد ، ثم أصاب ، فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ، ثم أخطأ ، فله أجر واحد** » .

هذا الحديث أصل في باب الاجتهاد في معرفة الأحكام الشرعية والقضاء بين الناس ، فالحاكم هنا هو من عنده علم بأحكام الشريعة ، وإلمام بأحكام القضاء ، الوارد عن الله ، وعن رسوله ﷺ ، وله اطلاع على أحكام الصحابة رضي الله عنهم ، وقضاياهم ؛ ليبني حكمه على نصوص الوحيين، وقواعد الشريعة ، فيحسن تطبيقها على المسائل الجزئية التي ترد عليه ، فهذا هو الذي يتناوله الحديث المذكور هنا .

أما إن كان جاهلاً بالأحكام الشرعية ، فهذا لا يتناوله الحديث ؛ لأن الجاهل بالأحكام الشرعية الذي لا يعرف حكم الله ، ولا حكم رسوله في كثير من المسائل ، وليس لديه إلمام بأحكام سلف هذه الأمة، لا مجال له في الاجتهاد ، وبأي شيء يجتهد ، إذ ليس الاجتهاد هو ما يملي عليه ضميره ، وهواه المجرد ، بل المراد بالاجتهاد هو أن يستفرغ الفقيه وسعه في معرفة

الحكم الشرعي ، وذلك بأن يرجح بين الأقوال المختلفة بعد النظر في الأدلة، أو يعرف حكم نازلة بالاجتهاد في إدخال هذه القضية التي تجددت عنده ، فيما يعلم من حكم الله ، وحكم رسوله ، أو سلف هذه الأمة ، وتطبيق هذه الجزئية على الكليات التي عنده ، مما علمه به من أحكام الشريعة ، أما الاجتهاد الذي لا يتمشى على هذه القاعدة فإنه حكم بالهوى، سواء صدر من عالم أو جاهل ، فإن الجاهل لا يعلم شيئًا يقيس عليه ، ويطبق حكمه عليه ، والعالم الذي لم يبذل وسعه في تطبيق الحكم الشرعي ، على ما يعلمه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بل صار اجتهاده بمجرد هواه، وظنه ، وتخمينه ، فهو اجتهاد لا يؤجر صاحبه ، بل هو ظالم مفرط ؛ لأن الاجتهاد في الحكم إنما هو اجتهاد في معرفة الصواب في الحكم الشرعي أو تطبيقه على القضية المتجددة ، وإدخالها في القواعد الشرعية .

ولذا بين أهل العلم أنه يشترط في المجتهد شروطًا كثيرة لابد من تحصيلها ، حتى يكون أهلاً للاجتهاد ، وأهلاً لتولي القضاء ، فإذا توفرت فيه تلك الشروط ، واجتهد ، كتب له الأجر سواء أصاب الحق ، أو لم يصب ، لكنه إن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد .

إذا علم هذا فإنه يتبين لنا أنه يحرم على الجاهل تولي الحكم الشرعي بين الناس ؛ لأن الجاهل لو حكم ، وأصاب الحكم ، فإنه ظالم آثم ؛ لأنه لا يحل له الإقدام على الحكم ، وهو جاهل ، والعالم الذي لم يجتهد في القضية ،

ولم يطبقها على ما تقضيه الأحكام الشرعية ، فهو على خطر عظيم ، فإن حكم بهواه ، ومجرد رغباته ، فإنه يدخل في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ : «القضاة ثلاثة : واحد في الجنة ، واثنان في النار ، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار » رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة واللفظ لأبي داود .

ويدخل في هذا والله أعلم كل مجتهد في القضاء ، أو في الفتوى ونحوهم ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحكم في حال الغضب ؛ خوفًا من أن يغلب عليه هواه في حال غضبه ، ويحكم بغير ما أنزل الله ، فقال ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي بكر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان» رواه البخاري ومسلم .

والواجب على القاضي أن يجتهد في تنفيذ الحق على القريب والبعيد ، والصديق والعدو ، بحيث يكون الناس عنده سواء في الأحكام ، لا يفضل أحدًا على أحد ، ولا يميل للغني لغناه ، ولا مع الفقير لحاجته وفقره ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء:١٣٥] ، ويقول سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٨] .

وفي قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا حكم الحاكم ، فاجتهد ، وأصاب ، فله أجران ، وإذا حكم ، فاجتهد ، فأخطأ ، فله أجر واحد» : فيه فضل وإحسان من الله جل وعلا على عباده ، ولولا هذا الرجاء للحكام ؛ لقل من يتولى هذا المنصب من أهل الديانة والاستقامة ، خوفًا من الوقوع في المأثم ، ولكن هذا الحديث مرغب في تولي الحكم لمن وثق من نفسه القدرة على القيام بهذا الفرض ، وإسقاطه عن الأمة ، فإن القضاء من فروض الكفاية التي يحتاجها الخلق ، وليحذر كل الحذر من الوقوع فيما يكون سببًا لزلة قدمه ، عن تحقيق هذا الموقف ، فيخسر خسارة الدنيا والآخرة ، ويخشى أن تناله هذه الآية الكريمة ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦] .

وفي هذا الحديث بيان فضل الله تعالى ووسعة رحمته ، حيث جعل الأجر حاصل لكل مجتهد ، وهو من استفرغ وسعه في معرفة الحكم ، فإن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد ، ولا يكلف إصابة الحق ؛ لأن المخطئ قصد الحق ، وسعى في تحصيله ، وبذل وسعه متبعًا ما ظهر له

من الأدلة ، فيؤجر على ذلك ؛ لأن معرفة الحق والصواب متعذر في كل قضية ، لكنه يجتهد في الوصول لما يظنه الحق والصواب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية تعليقًا على هذا الحديث : « تبين أن المجتهد مع خطئه له أجر ، وذلك لأجل اجتهاده ، وخطؤه مغفور له ؛ لأن درك الصواب في جميع أعيان الأحكام إما متعذر ، أو متعسر ، وقد قال تعالى :﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨] ، وقال سبحانه : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥] » .

وقال أيضًا : « ما زال المجتهد مأمورًا بأن يجتهد ، ويتقي الله ما استطاع ، وهو إنما أمر بالحق ، لكن بشرط أن يقدر عليه ، فإذا عجز عنه لم يؤمر به ، وهو مأمور بالاجتهاد ، فإذا كان اجتهاده اقتضى قولاً آخر فعليه أن يعمل به ، لا لأنه أمر بذلك القول ، بل لأن الله أمره أن يعمل بما يقتضيه اجتهاده ، وبما يمكنه معرفته ، وهو لم يقدر إلا على ذلك القول ، فهو مأمور به من جهة أنه مقدوره ، لا من جهة عينه كالمجتهدين في القبلة إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالمصيب للقبلة واحد ، والجميع فعلوا ما أمروا به ، ولا إثم عليهم ، وتعيين القبلة سقط عن العاجزين عن معرفتها ، وصار الواجب على كل أحد أن يفعل ما يقدر عليه من الاجتهاد ، وهو ما يعتقد أنه الكعبة بعد اجتهاده ، فهو مأمور بعين الصواب ، لكن بشرط القدرة على معرفته ، ومأمور بما يعتقد أنه الصواب ، وأنه الذي يقدر عليه ، وإذا رآه لم يتعين من

جهة الشارع – صلوات الله وسلامه عليه – بل من جهة قدرته ، لكن إذا كان متبعًا لنص ولم يبلغه ناسخه ، فهو مأمور باتباعه إلى أن يعلم الناسخ ، فإن المنسوخ كان حكم الله في حقه باطنًا وظاهرًا ، وذلك لا يقبل إلا بعد بلوغ الناسخ له » اهـ .

نسأل الله تعالى السلامة من الهوى ، ومن شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه .

* * *

الحديث الخامس والأربعون

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه خصلة منهن ؛ كانت فيه خصلة من النفاق ، حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

في هذا الحديث يبين المصطفى ﷺ صفات المنافقين ، محذرًا منها ، ومن الاتصاف بها ، فقد أخبر النبي ﷺ أن للنفاق خصالاً ، قد تجتمع بالرجل ، وقد يكون فيه بعضها دون البعض الآخر ، فمن كان فيه خصلة منها ، ففيه خصلة من النفاق بمقدارها ، فيكون فيه خصلة من النفاق ، وخصلة من الإيمان ، أو خصال منه ، فيكون الإنسان منافقًا خالصًا ، أو مؤمنًا خالصًا ، أو فيه نفاق وإيمان ، وهو لما غلب فيهما .

واعلم أن النفاق على قسمين : اعتقادي ، وعملي ، والمراد بالعملي : هو ما ورد في هذا الحديث ، وأما الاعتقادي : فهو النفاق الأكبر ، الذي يظهر صاحبه الإسلام ، ويبطن الكفر ، وهذا النوع مخرج من الدين بالكلية، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ

ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦] .

وأهل النفاق موجودون في كل زمان ، ولا سيما في هذا الزمان، الذي ضعف فيه الإيمان ، وقل المتمسكون به حقًا ، وانتشرت فيه المبادئ الهدامة لأساس الدين ، من شيوعية ، واشتراكية ، وبعثية ، وغير ذلك من أنواع المبادئ التي غزت البلاد الإسلامية في هذا العصر الرهيب .

وتعريف النفاق : هو أن يظهر الإيمان ، ويبطن الكفر ، فيكون ظاهره الخير والصلاح ، وباطنه الشر والعداء لأهل الإيمان . ولابد لمن اتصف بهذا أن يظهر عليه في وقت من الأوقات ، ولا يستمر استتاره ، فلابد أن يحصل له ما يكشف حاله ، ويظهر سره ، كما حصل ذلك في عهد المصطفى ﷺ من المنافقين الذين كانوا حوله ، ويجالسونه ، ويصلون معه ، ويجاهدون ، ولكن عندما حصل ما حصل في غزوة أحد ، وخرج الرسول بأصحابه إلى أحد ، واقترب المشركون منهم ، رجع رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، ورجع معه جمع من الجيش ، فتبين بذلك المنافقون الذين كانوا يكتمون نفاقهم ، ويظهرون إسلامهم ، وأنزل الله في ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا

لِّأَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٨].

وكما حصل منهم في غزوة تبوك ، عندما مرَّ رسول الله ﷺ وأصحابه على طريق العقبة ، وكانت ضيقة، فنادى مناد أن رسول الله ﷺ سيمر على العقبة ، فلا يزاحمه أحد ، وانصرف الجيش عن العقبة إلى الطريق الأخرى ، وصعد مع العقبة الرسول ﷺ ، ومعه حذيفة رضي الله عنه ، وعمار بن ياسر رضي الله عنه ، وعمار آخذ بزمام ناقة الرسول ، وحذيفة يسوقها ، فعند ذلك اغتنم المنافقون هذه الفرصة ، وقالوا نلقي محمدًا من هذه العقبة ، ونستريح منه ، فجاؤا خلف رسول الله ﷺ على رواحلهم ، متلثمين ، وكان ذلك ليلاً ، فلما سمع رسول الله حسهم أخبر حذيفة وعمارًا بذلك ، فجعل حذيفة يضرب رواحلهم ، ويصدها عن رسول الله ﷺ ، ثم هربوا ، ووقى الله نبيه شرهم ، وقال لحذيفة هل عرفت القوم ؟ فقال : ما عرفتهم ؛ لأنهم متلثمون ، ولكن عرفت رواحلهم ، فأخبرهما رسول الله ﷺ بأسمائهم ، وكانوا اثني عشر ، أو ثلاثة عشر رجلاً ، وقال ﷺ لحذيفة وعمار بعدما أخبرهما بأسماء أولئك النفر : اكتماهم .

وأما النوع الثاني من أنواع النفاق : وهو ما تضمنه هذا الحديث ،

وهو النفاق العملي ، الذي لا يخرج من الدين بالكلية ، وهو مقدمة الكفر ، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال الأربع التي ذكرها ﷺ في هذا الحديث ، وهي : الخيانة ، والكذب ، والغدر ، والفجور ، فقد كملت فيه خصال النفاق .

والمؤمن تجتمع فيه خصال الخير ، وهي الأصل فيه ، وتوجد فيه خصال الشر التي يدفعها بإيمانه بالله وعمله بشريعته ، ولا يزال الشيطان به حتى تكون صفات الشر هي الغالبة فيه ، فتجتمع فيه الصفات الأربع ؛ ليكون منافقًا خالصًا ، كما أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث، وهذه الخصال هي :

الكذب : وهو من أفحش الخصال المذمومة ، ويشمل أشياء كثيرة أعظمها الكذب على الله سبحانه وتعالى ، كما قال عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الأنعام:٢١] .

ثم يليه الكذب على الرسول ﷺ ، فقد روى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من كذب علي متعمدًا ؛ فليتبوأ مقعده من النار» ، وهذا الحديث له عدة طرق ، بل قد بلغ حد التواتر .

ويدخل في النهي عن الكذب ، الكذب في الوقائع ، أو على الأشخاص الآخرين ، سواء على جهة الإفساد ، أو على جهة الاستغراب ، أو الظن ، أو التحري ، وقد قال ﷺ : « إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي

إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ، ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذابًا » رواه أحمد وأبو داود . « وسئل النبي ﷺ عن المؤمن أيكون كذابًا ؟ قال : لا » رواه مالك في الموطأ.

وأما الخيانة : فإنها تكون في الأموال ، والحقوق ، والأعراض ، والأسرار ، فمن خان صاحبه في هذه الأمور ، فهو متصف بصفة من صفات المنافقين ، والله عز وجل يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨] .

وأما الغدر بعد العهود ، ونكث الأيمان التي بينه وبين الله ، أو بينه وبين الناس ، فإنها كما أخبر الرسول ﷺ صفة من صفات المنافقين الذين لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، والله عز وجل يقول:﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل:٩١] ، وهذه الصفة من الصفات الخبيثة الدالة على خبث النفس ومهانتها ، ويدخل في ذلك من لا يتورع عن أخذ أموال الناس بالباطل ، ويحتال في أخذها ، والاستيلاء عليها .

فهذه الصفات لا تكاد تجتمع في المؤمن ؛ لأنها تنافي الإيمان ، ويخشى على من هذه صفته أن لا يبقى معه من الإيمان ما يصح به إيمانه ؛ لأنه يتدرج في تلك الصفات حتى تخرجه عن الإسلام عياذًا بالله ، كما قال تعالى في النفر الذين سخروا بالدين وأهله ، فأنزل الله فيهم : ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ

وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦] .

واعلم أن الواجب على من وقع في النفاق أن يبادر إلى التوبة منه ، سواء أكان نفاقًا عمليًا أو اعتقاديًا ، فإن الله عز وجل يقبل التوبة ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

اللهم احمنا من النفاق ، وأعذنا من الشقاق ، واجعلنا من عبادك المؤمنين ، وحزبك المفلحين .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

* * *

الحديث السادس والأربعون

روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس ».

بطر الحق: أي رده، وعدم قبوله. وغمط الناس: احتقارهم، وعدم المبالاة بهم.

هذا الحديث يدل على تحريم الكبر، وعظيم خطره، وجزاء صاحبه. ومعنى الكبر جاء مفسرًا في هذا الحديث بأنه بطر الحق، وغمط الناس، فيمنعه الكبر عن قبول الحق والعمل به ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٧٢]، وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في النار» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة.

فالكبرياء لا يكون إلا للرب جل وعلا، فهو سبحانه العزيز الجبار المتكبر، لذا كان الواجب على المسلم أن يتحلى بالتواضع، وخفض الجناح،

فإن التواضع وعدم التكبر من صفات عباد الله المؤمنين ، ومن سمات أوليائه المتقين، وخليقة من خلائق أنبياء الله المرسلين ، صفة يتميز بها العلماء العاملون، ويلزمها العقلاء العارفون ، كم نال المتواضع بتواضعه المنازل العالية بين أقرانه وذويه ، وتحصل على المكارم ، وسلم من المآثم ، واحتل في مجتمعه المكان المرموق، وكلما تواضع وصغر في نفسه، ارتفع وكبر في نفوس الخلق.

روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : إن الرجل إذا تواضع لله رفع الله حكمته ، أي قدره ومنزلته ، وقال : انتعش نعشك الله ، فهو في نفسه صغير ، وفي أعين الناس كبير ، وإذا تكبر العبد، وعدا طوره ، وهصه الله إلى الأرض ، وقال : اخسأ أخسأك الله ، فهو في نفسه كبير ، وفي أعين الناس صغير .

قال بعض العلماء : التواضع يرفع المرء قدرًا ، ويعظم له أجرًا ، ويزيده نبلاً ، والتواضع المحمود هو التواضع لله في طاعته ، وعبادته ، والتواضع لعباد الله بعدم ازدرائهم ، واحتقارهم ، وتنقصهم . أما التواضع لغرض من الأغراض لا لوجه الله ، إما لأجل محمدة الناس ، أو لأجل أن ينال من دنياهم ، فهذا تواضع مذموم شرعًا ، وإن كان قد يحصل بسببه للمرء ما يريد .

قال ابن حبان رحمه الله : التواضع يكسب السلامة ، ويورث الإلفة ،

ويرفع الحقد ، وثمرة التواضع المحبة ، كما أن ثمرة القناعة الراحة ، وإن تواضع الشريف يزيد في شرفه ، كما أن تكبر الوضيع يزيد في ضعفه ، وكيف لا يتواضع من خلق من نطفة مذرة ، وآخره يعود جيفة قذرة ، وهو بينهما يحمل العذرة .

وقد روي عن سفيان بن عيينة رحمه الله أنه كان يقول : لو قيل أخرجوا خيار هذه القرية ، لأخرجوا من لا نعرف .

وهذا من تواضعه رحمه الله ، فإنه مشهور ببلده وغيرها ، فيريد بذلك أن يدفع عن نفسه توهم أنه هو خير أهل هذه القرية . وقد قيل :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعًا فكم تحتها قوم همو منك أرفع

فإن كنت في عز وخير ومنعة فكم مات من قوم همو منك أمنع

قال أبو حاتم رحمه الله : أفضل الناس من تواضع عن رفعة ، وزهد عن قدرة ، وأنصف عن قوة ، ولا يترك المرء التواضع إلا إذا غلب عليه الكبر ؛ لأنه لا يتكبر على الناس أحد إلا إذا أعجب بنفسه ، وعُجْبُ المرء بنفسه أحد فساد عقله ، وما رأيت أحدًا تكبر على من دونه ، إلا ابتلاه الله بالذلة لمن فوقه ، وهذه من العقوبات العاجلة ، التي تحصل للمتكبرين في الدنيا ، وأما في الآخرة فهي أشد ، وأعظم ، فقد جاء في الأثر : « إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل

من كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال » رواه أحمد والترمذي وقال : حديث حسن .

وقد دل الحديث على أن الله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يتجمل، ويتنظف ، كما روي في الحديث الآخر : « إن الله نظيف يحب النظافة» رواه الترمذي. فالنظافة من خصال الإيمان ، والجمال والنظافة تشمل جمال الملبس ، من ثياب ، ونعل ، وغيرهما ، وتشمل غيرهما من النظافة المعنوية ، كنظافة القلب ، ونظافة اللسان .

فنظافة القلب : خلوه من الحقد ، والحسد، والغش ، والخداع ، وإضمار السوء للغير ، وسلامته من كل أنواع الرذيلة .

ونظافة اللسان : سلامته من السب ، والشتم ، والتطاول على الناس ، والوقوع في أعراضهم ، وسلامته من الغيبة ، والنميمة ، والقذف ، فطهارة القلب واللسان من هذه الأمور من أهم أنواع النظافة ، وأحسن ما يتجمل به العبد .

وأما نظافة البدن ، والثوب ، وجمالها ، فهي مطلوبة شرعًا كما في الحديث المتقدم ، وكما في الحديث الآخر الذي روي عن أبي الأحوص الجشمي قال: «رآني النبي ﷺ وعلي أطمار ، فقال : هل لك من مال ؟ قلت : نعم ، قال : من أي المال ؟ قلت : من كل ما آتى الله من الإبل ، والشاء ،

قال : فلتر نعم الله وكرامته عليك » .

وروى الترمذي وحسنه : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » فالأصل أن الله سبحانه يحب من عبده أن يتجمل وأن ترى أثر النعمة عليه، وهذا من الجمال الذي يحبه الله ، ومن شكره على نعمه .

والشكر من الجمال الباطن ، فالله يحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة ، والجمال الباطن بالشكر عليها ، والله أنزل على عباده لباسًا وزينة تجمل ظواهرهم ، وأنزل لهم لباسًا يجمل بواطنهم ، ونفى التعدي كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ﴾ [الأعراف:٢٦] .

والله سبحانه يحب الجمال في الأقوال ، وفي الأفعال ، وفي اللباس والهيئة ، لكن في حدود ما أباحه الله لنا ، أما ما حرمه علينا ، فإن الله لا يحبه، وإن استحسنه بعض الناس ، وذلك مثل لباس الحرير ، أو لباس الذهب ، أو ما فيه مشابهة للكفار ، أو ما فيه شهرة بين الناس ، فإن هذا تنهى عنه الشريعة الإسلامية .

فقد روى الإمام أحمد والترمذي وحسنه والحاكم عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من ترك اللباس تواضعًا لله ، وهو يقدر عليه ، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها » .

وينبغي للمسلم أن يعتني أيضًا بتحسين ونظافة باطنه ، ولا تكن عنايته بالظاهر أشد من الباطن ، فإن تدنيس الأخلاق أعظم من تدنيس الثياب ، وربما يكون المرء ثوبه وسخًا أو مرقعًا ، ولكن قلبه يكون نظيفًا من الخداع والغش والحقد ، فيكون له منزلة شريفة بين بني جنسه لحسن خلقه ونظافة باطنه ، وقد قيل :

قد يدرك الفـــتى ورداؤه خــلق وجيب قميصه مرقـوع

فالواجب على المسلم أن يلبس الثياب المعتدلة في الجمال ، لا يلبس المشهور في الجمال ، الذي يلفت الأنظار ، ولا يلبس الرديء الذي يلفت الأنظار من رداءته ، فخير الأمور أوساطها ، وليعلم المسلم أنه إذا ترك لبس الثياب الغالية النفيسة تواضعًا لله فإنه يؤجر على ذلك لزهده بشرف الدنيا وإيثار ما عند الله على ما يحب ، وقد وردت أحاديث في ذلك منها : ما رواه أبو داود رحمه الله أن النبي ﷺ قال : « من ترك لبس ثوب جمال، وهو يقدر عليه تواضعًا ، كساه الله حلة الكرامة » .

وروى الإمام أحمد والترمذي وحسنه عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من ترك اللباس تواضعًا لله وهو يقدر عليه ، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من حلل الإيمان شاء يلبسها» .

وفي أبي داود عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : ذكر أصحاب رسول

الله ﷺ يومًا عنده الدنيا ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا تسمعون ، ألا تسمعون، إن البذاذة من الإيمان ، إن البذاذة من الإيمان ، إن البذاذة من الإيمان » .

وفسر العلماء رحمهم الله البذاذة بأنها التواضع في اللباس ، برثاثة الهيئة، وترك الزينة ، والرضا بالدون من الثياب . وقد فسر الإمام أحمد البذاذة بأنها التواضع في اللباس .

وفي الصحيحين عن أبي بريدة قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها فأخرجت إلينا إزارًا غليظًا مما يصنع في اليمن وكساء من التي يسمونها الملبدة ، قال : فأقسمت بالله إن رسول الله ﷺ قبض في هذين الثوبين » .

وقد يخفى على البعض الجمع بين حديث : « إن الله إذا أنعم على عبد أحب أن يرى أثر نعمته عليه » . وبين هذه الأحاديث الواردة في ترك ثياب الزينة ، وقد قال العلماء رحمهم الله في الجمع بينهما : إن الله إذا أنعم على عبد بالخير ، فلا يلبس لباس الفقراء ، ولكن ليس المعنى أنه يلبس المشهور من الثياب ، ولكن يتوسط في ملبسه ، أو يلبس الثياب الحسنة في بعض الأوقات ، إظهارًا للنعمة ، ويستمر في غالب أحواله على اللباس المتوسط ، الذي لا يعاب فيه ، ولا ينقص من قدره ، فيزدرى به ، ولا يلبس ما يشتهر به بين الناس ، بل يكون وسطًا .

كل ما اشتهيت والبسن　　　ما يشـــــتهيه النـــاس

فاللباس الذي يلبسه جمهور الناس هو الأولى ، بحيث لا يلفت أنظار الناس إليه ، في الوقوع بعرضه ، بتهمته بالتكبر ، أو تهمته بالبخل والشح ، والله أعلم.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

الحديث السابع والأربعون

روى البخاري – واللفظ له– ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« **يضحك الله إلى رجلين ، يقتل أحدهما الآخر ، يدخلان الجنة ، يقاتل هذا في سبيل الله ، فيقتل ، ثم يتوب الله على القاتل ، فيستشهد** » .

هذا الحديث يدل على سعة فضل الله سبحانه ، ورحمته ، وأن فضله وإحسانه وكرمه جل وعلا ليس له حصر ، ولا تدركه عقول البشر .

فقوله ﷺ: « يضحك الله » : فيه إثبات الضحك لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته ، ولا يعلم كيفية ذلك إلا هو سبحانه ، ويجب علينا الإيمان بما أثبته الله لنفسه ، وما أثبته عنه أعلم الخلق به ، وأتقاهم له ، مع القطع واليقين الجازم أنها لا تشبه صفة المخلوقين ؛ لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] . فصفات الله التي ثبتت يجب علينا أن نؤمن بها كلها ، ونجريها على ظاهرها ، لا نتأول ، ولا نفسر ، ولا نكيف ، ولا نمثل ، ولا نشبه ، ولا نعطل ، وكل صفات الرب سبحانه صفات كمال على ما يليق بجلاله سبحانه ، ولذا كان من أركان الإيمان أن تؤمن بأسماء الله وصفاته ، مما ثبت في كتاب ربنا وسنة نبينا محمد ﷺ ، ولما

سئل الإمام مالك عن الاستواء ، قال: الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة . وقد ضل من ضل في باب الأسماء والصفات لما خاضوا في هذا الباب بما لم يكلفوا به ، وتركوا التسليم والإثبات لكل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ .

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على يسر الإسلام وسماحته ، وسعة فضل الله وأنه سبحانه وتعالى يقبل توبة عباده ، مهما عملوا من الذنوب ، والمعاصي ، إذا تابوا توبة صادقة نصوحًا ، فلله ما أعظم عفوه سبحانه ، وما أوسع حلمه ، وما أعظم كرمه ، كيف منّ على هذا المعاند ، الذي كان يقاتل أولياء الله ، ويقتل الرجل المؤمن المجاهد في سبيل الله ، ثم بعد ذلك يتوب الله عليه ، ويهديه للإسلام ، فيستشهد في سبيل الله ، ثم يدخله الله الجنة ، فبإسلامه كفر الله عنه خطيئاته ، كما قال ﷺ لعمرو بن العاص : « أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما قبله » رواه مسلم . وبقتاله في سبيل الله ، واستشهاده في سبيله ، حصلت له الجنة ، فدخل الجنة هو والرجل المؤمن الذي قد قتله ، لما كان كافرًا .

وفي هذا الحديث ترغيب المسلم المسرف على نفسه بالذنوب والآثام بالتوبة ، وأن ما عمله الإنسان في حال كفره ، أو في حال تماديه بالذنوب والمعاصي معفو عنه بعد الإسلام والتوبة النصوح ، ورد حقوق الآدميين لهم ، ولو كانت تلك الحقوق قبل دخوله في الإسلام فإن الإسلام لا يسقط

حقوق العباد ، وإنما الذي يسقطه الإسلام هو ما يحصل في حال الحرب بينهما ، وما يترتب عليه من أنفس وأموال ، فهذا لا يُرَدّ على سبيل الوجوب، ولو رده طوعًا واختيارًا فهو حسن .

وبين الشيخ ابن سعدي رحمه الله أن هذا يشبه قتال أهل البغي من بعض الوجوه ، إذ من المعلوم أن أهل البغي إذا قاتلوا أهل العدل لا يضمنون ما أتلفوه ، ولا يضمن لهم ما أتلف عليهم حال الحرب ؛ لأنهم كانوا متأولين ، ويرون أن هذا القتال سائغ لهم ، حسب اجتهادهم ، وإن كان في نفس الأمر غير صحيح .

وقد حكى بعض العلماء الإجماع من الصحابة ، على أن ما تلف حين وقعت الفتنة بينهم رضي الله عنهم أجمعين لا يضمن لكل من الطرفين ، سواء كان ذلك في النفوس أو في الأموال ، ولكن هذا كما سبق أنه ما يحصل في حال الحرب فقط .

وأما قوله ﷺ : « ثم يتوب الله على الآخر فيسلم فيستشهد » : فهو يدل على أن الأعمال بالخواتيم ، فقد أخبر ﷺ أنه بعد ما قاتل المسلمين ، وكان قتاله الأول في سبيل الطاغوت ، ولكن لما هداه الله للتوبة ، وتاب ، وأسلم ، وقاتل في سبيل الله ، كفَّر الله عنه سيئاته السالفة ، وأدخله الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٧٠] .

وفي قوله عليه الصلاة والسلام : « ثم يتوب الله على الآخر ، فيسلم»: بيان رحمة الله بعبده ، وهدايته له أن أذن للعبد وقدر له التوبة ، ويسرها له ، ثم يتفضل الرب جل جلاله فيقبل تلك التوبة من عبده . وقد جاء في القرآن ما يدل على ذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة:١١٨] المعنى : أن الله أذن لهم بالتوبة ، وقدرها لهم ، ووفقهم لها ؛ ليتوبوا ، أي تنفع منهم التوبة ، فيتوب الله عليهم ، وهذا الحكم ثابت في جميع الطاعات كلها ، ولا حول ولا قوة للعبد ، إلا بتيسير الله له ، وتوفيقه، فإنه هو الموفق، والمسهل ، والميسر للأسباب ، فإذا وقع الفعل من العبد قبله الله منه ، وكتب له به الأجر والثواب .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يحث أصحابه على التوبة ، ويأمرهم بها ، ويقول ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة » رواه مسلم. وفي لفظ : «أكثر من سبعين مرة» رواه البخاري.

والله عز وجل ينادي عباده المؤمنين بقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [التحريم:٨] .

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي

ﷺ قال: « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » .

وروى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم ، كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي ، وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح » .

اللهم تب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ووفقنا لما يرضيك يا حي يا قيوم .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

الحديث الثامن والأربعون

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أوَ لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم » .

كان من هدي المصطفى ﷺ إفشاء السلام ، وكان كثيرًا ما يأمر به ، ويحث عليه ، وقد أخبر ﷺ أنه قد شرع من حين خلق آدم عليه السلام ، وأنه تحيته وتحية ذريته ، كما ورد ذلك في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « خلق آدم على صورته ، طوله ستون ذراعًا، فلما خلقه ، قال : اذهب ، فسلم على أولئك النفر ، وهم نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يجيبونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، قال : فذهب ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه : ورحمة الله ، قال : فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، وطوله ستون ذراعًا ، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن » .

وقد حث ﷺ على إفشاء السلام في عدة أحاديث ، ورغب فيه ، وأخبر أن البادئ بالسلام برئ من الكبر ، وأنه من الأسباب الجالبة للمودة والمحبة

بين المسلمين .

ومما يدل على فضيلة السلام ما روى البخاري ومسلم عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ أي الإسلام خير ؟ قال: «تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « للمؤمن على المؤمن ست خصال : يعوده إذا مرض ، ويشهده إذا مات ، ويجيبه إذا دعاه ، ويسلم عليه إذا لقيه ، ويشمته إذا عطس ، وينصح له إذا غاب أو شهد » رواه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

ومن آداب السلام أن يسلم المفضول على الفاضل ، والصغير على الكبير، والقليل على الكثير ، والراكب على الماشي ، والماشي على القاعد . فهذه من الآداب التي أدب بها ﷺ أمته كما جاء في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يسلم الراكب على الماشي ، والماشي على القاعد ، والقليل على الكثير » .

وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يسلم الصغير على الكبير ، والمار على القاعد ، والقليل على الكثير » .

وينبغي للمسلم أن لا يبخل بالسلام على أحد من المسلمين ، وأن يتواضع بالسلام على كل مؤمن ، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: « ما رأيت الذي

هو أبخل منك إلا الذي يبخل بالسلام » رواه أحمد.

وجاء عن أنس رضي الله عنه كما في الصحيحين « أن رسول الله ﷺ مر على غلمان ، فسلم عليهم » .

وفي مسند الإمام أحمد رحمه الله عن جرير رضي الله عنه « مر النبي ﷺ على نسوة فسلم عليهن » .

فعلى المسلم أن يتصف بخلق النبي ﷺ ، فيسلم على الكبير والصغير ، وعلى من يعرف ومن لا يعرف ، وعلى المرأة إذا أمن الفتنة ، وهي إذا كانت عجوزًا كبيرة لا يخشى عليه الافتتان بها ، فإن كانت ليست كذلك بأن كانت شابة ، فلا ينبغي له أن يسلم عليها ، ولا ينبغي لها أن تسلم عليه خوفًا من الفتة ، وقد قال ﷺ : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » رواه البخاري ومسلم ، ويقول الله عز وجل : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب:٣٢] .

ومن آداب السلام أن لا يبتدئ غير المسلمين به ؛ لقوله ﷺ : «لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه» رواه مسلم .

وأما إذا مر بمجلس فيه مسلمون وغيرهم ، فإنه يسلم عليهم لحق المسلمين عليه ، فقد جاء عن أسامة بن زيد رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ

مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، فسلم عليهم » متفق عليه .

ومن آداب السلام أن يبادر برده على من سلم عليه ، بل يجب حينئذ الرد، فإن ابتداء السلام سنة ، وأما رده فإنه واجب ، ولو سلم عليه كافر ، فإنه يرد عليه السلام ، ولكنه يرده بالصيغة التي أرشد إليها المصطفى ﷺ وأمر بها ، كما في صحيح البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم» .

وكما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت : استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ، فقالوا السام عليك، فقلت : بل عليكم السام واللعنة، فقال : « يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله ، قلت : أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال : قد قلت : وعليكم »رواه البخاري ومسلم . وفي رواية أخرى لمسلم «عليكم» بدون ذكر الواو .

ورواه البخاري بأبسط من هذا ، فقال : قالت : «إن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا : السام عليك ، قال : وعليكم ، فقالت عائشة : السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم ، فقال رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة عليك بالرفق ، وإياك والعنف أو الفحش ، قالت : أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال : أو لم تسمعي ما قلت ؟ رددت عليهم ، فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في».

وهذا يدل على حسن خلقه ﷺ ، فإن اليهود يقولون السام عليك، ويريدون بذلك الموت ، ويظهرون أنهم يدعون له بالسلامة ، وهم يدعون بضدها ، يدعون عليه بالهلاك ، وقد فطن لهم ﷺ ، ولم يزد على أن قال : عليكم ، فرد عليهم تحيتهم ، ولم يزد على ذلك ، ونهى عائشة رضي الله عنها عن مسبتهم، وأمرها بالرفق ، وأخبر أن الله يحب الرفق في الأمر كله .

اللهم صل وسلم على خير رسلك ، وأفضل أنبيائك ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

الحديث التاسع والأربعون

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ، إذا اجتنبت الكبائر » .

هذا الحديث فيه بيان فضل الله ، وسعة رحمته ، وعطائه ، وعظيم فضله ، وإحسانه ، على عباده المؤمنين . وهو دليل على فضل هذه العبادات، وبيان مزيتها ، وعظيم منزلتها عند الله سبحانه .

فأولها : الصلوات المفروضة : وقد جاء بيان فضلها ، وعظيم قدرها في عدة آيات من القرآن الكريم ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت:٤٥] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور:٥٦] .

فالصلاة لا يتم دين المرء بدونها ، وهي سبب لاجتناب الفحشاء، والمنكر ، وسبب لحصول رحمة الله سبحانه وتعالى ، وقد كان ﷺ يوصي بها ،

وهو في آخر لحظة من الدنيا ، فقد كان وهو في سياق الموت يوصي بها ويحث عليها ، فيقول ﷺ : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم» رواه أحمد. أي : الزموا الصلاة، وأقيموها ، والزموا الإحسان ، والرفق ، بما ملكت أيمانكم.

وهذه الصلاة التي تكفر الذنوب هي التي تؤدى على الوجه المطلوب، الذي أراده الله منا ، وبين كيفيتها لنا ﷺ بفعله ، وبقوله ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « صلوا كما رأيتموني أصلي» رواه البخاري . فالصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتكون كفارة لما بينها وبين الصلاة الأخرى ، هي التي تؤدى بشروطها ، وأركانها ، وواجباتها ، وخشوعها ، وذلك لما تشتمل عليه من تلاوة القرآن ، وما فيه من الموعظة والذكرى.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره : فإذا دخل المصلي في محرابه ، وخشع ، وأخبت لربه ، وذكر أنه واقف بين يديه ، وأنه مطلع عليه ويراه ؛ صلحت لذلك نفسه ، وتذللت ، وخامرها ارتقاب الله تعالى ، وظهرت على جوارحه هيبتها ، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة ، فهذا معنى هذه الأخبار ؛ لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون .

روى البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن

النبي ﷺ قال : «أرايتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه ، كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحوا الله بهن الخطايا » .

الثاني : صلاة الجمعة : وقد جاء في القرآن الكريم الحث عليها ، وبيان فضلها ، فقال عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الجمعة:٩] .

فالله سبحانه يأمر عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة ، والمبادرة إليها ، من حين ينادى لها، والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا : المبادرة بالذهاب إليها والاهتمام بها .﴿ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ﴾ أي : اتركوا البيع إذا نودي للصلاة ، وامضوا إليها ، فإن ذلك خير لكم من اشتغالكم بالبيع ، أو تفويتكم لصلاة الجمعة ، التي هي من أهم الفرائض ، إن كنتم تعلمون أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من آثر الدنيا على الدين خسر الخسارة الحقيقية، من حيث يظن أنه يربح .

وهذا الأمر بترك البيع إنما هو وقت الصلاة ، ولذلك قال سبحانه : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ لطلب المكاسب والتجارات ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم ، وهذا هو سبب الفلاح، ولذلك قال سبحانه ﴿ لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ .

وقد جاء في فضل الجمعة أحاديث كثيرة ، فمنها قوله ﷺ كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وحسنه والنسائي ، عن أوس بن أوس الثقفي ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من غسل، واغتسل يوم الجمعة، وبكر ، وابتكر ، ومشى، ولم يركب ، فدنا من الإمام ، فاستمع، ولم يلغ ، كان له بكل خطوة عمل سنة ، أجر صيامها ، وقيامها » .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ، ثم راح في الساعة الأولى ، فكأنما قرب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية ، فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة ، فكأنما قرب كبشًا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة ، فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة ، فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام ، حضرت الملائكة يستمعون الذكر » .

ويستحب لقاصد الجمعة أن يلبس أحسن ثيابه ، ويتطيب ، ويتسوك، ويتنظف ، ويتطهر ، ويغتسل .

الثالث : قوله ﷺ في هذا الحديث : « ورمضان إلى رمضان » أي : أن شهر رمضان لمن صامه على الوجه المطلوب ، وامتثل أمر الله ، وأمر رسوله ﷺ في ذلك ، كان كفارة لما بينه وبين رمضان الآخر .

وهذا يدل على فضل الصوم ، وكثرة ثوابه عند الله . وصيام رمضان سبب من أسباب التقوى ، كما قال عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ

عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣] .

وقد جاء في فضله عدة أحاديث : منها ما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « كل عمل ابن آدم له ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله عز وجل : إلا الصوم فإنه لي ، وأنا أجزي به ، إنه ترك شهوته ، وطعامه ، من أجلي ، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

فهذه الفرائض الثلاث المشار إليها في هذا الحديث إذا تجنب العبد كبائر الذنوب ؛ غفر الله بها الصغائر والسيئات ، وهي من أولى ما يدخل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤] ، كما أن الله سبحانه وتعالى جعل اجتناب الكبائر سببًا لتكفير الصغائر ، كما قال عز وجل : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء:٣١] وهذا من جوده سبحانه ، وفضله على عباده .

وفي الحديث دلالة على أن النصوص الواردة في تكفير السيئات بالأعمال الصالحات ، إنما هي الذنوب الصغائر دون الكبائر ، فإن الكبائر لابد لها من توبة نصوح ، فإذا كانت هذه الثلاث التي هي الصلوات

الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، كفارة لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر ، وهذه من أكبر أنواع العبادات ، فالصلاة والصيام ركنان من أركان الإسلام ، فإذا كانت لا تكفر بها إلا الصغائر ؛ فكيف بما دونها من أنواع العبادة ؟

وفي الحديث دليل على أن الذنوب فيها كبائر وصغائر ، وقد كثر كلام العلماء في الفرق بينهما . وأقرب الأقوال : أن الكبيرة ما رتب على مرتكبها حد في الدنيا ، أو توعد عليه في الآخرة ، أو لعن مرتكبها ، أو رتب عليه غضب الله ونحوه . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٣] ، وقوله ﷺ : « لعن الله آكل الربا » وغير ذلك من النصوص ، وقد اعتنى أهل العلم ببيان هذه الكبائر ، وأفرد الإمام الذهبي، وابن حجر المكي ، وغيرهما مصنفات مستقلة في بيان ذلك .

أما الصغائر فهي ما عدا ذلك . والله أعلم .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

الحديث الخمسون

روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

« انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » .

هذا الحديث الشريف من حكمه ﷺ ، ووصاياه النافعة ، وكلماته الشافية الكافية ، ففيه الحث على شكر الله سبحانه وتعالى على نعمه وآلائه التي لا تعد ولا تحصى ، والاعتراف بها ، والتحدث بها ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى:١١] ، فيستحق سبحانه أن يبذل له من الشكر ، والاعتراف بنعمه ، والعبادة ، ما يستحقه سبحانه وتعالى . وإن من أعظم النعم التي يستحق المولى جل وعلا الشكر عليها الهداية للإسلام واتباع النبي محمد ﷺ ، وما جاء به عن الله جل وعلا : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران:١٠٣] ، وشكر الله بأن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى .

وعلى جميع الخلق أن يسعوا في طلب رضى الرب جل جلاله ، بكل ما يستطيعون ، شكرًا ، ووفاء بالعهد ، واعترافًا بالفضل ، وطلبًا للزيادة من

النعم ، وخوفًا من زوالها .

واعلم أن للشكر أسبابًا ، من أهمها : ما أرشد إليه ﷺ في هذا الحديث الشريف ، فإنه من أقوى أسباب الشكر ؛ لأن العبد إذا تأمل أحوال الناس، وما فيها من الأحوال التي لا يحبها لنفسه ، ولا يرضى لها الاتصاف بها ، فإذا رأى من دونه في العقل ، شكر نعمة الله على ما وهبه من نعمة العقل ، الذي يستطيع به معاشرة الناس ، على قدر عقولهم ، وعرف به سلوك الطرق التي تشرفه ، وتعزه بين الناس ، واجتنب الأمور التي تدنس عرضه، وتشوه سمعته ، عند أبناء جنسه .

وأعظم من هذا كله معرفة ما يجب لله من الإيمان به ، وعبادته ، وطاعته التي بها تحصل سعادة الدين والدنيا .

وإذا رأى مبتلى في دينه ، أو في عرضه ، أو رأى من هو دونه في النسب أو المال ، شكر نعمة الله عليه ، أن سلمه من هذه الأمور ، والتجأ إلى الله ، بأن يحفظه، ويحميه ، ويعافيه من هذه البلوى التي رآها في غيره ، وسأل السلامة منها .

وقد قيل :

لكل ما يؤذي وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم ينم

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ

ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤] ، ويقول سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧] .

ثم إذا تأمل الإنسان المبتلى بشيء من هذا ونظر إلى النعم الأخرى التي منَّ الله عليه بها ، وتأمل أحوال الناس ، وما بهم من المصائب ؛ خف عليه ما يجد ، وعلم أن كل مصيبة لا بد أن يوجد ما هو أعظم منها ، فيشكر الله على ما به ، ويحتسب ، ويصبر ، ويعلم أن الله سبحانه قد يبتلي بعض الناس ببلوى في بدنه أو ماله ، وتكون في نفس الأمر نعمة ؛ لأنه ربما كانت سببًا في دفع ما هو أعظم مما حصل ، وربما كانت سببًا لحصول رفعة ، ومنزلة عالية، في الدنيا أو في الآخرة .

كما أن من توالت عليه النعم الدنيوية ، من مال ، وجاه ، وكثرة أولاد وسلامة من الأمراض ، قد تكون استدراجًا ، ومكرًا به ، كما قال عز وجل: ﴿ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤].

فعلى المؤمن أن يكون في حاله بين الرغبة والرهبة لله في الحالين : حالة الرخاء ، وحالة الشدة ، فلا يفرح ، ولا يمرح ، ولا يأمن من مكر الله ، وفي حالة الشدة ، لا ييأس ، ولا يقنط من رحمة الله ، فإنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

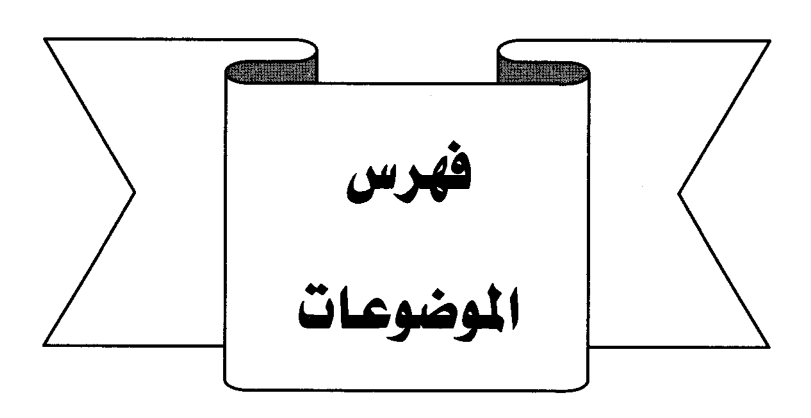
فمن وفق للاهتداء بهدي المصطفى ﷺ ، واتبع ما أرشد إليه من النظر إلى من هو دونه ؛ لم يزل شكره في زيادة ، وحاله إلى خير .

وأما من نظر إلى من فوقه في المال والجاه والعافية ، وغير ذلك ، فإنه في هم وغم وازدراء لنعمة الله التي هو عليها ، وتمنى أن يكون مثل من ينظر إليه ، وربما بلغ به الأمر إلى التسخط والجزع ، فيبوء بالخسران والاعتراض على قضاء الله وقدره ، والله جل وعلا حكيم في قضائه ، فإن من عباد الله من لا يصلحه إلا الفقر ، والله سبحانه يبتلي عباده بأنواع البلاء ، فمن كان فقيرًا في ماله فليذكر نعمة الله عليه في صحته ، وعافيته ، وسلامة بدنه ، وأعضائه ، ويتذكر نعمه على أهله وأولاده ، وعلى أمنه ومسكنه ، ولا يتحسر على ما فاته من النعم التي عند غيره ، وكل أحد فقد نعمة فليتذكر ما يدخره الله له من الثواب إن صبر واحتسب ، وسلم ورضي ، كما قال المصطفى ﷺ : « عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرًا له » رواه مسلم .

اللهم وفقنا للعمل بكتابك ، والاهتداء بهدي نبيك ﷺ ، واجعلنا ممن إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر ، وإذا أذنب استغفر ، يا حي يا قيوم .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *


فهرس
الموضوعات

فهرس الموضوعات